جليد تحت الشمس

مُحمد الغنَّام

ليليت للنشر والتوزيع

الطبعة الاولى مارس 2020

جليد تحت الشمس

محمد الغنام

ر.د.م.كـــ : 978-977-784-043-9

الايداع القانوني 7158/2016

تدقيق لغوي : أ. حسام أبو المجد

تنفيذ الغلاف : أحمد الصباغ

منشورات ليليت للنشر والتوزيع

موبايل: ٠١١١٩٢٥٠٣٨٠

البريد الاليكتروني: lileteepublishing@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعا كليا نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب وبأية وسيلة كانت ، ورقية أو اليكترونية أو ميكانيكية أو تسجيلية سمعية أو بصرية، دون إذن خطي من الناشر.

الأراء الواردة بالرواية لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

«طوبي للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله»

متى ٥:٨

إهداء

أمي وأبي.. أجمل ما في هذا الكون من معنى.

زوجتي إنجي.. عصاي التي أتوكّأ عليها نحو الحياة.. رفيقة العمر والقلب.

أولادي.. الجميلة ليندا وسليم.. ثمرة حياتي وعنوان قلبي.

إيمان سعيد المكافحة في أغلب الأحيان والأكثر جنونًا أيضًا.. عاشقة الأدب والحياة.

دار ليليت بيت الأدب.. نهر البهجة الأبدي الذي لا ينضب.

وأخيرًا صديقي المخلص محمد علي محل الثقة والتقدير.

وكل محبي العالم.. الأنقياء الذين يرون العالم من نافذة المحبة.

الذين عرفوا.. واستَنَارُوا.. وصبروا، كلَّ محبَّتِي.

استيقظت كعادتي في وقتٍ متأخرٍ من الليل ولكني اليوم مُتْعبةٌ للغاية، ويتصبب العرق من كل أنحاء جسدي حتى إن فراشي يبدو مبلَّلًا من آثار التعرق وكأنني كنت في عراكٍ مع أحدهم أو أن الأمر يشبه كابوسًا مزعجًا قد ألمَّ بي، حاولت تهدئة نفسي وقلت إن الأمر لم يكن سوى كابوس وقد ولَّى.. والآن أنا بخير، جفَّفتُ عرقي، ونظرت إلى جسدي ولكن الأمر لا يبدو مجرد كابوس وحسب، تسارعَتْ دقات قلبي للغاية وكأنها نوبة هلع جديدة، وصرت أتساءل عما جرى البارحة، أصابني الغثيان وكدت أفقد الوعي، عدت بذاكرتي للوراء قليلًا، وبعد جهدٍ كبيرٍ لم أستطع تذكر أي شيء بعد تناول الشمبانيا ليلة أمس، انتفضتُ مسرعة كي أتفحص جسدي جيدًا، لم يبدُ في حالته السابقة التي أنظر أراه عليها، فأنا أعرف كل شيء عن جسدي وأغلب أوقاتي داخل غرفتي أبقى عارية، هرعت نحو هاتفي المحمول كي أراجع سجل محادثاتي السابقة وخاصة تلك التي تمت ليلة أمس، وجدت بالفعل ما يقرب من عشر محادثات من شخصٍ يُدْعى هاشم، فلم أكن أعرف من قبلُ رجلًا بهذا الاسم، دبَّ الخوف والقلق بقلبي ودون إرادة مني أسرعت نحو أمي.. فهي ملاذنا من كل مُلِمَّاتِ الحياة، وارتميت في حضنها في تصرف لا يمكن تفسيره على أي نحو.. لكن أمي باتت تنظر إليَّ بشيءٍ من الغرابة والاستهجان، فلم أعتدْ منها تلك النظرات من قبل، ظننتُ أني قد ارتكبت جرماً يعرفه الجميع سواي، فلم أعرف أيضًا كيف عدت من سفري من الإسكندرية، لا أذكر أي شيء.. لا أذكر أي شيء.

باغتتني أمي بلهجةٍ قويةٍ قائلة:

- «روحي البسي هدومك يا ماري.. إنتي اتجننتي؟!»

وكأن قطعة ثلج سقطت على جسدي العاري في ذلك الجو البارد، ثم انهمرتُ في

البكاء بلا توقف حتى احتضنتني أمي بنظرةٍ حانيةٍ كلها إشفاق، نظرة أمٍ صادقة ثم صاحت باكية:

- «إيه يا بنتي اللي حصل؟ قوليلي.. قلقتيني!»

لم يكن لدي رد كي أجيب عن تساؤلها ولكني احتضنتها بشدة:

- «أنا محتاجاكي كده يا ماما»

ما كان من أمي إلا أنها واصلت احتضاني بقوة حتى كدت أغفو بين ذراعيها لولا أن طرق الباب طارق فأسرعت نحو غرفتي كي أرتدي ملابسي، تلك الغرفة التي أحبها وأبغضها، فكم أجهدني الحديث إلى تلك الحوائط التي لا تعي ولا تتغير. قد كرهت الحياة ولم أعد أرى لها أي مذاق فيما ما زلت في السابعة والعشرين من العمر، فهي تباغتني دومًا بما لا أطيق، لم أعرف سببًا لما أمر به غير أن تلك الوحدة قاتلة.. لكن الاجتراء على الناس أيضًا قاتل، إذن فما الفارق بين أن تقتلك نفسُك، أو أن يطعنك الناس بغدرهم وسوء طباعهم؟! زميلاتي يَرَيْنَنِي آفةً يجب اجتنابها، بل وينصحهم آباؤهم بالابتعاد عني، ألهذه الدرجة أبدو حمقاء في أعينهم؟ لِمَ؟ ألأنني قلت لا؟!

تصدر مني ألفاظ نابية بعض الأوقات بقصدٍ أو من غير قصد، لكنهم أيضًا يأكلون بعضهم، ويغتصبون غيرهم بنظراتهم الجائعة ثم يلتمسون لأنفسهم الأعذار بحجةٍ أو من غير حجة! ما هذا الفصام المقيت! لم أعد أذهب إلى الكنيسة كما كنتُ من قبلُ رغم أنني من أسرة أرثوذكسية يغلب عليها التدين، حتى تلك الوجوه لم أعد أطيق رؤيتها.

أهي حالة من حالات النفور التي تفتك بأصحاب الرؤى وتودي إلى الجنون

والعـزلة؟ أم إنـه قانـون الحيـاة المجحـف لـكل مـن قـال لا؟

كرهـت الأديان، بـل وكرهـت المسـميات كلها حـتَى الله مـا عدت أشـعر بـه، كامرأةٍ في العقـد الثامـن مـن العمـر تعـاني آلام الَخَـرف وضعـف الذاكرة. سـاعة الحائـط تـدق.. إنهـا الثانيـة عـشرة بعـد منتصـف الليـل، عـاودت البحـث عـن هـاشم هـذا وأنا في حيرةٍ شـديدة؛ هـل أهاتفه وأسـأله مـن هـو ومـاذا جرى ليـلة أمـس؟ مـا بجسـدي الآن هـو آثار علاقـة جنسـية مكتملة الأركان؛ عـلى صـدري.. وحـتى نهـداي مجهـدان للغايـة فـلم يعـودا نافريـن، ولديَّ ألمٌ شـديد بمنطقـة جهـازي التناسـلي والحـوض. لا أدري مـا أفعـل.. هـل كل مـا يجـري محـضُ هلوسـات أو ضـلالات مـن آثار تـلك العقاقـير الـتي أتناولهـا؟ أم إن أحـدًا مـا اغتصبـني؟

مـن أسـوأ مـا يمـر بي الآن أنني لا أسـتطيع البـوح، أو مجـرد الاسـتفسـار وسـؤال مَـن حـولي فـأنا في نظـرهم منحرفـة، دومًـا أسـبُّ رجـال الديـن وأسـفِّهُ مـن آرائهـم.

يا لهذا السوء، لا أذكر شيئًا.

باغتـني الهاتـف.. إنـه يـدق الآن، اتصـالٌ مـن هـذا اللعـين الذي يدعـى هـاشم.. لم أجـب عـلى الهاتـف ولكـن ذهبـت مسرعـة لإحضـار مدونـتي القديمـة، أو عـن أي أحـدٍ بهـذا الاسم فـلم أجـد، رأسي سـينفجر.. حاولـت التقـاط أنفاسي حـتى أسـتطيع التفكـير لكـن غلبـني النـوم بمجـرد أن أسـندت رأسي إلى الوسـادة، وفي أقـل مـن سـاعةٍ اسـتيقظتُ وسـاعة الحائـط تـدق الثالثـة صباحًـا، لم أعـرف مـا السـر وراء ذلك الوقـت الذي دومًـا أسـتيقظ فيـه لينهشـني الأرق ويمـزق ثنـايا روحي لدرجـة أن مـن يـراني لا يخيـل إليـه أني مـا زلـت في السـابعة والعشريـن، وأنا أمـام نفسي أبـدو في السـبعين تتنـاوب عـليَّ كل عـذابات الفكـر والجسـد، تـرددتُ كثـيرًا في زيارة أحـد

الأطباء النفسيين كوني طبيبة، وشيء مثل هذا في مصر يعد ضربًا من ضروب الوصم بالجنون، ولكني بالفعل ذهبت إلى إحدى الطبيبات من قبلُ سِرًّا، ولم تُجْدِ معي أي عقاقير أو أدوية.. حاولت ثم حاولت لكني لا ألبث أن أفشل في اتباع نصائحها أو المحافظة على مواقيت تلك الأدوية التي تقتلني بالبطيء.

ما كل هذا يا الله؟!

لماذا تعذبني؟ أأذنبتُ حينما قلت إني لا أصدقك؟ حينما أقول إني لا أعرف حقيقتك؟ لماذا لا أشتَمُّ أنفاسك؟ أين أنت والفقر ينهش بطون الجوعى؟!، وأين ألقاك مِن جور السلاطين وبطش الظالمين، ومرض الأرامل، وقتل الأطفال، وعوز المساكين؟!

لم أعد أراك إلا هناك حيث يتكسب باسمك المخادعون، وأصحاب الياقات السوداء والقلوب الحالكة؛ لا تتجلى لسواهم!.. أنا ماري يا يسوع.. ألا تذكر تلك الصغيرة التي قتلها الأرق ونالت منها ظنون الإيمان بك؟!

نهضتُ من الفراش محاولةً تناسي ما جرى ليلة أمس، ولكن هيهات! أعرف نفسي جيدًا.. مصابة بالشك القاتل؛ لن أقدر على تغافل ما يبدو كارثةً حدثت أمس، ذهبت إلى المرحاض وقمت بغسل وجهي بالماء الدافئ وتناولت كوبًا من القهوة، ولم أشعر بالساعة إلا وهي تدق السابعة والنصف صباحًا ونور الشمس يخترق نافذتي.

- «يلا يا ماري الساعة سبعة ونص.. عشان متتأخريش على الشغل»

إنه صوت أمي يأتي من خلف الباب.. رددت مطمئنة إياها:

- «أنا صاحية.. حالًا هاجهز وأنزل».

وبالفعل انتهيت من ارتداء ملابسي، وخرجت مسرعة من غرفتي.. سلمت عليهم وقبلت جبهة أبي، ليس لدي وقت؛ خرجت من باب العمارة أتثاءب أود أن أخلد للنوم، ولكن النهار شيء آخر فالنور حقًّا رائع، وقد يخفف بعض ما يقترفه الليل، كعادتي التقيت عم أحمد بائع الحلوى فدومًا يبتسم من بين ثنيات جلد وجهه المجعد رغم فقره المدقع، ألقيت عليه السلام فإذا به يأتي ناحيتي يدعوني لحضور خطبة ابنته سلمى على ابن حارس العمارة المجاورة، وهو يبدو سعيدًا للغاية لدرجة أنني تمنيت أن أكون مكانه، ما كل هذا الرضا وراحة البال؟!

كاذب من قال إن الغِنى راحة، فلو كان الغِنى يجلب السعادة فإنه لا يستطيع جعلك تبتسم من ثنايا قلبك لحظة واحدة.

تأخرت على عملي كعادتي، وكعادة كل المصريين الذين يذهبون للعمل مكرهين من أجل الحصول عل بعض المال الزهيد، لكن الزحام قاتل.. أشعلت الراديو.. فإذا هي إحدى أغنيات السيدة فيروز الجميلة، أغنية «علموني»، فيروز تستطيع إنعاش قلبك وروحك كل صباح، وإذا بي أذكر ثابت، ما يزال عالقًا بذاكرتي منذ عامي الأخير بكلية الطب، شاب غريب الأطوار، بشوش الوجه، يعلو وجهه وعينيه حزن دفين، ليس جميل الخِلقة لكن بمجرد النظر لوجهه تشعر براحة غريبة، لم أتحدث معه كثيرًا لأنه غالبًا ما يديم الصمت، أذكر جيدًا أول لقاء لي معه كنت ألحظه من الحين للآخر يختلس النظرات إليَّ، كان يريد شيئًا مني لم أكن أعلمه، في كل مرة يحاول التقرب مني أقوم بصده وأعرض عنه، وأصررت على تجنبه بلا سبب وألَّا أبادله أي أحاديث ولو على سبيل الزمالة، لم أكن أدري لِمَ!

فجأة باغتتني سيارة كادت تهشم مقدمة سيارتي فقد كنت شاردة الذهن، أوقفت سيارتي واعتذرتُ لصاحب السيارة المجاورة، وهو يبدو غاضبًا للغاية بل ويتمتم ببعض الشتائم، عدت لسيارتي ذاهبة لعملي، فما زلتُ حديثة العهد بتسلُّمي ذلك العمل كممارس عام بأحد مراكز الرعاية الصحية بمنطقة إمبابة، أؤدي فترة التكليف الإجباري التي تفرضها الحكومة المصرية على كل الأطباء داخل مصر، وهو مركز يخدم منطقة فقيرة للغاية في الجانب الأول، وما يهون بعض الشيء عليَّ أداء تلك المهام الروتينية المتكررة يوميًّا هو محاولة رسم البهجة على وجه الفقراء المنتفعين من هذا المكان، محاولة مني لأن أعوض ما ينقصني من شعور بالرضا والقناعة، فكم كرهت تلك المقولة التي تقول إنَّ فاقد الشيء لا يعطيه.. بَيْدَ أن فاقد الشيء هو أولى الناس بالعطاء لأنه ذاق مرارة الفقد والحاجة.

دخلتُ المركز، كالعادة تلك الوجوه الصفراء لنساء عفا عليهن الزمن لا يفكرن في غير الطبخ وكيف يَكِدْنَ بعضهن لبعض رغم أنهن أيضًا طبيبات، ولكن نسين الطب منذ فترات طويلة ولا يشغلهن سوى كيفية تزويج بناتهنَّ لأي ذكر يأتي للمكان يرونه مناسبًا من الناحية المادية، دائمًا ما يسعَيْنَ لاختلاق المشكلات وإثارة البلبلة، ورغم فترتي القصيرة التي لا تتجاوز الثلاثة أشهر إلا أنهن لا يُطِقْنَ حتى رؤيتي؛ يَرَيْنَنِي تارة متحررة وتارةً ملحدة وفاقدة التربية والدين.

إحدى مشكلاتي الكبرى هي عدم القدرة على التواصل، أو بمعنى آخر لا أطيق الاستماع إلى الجهل والخرافات التي تملأ المجتمع وضحاياه وخاصة الشعوب العربية المغيبة، دخلت مباشرة العيادة بعدما التهمتني نظراتهنَّ المريضة، وعلى نقيض الأمر قابلت ذلك الوجه الملائكي البشوش.. الدكتورة نور الدين، ورغم أنها في الخمسين من العمر فإنها تشعرني بأنها في عمري، تجيد معاملتي، بل وتعلمني..

فهي طبيبة أمراض نساء ماهرة للغاية وأنيقة أيضًا للغاية، بل وتؤيد الكثير من أفكاري لكنها مسلمة لا تستطيع إظهار ذلك خوفًا من الخروج على تقاليد وأعراف دينها كما تصف، وخاصة كوني في النهاية مسيحية من وجهة نظر الجميع، دكتورة نور لم تتزوج إلى الآن، تقضي عملها ثم تذهب إلى بيت أمها القعيدة فهي تعاونها في كل أمور حياتها، أيضًا يغلب عليها طابع الحزن، عيناها دومًا ذابلتان والأغرب أنها لا تتحدث أبدًا كالبقية عن الزواج، دومًا تنصحني بأن أتزوج، وأن يكون لي أسرة لكني لا أرى نفسي أهلًا لهذا الأمر الآن، فلم أجد من يمكنه تغيير وجهتي ومساري.

شردت بذهني لحظة وأنا أضع القلم تحت أسناني، وكنت على وشك أن أخبرها بما انتابني بخصوص ليلة البارحة، ترددت كثيرًا، ولكن في التو نادتها إحدى الممرضات مُخبرةً بأن سيدة ما بالخارج تريد استشارتها، استأذنتُها وذهبتُ للمكتب المجاور لها، وطلبتُ إلى السكرتيرة إدخال المرضى الآن حسب أسبقية الحضور، وإذا بامرأة أقرب ما تكون شبهًا بالمومس، ترتدي عباءة سوداء ضيقة للغاية، وخصلة شعرها الذهبية خارج غطاء رأسها تمضغ اللبان بشكلٍ فجٍّ ومقزز، وتصطحب ابنتها التي لم تبلغ خمس سنوات من العمر تريد مني ختانها، لم أقدر على أن أنصت إليها، شعرت بغثيانٍ شديد، ورغبة شديدة في القيء من أثر ما قالته، ونظرة الذعر والترقب تملأ عين الطفلة الصغيرة التي يريدون اجتزاء جزء من جسدها البريء، وذبحها، أصابتني نوبة غضب شديدة، ولم أشعر حينها بما قلته فقد صدرت عني ألفاظ نابية لا تليق بطبيبٍ أبدًا، وشرع المرضى في الاحتشاد داخل العيادة، وحضر المدير.. ذلك الرجل الأصلع ذو الكرش الممتد أمامه مترين، والذي دومًا يتحرش بأغلب الموظفات وهن يرتضين ذلك مقابل احتساب راحات للحضور، وعدم التدقيق معهن في مواعيد العمل، أتى ناحيتي

والرذاذ يتناثر من لثته التي سودها التدخين، ثم وبّخني أمام الجميع، بل وأصدر قراره بتحويلي للتحقيق، لم أهتم بما فعله ذلك الخنزير قدر ما حزنت لأني سبَبْتُ المرأة، فقد بدا الأمر غبيًّا وخارجًا للغاية.. يبدو أنه قد أصاب جرحًا غائرًا بالروح.

عدائي الدائم للأديان تجسَّد كردة فعل لما أقدمت عليه تلك المرأة، وصورتي السابقة حينما كنت أذهب لأحد القساوسة للاعتراف والمغفرة، كم كنت ساذجة مثلها إذ صدقت تلك السخافات التي يرويها أهل الدين ورجالات الكنيسة.

بحثت عن تلك السيدة في كل مكان، وفي النهاية عثرت عليها في مكتب الدكتورة نور، ذهبت نحوها، وقدمت لها اعتذاري على ما بدر مني، وأعطيت الطفلة قطعة حلوى كانت بحوزتي ثم انصرفتُ، لكن الفرصة الآن سانحة أمام النفوس المريضة كي تتشفى فيَّ، لمجرد خطأ واحد أو لحظة حماقة واحدة قد يُهدم المعبد كله على رأسك، اليوم يمضي ببطء وملل شديدين، في تلك اللحظة تذكرت ثابت، فهو لا يفارق بالي لحظة، لا أعرف شيئًا عنه ولا أدري إلى أين ينتمي وكل ما يجمعني به محض شكوك، وافتراضات منذ أن كنت في عامي الأخير بالدراسة بالجامعة، وقد راسلني مجهول من حساب فيسبوك وأرسل لي رسالة في قمة الغرابة تنم عن معرفته بي وكانت باللغة الإنجليزية..

(you have the best R I had ever seen in my life)

فأنا حقًّا لدي إشكال واضح بحرف الراء، ولكن جاءت إجابتي على رسالته في غاية التعنيف والشدة، وعلى النقيض تعجبت من ردة فعله فقد كان مهذبًا للغاية، وانسحب معتذرًا بعدها وأغلق حسابه، فقد شعرت كأي امرأة بأنه أحد الشباب

يتلاعب بها من أجل بعض التسلية وحسب، ذلك الوقت تزامن مع معرفتي بشاب مسلم يدعى ثابت، جمعتنا بعض اللقاءات والمحاضرات العلمية، وقد كان كثير الأسئلة في أثناء الدروس العلمية، ولاحظت أنه كان يديم النظر إليَّ لأوقات طويلة حتى إذا لاحظته أدار وجهه فجأة، وبعد موقفي هذا من صاحب تلك الرسالة تغيرت ملامح وجهه ناحيتي.. ما أثار شكوكي في أنه قد يكون هو من أرسل الرسالة.

يبدو الأمر في قمة الإفلاس، ولكن إن صحَّ فهو أمر جد خطير، فأنا أعلم جيدًا ما قدر المشكلات التي قد تنجم عن أمرٍ كهذا في بلدٍ كهذا!

ما يثير دهشتي الآن.. لِمَ أنا دائمة التفكير فيه؟ أهي الوحدة القاتلة أم الألم؟

ولِمَ هو وحده وليس غيره وقد حاول كثيرون التقرب إلي والتقدم لخطبتي؟

هاتفي يدق.. إنها أمي تتصل لتذكرني بشراء بعض الأغراض النسائية لها من المتجر فهي في الخمسين من العمر، وما زالت تضع أكثر أنواع الزينة والعطر شهرة وأنا ما زلت في عقدي االثالث من العمر، ولا أجيد سوى الحديث عن الدين!

عدت إلى المنزل بعدما غادرت ذلك المركز الذي يشعرني بالاختناق لمجرد حتّى تذكره، قبّلْتُ أمي.. تلك البدينة المثيرة، عايدة فيليب.. من أسرة عريقة.. والدها كان من أمهر وأكثر الجراحين شهرة إبان فترة حكم الملك، وتلقت أغلب تعليمها خارج مصر، فهي طبيبة أمراض جلدية، وجهها الخمري فيه أصل طين هذا البلد الذي اغتصبه المحتلون العرب، وغيروا هويته، هي دومًا ملاذي من شجاراتي السابقة مع أبي. أخبرتني أمي بأن أبي بالداخل، وهو يريد أن يتحدث معي في

أمرٍ هام، قمت بتبديل أغراضي وانتظرت أبي حتى انتهى، وهو بملابس المنزل شديد الصلع وجهه أبيض وعيناه شديدتا الزرقة، نبيل مرقص.. يعمل استشاري أمراض الجهاز الهضمي والكبد بأحد المعاهد المجاورة لمنزلنا بحي شبرا الواقع شمال القاهرة.

شبرا من أقدم أحياء القاهرة وأكثرها سكانًا، وغالبيتهم يعتنقون الديانة المسيحية، والتي كانت قديمًا تسمى «جزيرة الفيل»، ولكن بفعل الطمي التصقت بالأرض، وبعدها شيد محمد علي باشا بها قصره المهيب عند مدخلها الأساسي، في شبرا تشعر بأصالة وعراقة المصريين الذين لم يتأثروا بالغزو العربي الذي اجتاح البلاد وطمس هويتها الثقافية والتاريخية منذ ما يقرب من ألف وخمسمائة عام كأي غزو لنهبِ الثروات باسم الدين كما فعل المسيحيون الأُوَل من قبل مع اليهود، ومع الوثنيين، وما تم من طردهم وحرق ممتلكاتهم وطمس هويتهم.

في النهاية جلست مع أبي وأمي على غير العادة نتيجة ظروف العمل، لا نلتقي كأسرة سوى وقتٍ قليل وفيما نشاهد في التلفاز أحد أفلام الشاشة القديمة، ظلَّ والدي يطيل النظر نحوي على غير العادة ثم لاحظَتْ ذلك أمي وقالت «ماري واحشاك ولا إيه؟»، رد أبي وفي عينيه رقة متناهية «اعذريني يا بنتي إني مشغول عنكم».. ثم قام وقبل شعري وجبهتي، فهو يبدو اليوم غريبًا للغاية، وعلى غير العادة عاد مبكرًا من العمل وأراد الجلوس معنا، لا بد أن أمي لديها تفسير سأعرفه لاحقًا، في تلك الأثناء تذكرت ثابت مرة أخرى، لا أدري لم يشبه والدي كثيرًا حتى في طريقة حديثه ونظرته.

انتهى الفيلم ودخل أبي غرفته، وعدت لغرفتي كي أتصفح فيسبوك فهو الآن النافذة الباقية لديَّ كي أتعرف على ما يجري حولي وإن بدا عالمًا افتراضيًّا.. فهو يضيع المزيد من الوقت، ويقضي على ملل الحياة، شيء غريب قد حدث، يأتيني إشعارٌ بأن ثابت قد أرسل لي طلب صداقة، ارتعدت وأغلقت الصفحة، ولم أعد أجد تفسيرًا لما يجري غير أن شيئًا ما بداخلي صار مشوشًا، أيعقل أن كل ما يجري محض مصادفة وشكوك؟!

ولم هو بالتحديد وهناك عشرة أشخاص بهذا الاسم في نفس المكان؟! حينها أصابتني نوبة مغص شديدة ظننتها في البداية دورتي الشهرية، فأعراضها تثقل عليَّ كل شهر، ذهبت إلى المرحاض وتناولت بعض العقاقير المسكنة للألم لكن الألم لم يهدأ، وفي زيادة مستمرة ثم صاحب الألمَ قيءٌ وغثيان، يبدو شيئًا آخرَ غير دورتي الشهرية.. صرت أصرخ من شدة الألم، هرعت أمي نحو غرفتي ثم نظرت إليَّ وهي في غاية القلق..

- «مالك يا حبيبتي؟! حاسة بإيه؟».

لم أستطع الإجابة من شدة الألم وصرت أصرخ بشكل لا يحتمل، ألم شديد ببطني حتى إنني لا أستطيع لمسها، أسرع أبي وحملني بين يديه ثم نزلنا، واستقل سيارة أخرى غير سيارته فلم يقدر على القيادة وهو بتلك الحالة، أخيرًا وصلنا إلى المشفى، وأنا أموت من شدة الألم وأرى والدي يتحدث مع أحد الأطباء الذي قرر إجراء بعض الفحوص الضرورية لتشخيص الحالة، وبعدها قرر الطبيب حجزي بالرعاية المركزة وأخبرنا بأنني أعاني حالة التهاب شديد بالمرارة والتهابًا بالبنكرياس، وأعلم أن الأخير قد يكون مميتًا.

اقتادتني إحدى الممرضات نحو حجرة الرعاية وحينها انتابتني حالة هياجٍ وثورة،

فأنا لا أحب هذا المكان؛ يذكرني بالمقابر. ثم صِحْتُ بشكل هيستيري «مش عاوزة أدخل هنا، خرجوني من هنا».. وكدت أقفز من فوق سريري حتى أومأ الطبيب للممرضة بإعطائي بعض العقاقير المهدئة، وبعدها لم أشعر بأي شيء.

استيقظت صباح اليوم التالي.. هدأ الألم بعض الشيء، مرَّ ما يقرب من أسبوع وحضر جمع من الأطباء، وقرروا إجراء منظار مراري لي فقد كنت أعاني حصوةً بالمرارة أدت إلى مضاعفاتٍ خطيرة وبالفعل تحسنت حالتي، ووالدي لم يتركني لحظة واحدة وأنا في المشفى؛ شعرت حينها -لأول مرة- بأن لي أبًا حانيًا على الرغم من أنه كان يسيء إليَّ ويشبّهُني دومًا بالذكور، فهو يفضل أختي الصغرى في كل شيء، حتى ملامح وجهه تتغير بمجرد النظر إليها، وأمي أيضًا لا همَّ لها سوى تزويجي، لكن الآن تلاشت كل هذه الترهات أمام هذا الحب الذي يكنُّه أبي لي، قرر الأطباء السماح لي بالخروج من المشفى والعودة إلى المنزل.

أحضر أبي السيارة، وبالفعل عدنا إلى المنزل ثم أجلسني أبي على أريكته المفضلة، وقامت أمي بإحضار بعض المشروبات الساخنة لي، ووجدت هاتفي أمامي على الطاولة منذ غادرت المنزل يبدو أنَّ أمي قامت بإعادة شحنه، كم كان جميلًا أنه لم يكن لديَّ في المشفى أي هواتف! تجنبت النظر لهاتفي ولم أقترب منه لبعض الوقت، لكن هيهات.. عاودت تفحصه ووجدت الكثير من الرسائل أبرزها من هذا الملعون الذي يدعى هاشم يقول فيها «حمد لله عالسلامة».

أعادتني تلك الرسالة إلى الوراء، وصرت أبكي بحرقة فأنا أشعر بأن خلف هذا المدعو شيئًا خطيرًا.. هرعت أمي نحوي مسرعة وهي تظن أن نوبة المرارة هذه قد عادت مرة أخرى، ولكن حينها لم أعد أشعر بشيء إلا بامرأة توقظني مداعبة إياي، سيدة محتشمة ترتدي بنطالًا واسعًا وفوقه معطف أبيض، وهنا أدركت

أنني في المشفى ثانية ولكن هذه المرة أحد المشافي النفسية الخاصة، وعلا صوتٌ نحوي:

- حمد لله عالسلامة يا ماري.

رددت عليها :- متشكرة. بس أنا فين؟

ابتسمت إليَّ ثم قالت:

- أنا دكتورة فاطيما طبيبة الأمراض النفسية، هسيبك دلوقتي وأمُر عليكي تكوني أكلتي حاجة ندردش شوية.

ما كان مني غير أنني أشرت برأسي، ووافقتُ فلم يكن لدي خيار سوى أن أوافقها، نظرت لنفسي التي جنيتُ عليها بضعفي وخوفي وشكوكي الدائمة، لِمَ لَمْ أحْيَ كالبقية؟ قاطعتني إحدى الممرضات فقد حان موعد إعطائي العقاقير، ثم شرعت في محادثتي وأخبرتني بأنني كنت أهلوس بأشياء غريبة، ولغة غريبة أيضًا.. على حد وصفها، في تلك الأثناء تساءلتُ عن موعد تلك النوبات والهلوسات، أخذَتْ تراجع دفتر الأحوال وأخبرتني بأنها كانت الثالثة صباحًا كما توقعتُ، ثم أوصتني الممرضة بأن أذهب لأحد الشيوخ وهي تعرف أحدهم قد تدلني عليه، أضحكني ما قالت ثم حركت رأسي يمينًا ويسارًا.. حتى داخل حصون العلم يحيا الجهلاء.

عادت د. فاطيما مرة أخرى ثم وجدتنا نضحك هش وجهها وبشَّ ثم سألتني «القمر بيضحك على إيه؟»، أشارت الطبيبة لنوال فانصرفت في الحال، وجلست بجانبي وخلعت معطفها وأخبرتني بأنها ستتخذني من اليوم صديقة لها بعيدًا عن الطب، وصرت أتحدث معها في أموري العامة والخاصة ولم تتطرق هي -عامدةً- لأي

موضوع يخص حالتي النفسية، ثم تركتني أخبرها بكل شيء دون طلب، وبعد ما يقرب من ساعة لم توصني بأي شيء غير أنها أعطتني رقم هاتفها الخاص، بل وقامت بحذف ملفي الخاص بالمستشفى ثم قالت.. «كدا أنا شيلت عنك أي حرج أو أي حاجة تضايقك بسبب تواجدك هنا، ومن دلوقتي تقدري تروحي بيتك وتتابعي معايا بانتظام بس تاخدي دواكي بشكل منتظم».

شعرت براحة شديدة ناحيتها وهذا من الناحية النفسية ضروري، قد لا تتبع ما يقوله أمهر الأطباء حينما لا تشعر تجاهه ببعض القبول والراحة، فكم جميل هو وقعُ تلك الكلمات الطيبة على النفوس المتعبة! تشعر وكأن المرء تناول كوبًا من الماء البارد في أغسطس، حالة الارتواء بالأمل الذي يبعث في النفس إشراقة ويفتح أمام الروح مزيدًا من نوافذ الحياة، قمت من فراشي وعانقتها بشدة وقلت لها:

- أنا حبيتك جدًّا ومبسوطة إننا هنكون أصحاب.

ابتسمت الدكتورة فاطيما ثم قالت:

- إحنا فعلًا أصحاب خلاص، أنا هسافر شهر وأرجع، وكل اتصالاتي في الكارت اللي اديتهولك.

صرت ممتنة للغاية لطبيبتي وصديقتي الجديدة وشعرت براحة قوية حينما تكلمت، لا يمكن أن يكون الحديث للأطباء النفسيين وصمة عار.. بل حتى الأسوياء لا بد أن يترددوا على طبيبٍ نفسي من فترةٍ لأخرى كإجراء وقائي أو كمتنفس، تلك المجتمعات ستبقى في جهلٍ حتى يتطور القرود الحاليون ويسبقونا، حضرت والدتي ووالدي حتى أعود إلى المنزل.. ولكن قبل مغادرتي المشفى انتابتني نوبة عرق وخوف شديد من العودة خوفًا من تكرار ما حدث، لكني تذكرت ما

قالته الطبيبة بتحدٍ وإصرار، وخاصة ما قالته بأن معظم الخوف لا وجود له سوى داخلنا، تمالكت أعصابي، وقررت خوض المعركة حتى نهايتها، وقبل أن نصل إلى المنزل أوقف والدي السيارة وترجل حتى يحضر لي الآيس كريم الذي أحبه، فرحت بما فعله أبي وشعرت بأنني عدت طفلة صغيرة فقد كان أبي دومًا يحضر لنا الآيس كريم حينما يأتي ليقلني من المدرسة، ثم انطلقنا ناحية المنزل، ولكن يوجد عدد كبير من الناس حول البناية.

وَقَفَ أبي سيارته ثم سأل أحد المارة عما يحدث، وأخبره أحدهم بوفاة عم أحمد بائع الحلوى، ملأت الدموع عيني؛ كم اعتدت رؤية ذلك العجوز منذ أن رأيت الدنيا وهو يبيع الحلوى ومؤخرًا حينما قام أبي بتعيينه بوابًا لعمارتنا، يبدو أن عم أحمد شعر براحة بعد أن اطمأن على ابنته بعد خطبتها، استأذنت والديَّ كي أذهب كي أعزِّي سلمى، صافحتها بحرارة ثم واسيتها «البقية في حياتك يا سلمى».

انهمرت سلمى في البكاء وعانقتني قائلة «مابقاش ليا حد هنا يا دكتورة»، هدأت من روعها ثم استأذنت منها لأصعد إلى شقتنا وأخبرتها متى كانت في حاجة إلى أي شيء أن تحدثني في الحال، صعدت إلى شقتنا دون مصعد حتى الدور السابع فقد سبقني أبي وأمي إلى الأعلى، باب شقتنا بني اللون غامق تعلوه صورة للعدرا ويسوع، وفيما أنظر لتلك الصورة.. تشابكت الأفكار داخل رأسي وكأنها حالة من الجدال الفوضوي بين المنطق وبقايا العقل الذي طمسه رجال الدين، فعلى ما يبدو.. كي تؤمن عليك أن تكفر بقوانين المنطق، في تلك الحظة أدركت أني ما زلت أمام باب الشقة، وصوت أمي يلاحقني «يا بنتي ادخلي بتتفرجي على إيه؟!».

أمي تنظر إليَّ وملامح وجهها كلها إشفاق، ثم نصحتني بالاستحمام الآن، سمسم

استقبلني بحفاوة شديدة وأخذ يلعق بلسانه يديَّ وساقيَّ، جرو صغير أبوح له كثيرًا كأنه صديق مقرب أو غريب يجمعني به أحد القطارات، لونه أبيض وذو أذنين طويلتين وحجمه صغير من فصيلة لابرادور، حملت سمسم على يدي ودخلت به إلى الصالة والتي شعرت عند دخولها كأني في طريقي إلى أحد السجون الحبلى بالذكرى والألم، التلفاز الكبير والأنتريه الأسود وأريكة أبي والسفرة التي لا تجمع أكثر من فرد طيلة العام، لكن رائحةً ما كريهة.. أعرف تلك الرائحة، نظرت لأمي «إيه اللي جاب الريحة دي هنا؟»، أجابت أمي «أنا جبتها من الشماس عشان تحمينا كلنا من شر أي شيطان أو جن».

لم أُرِدْ أن تكون ردة فعلي عنيفة؛ ذهبت وأحضرت المعطر من المرحاض لأمحو آثار ذلك البخور الذي دومًا يثير غثياني.

لم تقل أمي أي كلمة، واكتفت بالنظر إليَّ وهزت رأسها يمينًا ويسارًا وكأنها يئِسَتْ من حالتي، سمسم قفز من يدي مسرعًا نحو الشرفة وإذا به يرفع ساقيه الأماميتين وينظر للأسفل، لم أستطع رؤية أو فهم ما ينظر إليه سمسم، هو ينظر إليَّ وينظر للأسفل ولكني لم أستطع فهمه غير أني استمتعت بمنظر النيل الرائع، فقد يساعدني على استنشاق بعض الهواء النظيف ليزيل ما سببه ذلك البخور السيئ، النيل يبدو رائعًا، وكأنه شمس تشرق في صدر المتعبين، يريح النفس بنسماته التي تمتزج ببرد ديسمبر، يا لمصر من هباتٍ عظيمة!

تلك المياة الجارية التي تغسل خوف الحيارى، تبدد يأسهم وقلقهم، وتحيي قلوبهم وكأنها تحدث صدور الغرباء وتنظر إليهم نظرة معرفة ويقين، ترسو عليها كل روح مثقلة وذهن شارد أو جسد عليل، قاطعت جلستي الهادئة كالعادة مباغتة أيدٍ حتى كدت أسقط من الفزع، كريستين أختي الصغرى وقطتي الجميلة وقد

عادت من درسها الخاص، فهي في العام الثالث من الثانوية العامة وهي ما يسمى بـ»نزيف الأسر» في مصر، يُعِدُّهَا أبي أيضًا كي تكون طبيبة، تشبهني كثيرًا من حيث الملامح فهي قصيرة بعض الشيء وخمرية البشرة، ذات أنفٍ مصري، لكنها تختلف عني في الطباع كلية، متدينة للغاية تحافظ على كل الصلوات والعظات بانتظام وتصوم الصيام كله ويعلو مقدمة صدرها صليب ذهبي ناصع، هي تعشقني وأنا أعشقها وأشعر بأنني لست مجرد أختٍ لها بل أمها، أخاف عليها كثيرًا وأحيانًا أعنفها، لديها حسٌّ للفكاهة عالٍ وتجيد الضحك.. لا تراها سوى مبتسمة، أبي يحبها بشدة يقول، إنها تشبهه كثيرًا وأمي أيضًا.. وأنا أكثرهم وكل أقاربنا وجيراننا يحبونها فهي تساعد الجميع، كم أنتِ محظوظة يا كريستين لديك كثير من المحبين!

تركنا الشرفة وعدنا إلى الصالة، وأنا أتجنب حتى النظر لغرفتي، تناولت كوبًا من الماء وأنظر لغرفتي كما لو كان بها أحد الوحوش وبمجرد دخولي سيلتهمني، لكن عليَّ أن أواجه مخاوفي كما أخبرتني الطبيبة، وبالفعل دخلت الغرفة ورافقني سمسم، تبدو مرتبة؛ كل شيء في مكانه، مؤكد أن أمي من قامت بهذا، ملاءتي الزرقاء والشرفة المتكسرة، ومرآتي الأخرى التي تهشمت، الجدران الوردية اللون وساعة الحائط التي هي من مآثر جدي بالمنزل، كان قد أهداه إياها أحد الرهبان بدير وادي النطرون قبل أن يتنيَّح منذ عشرة أعوام، فقد كان معمِّرًا جاوز مئة عام، تلك الساعة تتوسط جدار الغرفة المقابل للفراش.. لا يصيبها أي تلف ليبقى صوت بندولها المرهق للأعصاب والمثير للقلق، لكن لا أقدر أن أقوم يومًا دون أن أرى تلك الساعة؛ كان جدي أوصاني منذ الصغر بالعناية بها وكنت أحبه للغاية، وفي نهاية ركن الغرفة مرحاض خاص بي له نافذة على الناحية الجنوبية للمنزل.

استلقيت على فراشي وأحضرت هاتفي المحمول، أريد أن أطلع على الأخبار وأعرف ماذا يجري حولنا، قرأت الأخبار بشكلٍ سريع، وتذكرت آخر مرة كان قد أرسل ثابت لي طلب صداقة، وبعدها حدث ما حدث، بحثت عنه فوجدته قد ألغى طلب صداقته، أحزنني ذلك، ولم أدرِ لماذا لم أقبل صداقته فأنا أقبل صداقة الجميع، لكن لم التمييز ضده وحده؟.. ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ هل أرسل له طلب صداقة؟!.. سيبدو ذلك سخيفًا للغاية، وهل ثابت حقًّا صاحب تلك الرسالة الغامضة؟!

في تلك الأثناء نادتني كريستين.. - «ماري العشا جاهز يلا عشان تاكلي».

أشعر بجوع ورغبة شديدة في الطعام، يقولون إنه نوع من الاكتئاب يطلق عليه الاكتئاب غير التقليدي، لكن سآكل وحدي، هم ما زالوا صائمين، صيام المسيحية الصغير الذي يُمنع فيه تناول دهن الحيوان نهائيًا ويُسمح فيه -على عكس الصوم الكبير- بتناول بعض الأسماك، ولكن ذلك لم يحِن الآن فمنذ الثانية عشرة صباحًا وحتى الرابعة عصرًا يحظر عليهم تناول أي طعام، ثلاثة وأربعون يومًا متصلة يليها عيد الميلاد، زادني هذا حرجًا فسآكل وحدي، لكن أمي سبقتني كي تزيل بعض الحرج باسمة «كُلي يا ماري عشان تاخدي دواكي»، وكانت أمي قد أعدت حمامًا محشوًّا وهو أكلتي المفضلة، بالفعلت تناولت غدائي ثم عقاقيري، وللمرة الثانية يهرع سمسم نحو الشرفة، وهذه المرة قررت أن أعرف ما يريد هذا الجرو!

ذهبت ناحية الشرفة والجو بارد للغاية، حتى تمكنت من رؤية أحد الشباب يرتدي معطفًا أسودَ يطيل الوقوف أسفل الشرفة بجوار أحد أعمدة الإنارة، والكلب يجول ويصول ناحيته، لا أستطيع فهم من هذا، ولكن الجرو يبدو أنه

يشير ناحية شيء آخر، وهو أحد الجراء بالشقة المجاورة، قد خاب ظني تلك المرة ظننته يريد إيضاح شيء، لكني دققت النظر ناحية الشاب الذي ينتظر، إنه لا يتحرك.. ليس لدي مقرّب صورة حتى أتمكن من رؤيته بوضوح.. فهو لا يتعدَّى حجم النملة، قد يكون معطفًا نسيَهُ أحد المارَّة، ولكن في تلك الأثناء إذا به يتحرك وينظر للأعلى ناحية بنايتنا، قررت متابعته لكنه اختفى عن الأنظار بعدها.

أشعر بأني مفلسة جدًّا.. أتتبع بعض ظنوني وأوهامي لإثبات شكوكي ووساوسي، وما يدور في عقلي الباطن، وقد يكون كل هذا محض شكوك، عاد أبي من عزاء عم أحمد وجلس على أريكته في الصالة ثم خلع رابطة العنق، ونادى أمي ثم أخذ يتعرق بغزارة، ويضع يده على صدره، انتفضت مسرعة وكأن قلبي انخلع من صدري، ورغم كوني طبيبة لم أدرِ ما يتوجّب عليَّ فعله في تلك الأثناء!

- «جيب العواقب سليمة يا رب».

فأبي مصاب بقصور بالشريان التاجي، وكونه طبيبًا لا يعني أنه ملتزم بالعقاقير والأدوية، فهو لا يتناول أدويته إلا إذا شعر بألمٍ أو لإصرار أمي عليه، تناول قرص الدواء الذي أحضرته أمي ثم بعدها انفرجت أساريره، وبدت حالته أفضل مما كانت عليه.

عادت حالة الهدوء النسبي للمنزل، ولكني عدت بذاكرتي إلى الوراء قليلًا، وتذكرت ما قُلتُه.. «جيب العواقب سليمة يا رب».. لماذا في تلك اللحظة خاصة ناديت مَن شككتُ فيه وفي قوته؟ يقولون إن النشأة تترك أثرها في العقل الباطن والا وعي مهما بلغت درجات المعرفة، لا يمكن أن ينفصل المرء عن طبيعته الأولى، هو فقط يحاول إضفاء صبغة المنطق والتغيير على واقعه،

واختياراته، وقناعاته، وللأسف في لحظة ما يتعرَّى من كل رداء عدا جلده الأول الذي يكسوه، لا يمكن أن يتعلق المرءُ -كما يقول أصحاب الديانات- بالفطرة.. لأنني لو كنت ملحدة منذ النشأة ما أظن أن يصدر عني مثل هذه الكلمات، رأسي مزدحم بالأفكار التي تتزاحم بشدة، ما تلك اللعنة التي لا تتركني؟!

سكتُّ لحظة، ثم عدت إلى غرفتي، ارتديت ملابس النوم وهي ملابس خفيفة للغاية، فأنا أحب دومًا أن أكون أنثى حتى أمام نفسي، أغلب الأوقات أظل عارية بلا ملابس، أحب النظر إلى المرآة دومًا، وبالفعل أنظر دومًا وأبكي، أسُبُّ نفسي تارة، وأنظر للخلف أخرى، نظرت إلى سقف الغرفة وكعادتي تخيلت أني أموت، ماذا بعد تلك الرحلة؟

أهو المجهول؟ أم إنني كمن أخبر عنه سارتر.. من يبحث عن الموت ويريد قتل الحياة؟ ولكن ماذا بعد الموت لو لم يكن المجهول؟ إذن الحساب كما يقول أصحاب الديانات. أم إن الموت أشبه بحالة انتقام تجاه الله للتعرف عليه؟ لا لا يا ماري أنت تهلوسين، الآن من الأفضل لي أن أخلد للنوم.

لا بد أن أعرف ما الحقيقة.. ما الموت.. ما الله!

ماذا لو صحَّ لي أن أسأل الموتى ما الموت؟

كيف حالهم الآن؟

وهم بعد ساعات تبدأ أجسادهم في المغادرة والتعفن، كم أنت عظيم يا سارتر! حينما قلت إن العدم يتجلى في الإنسان، وإننا بعد الموت لسنا شيئًا سوى مجرد عدم،

كحالنا قبل الولادة، أو قبل المعرفة.

إن الوجود الذي يراه أصحاب الديانات ما هو غير نقطة في بحر العدم، لكننا لم نكن وحدنا مَن يعرف أننا سنموت، يعلم أي كائن في الأرض أنه سيموت لأزلية تلك الحقيقة.. لماذا علينا أن نعي أننا سنموت؟!

لماذا علينا أن نفكر؟ ولكن هل التفكير يعني الوجود؟ وإذا كان التفكير يعني الوجود، إذن فما هو الوعي؟ وعي الإنسان يعني وجوده، هكذا قال ماركس. دقت الساعة الواحدة صباحًا، النوم يفارق ديسمبر، أكره هذا الشهر، ولا أدري لم، لا أطيق ذلك الشهر، لا أحب النهاية دومًا، ربما كان ديسمبر إعلانًا لانتحار العام، أو لقدوم غيره، فهو رمز دائم للنهاية، كم أكره النهايات!

أحضرت هاتفي المحمول وقررت أن أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي وخاصة فيسبوك، كل الناس يتكلمون عن الحب والحياة والزواج، وأنا أبحث عن سارتر والوجود والله، خطر ببالي أن أشاهد فيلمًا، استشرت أصدقائي فنصحوني بأن أشاهد فيلم (Agora)؛ قالوا إنه سينال إعجابي وخاصة أنه على ما يبدو فيلمٌ تاريخي.

كانت فرصة جيدة كي أقتل الأرق الذي لا يتركني لحظة واحدة، بدأ الفيلم، بالفعل كان ظني في محله، فهو يسرد قصة هيباتيا عالمة الهندسة والفلك المصرية التي لم تقنعها المسيحية فنكَّلَ بها كيرلس (عمود الدين)، بل وأمر بقتلها عارية أمام الجميع، الجمع يعرف هيباتيا.. ولكن لماذا كان مصيرها القتل؟

لأنها خرجت عن النص، خرجت عن القاعدة، لأنها قالت لا! تأتَّى لي في ذلك الوقت أن أذهب إلى رجال الكنيسة، وإلى أي رجل يتكلم باسم الله، وأن أصرخ

في وجهه وليحدث ما يحدث. هؤلاء يكذبون، يحترفون الكذب وخديعة الناس، الله بالنسبة إليهم إرث برعوا في المزايدة عليه، واحتكاره لهم ولأمثالهم، عندما كنت صغيرة كنت أنظر لأمي وهي تحضر عظة الجمعة الأسبوعية، تبكي أمام القس ليغفر لها.

سألتها حينها «ليه بنعترف للقس يا ماما؟»، قالت «مش للقس، إحنا بنعترف لله»، ثمَّ نظرت إليَّ نظرة إشفاق، تعكس حالة الحب تجاهي، ثم وضعت يدها على شعري وأردفت قائلة.. «نعترف لأن الرب أمرنا بكده علشان نطهر نفسنا من آلام الخطايا، الكاهن يا ماري زي الطبيب بيوصف العلاج، مرشد إلى الله، وده مش شيء يدعو للخجل، يقول الرب للكهنة (من غفرتم له خطاياه غفرت ومن أمسكتموها عليه أمسكت) فالكاهن بيرشد ومن فم الكاهن تؤخذ الشريعة»، استطردت أمي -وأنا أشعر أنها الآن أحد الكهنة- كي تخبرني بمبرراتها نحو تلك الطقوس الدينية، وأنا لا أجد شيئًا يدفعها إلى ذلك غير تقليدٍ أعمى، عادة موروثة، أو تشريع مريض يدفع الناس إلى رجل مثلهم يعترفون إليه، لم أخبر والدتي بما دار داخلي.. أومأت برأسي وسكتُّ، ثم قلت في نفسي «لست أنا وحدي المريضة.. كل الناس مرضى، لكن على الأقل أعرف أني مريضة وأبحث عن علاج، هم لا يعرفون حتى أن لديهم إشكالًا، يسيرون إلى مجهول لم يعرفوا حتى ماهيته!».

فيما أنا أفكر انتابتني نوبة خوف شديدة، وانتفضت عن سريري فجأة، وذهبت مسرعة إلى غرفة والدي، طرقت الباب ثم ردت أمي «خير يا ماري فيه حاجة؟».. سألت أمي عن أبي وعن حالته طمأنتني بأن أبي في حالة جيدة، وبأنها اتصلت بأحد أصدقائه وأخبرته بحالته وقررت الذهاب إلى طبيب متخصص في حالته وحدد الموعد يوم الأحد الساعة الثامنة، انصرفت إلى غرفتي وقبل أن أذهب

شعرت بالظمأ، فتحت الثلاجة كي أشرب، لفت نظري شيء مغلف بأحد أدراج الثلاجة.

الفضول دفعني إلى أن أعرف ما هو، ترددت فمن الممكن أن يكون شيئًا خاصًا بوالدتي، أو والدي أو حتى كريستين، لكن وجدت نفسي في النهاية أفتحه، وجدته أقراص دواء برتقالية اللون، ليس عليها أي صفة أو حتى اسم لفهم طبيعة الدواء، أخذت كل اللفافة معي كي أتحرى عن طبيعة هذه الأقراص وعرفت أنها منشطات جنسية، في ذلك العمر لا يستطيع الإنسان التخلّي عن رغباته وحاجاته، طبيعة البشر.. لا شيء يدعو للخجل غير ما يناقض تلك الطبيعة، الجنس مثل الهواء لا يمكن الاستغناء عنه وإن تظاهر البعض بغير ذلك، أعدت تلك الحبة مكانها، وعدت لغرفتي وتناولت دوائي الذي نصحتني به الدكتورة فاطيما، والذي أخبرتني بأنه سيساعدني كثيرًا على النوم، استلقيت على الفراش، خلعتُ كل ملابسي فهي طريقة كثيرًا ما تساعدني على الاسترخاء، شيء غريب!

الساعة الخامسة صباحًا؛ لم يحدث شيء عند الثالثة، لم أشعر بها أساسًا، أنا سعيدة للغاية، ربما كان كل ما بداخلي وهم، تراقصت وأنا على الفراش من الفرحة، أمسكت هاتفي كي أعبر عن فرحتي تلك، ولكن بمجرد رؤية الهاتف تبدل كل شيء، رسالة نفس الشخص وكانت في تمام الساعة الثالثة صباحًا يخبرني فيها بأن لديه شيئًا يريد أن يطلعني عليه.

عاد إليَّ الشعور بالإحباط، تلك الحالة التي لا يمكن لقلب مضطرب أن يصفها إلا بأنها حالة من الترقب والاستسلام، ولكن قررت أن أرد على الرسالة.

- «إنتَ عاوز مني إيه؟»

أرسل رسالة في الحال ردًّا على رسالتي وكأنه أعدها مسبقًا:

- عندي حاجة عاوزك تشوفيها.

- إنتَ مين؟

- مش مهم. بس هتندمي لو مسمعتيش كلامي.

أخذت نبضات قلبي في التزايد الشديد، لكن حاولت أن أتماسك ثم أرسل لي رسالة في منتهى القذارة «عندك صدر ولا نجمات البورنو». لم أرد على تلك الرسالة ولكن هاتفي يرن، أود إخبار الشرطة لكن أخاف المجهول وراء تلك الليلة اللعينة. رسالة تلو الأخرى ثم كان آخرها.. «مش عاوز أأذيكي، عاوزك في حاجة تانية خالص».

تكالبت عليَّ كل ألوان الشكوك والوساوس.. من هذا الرجل؟ وماذا يريد مني؟ أو ما حقيقته هو أيضًا؟ تملكني الخوف، وشعرت بيأس شديد ولأول مرة.. بخوفٍ من المعرفة!! ماري تخاف أن تعرف، وللمرة الأولى خوفي من المعرفة يسبق طبيعتي وفضولي.. لا أريد أن أعرف، صرخت بصوت عالٍ «لا أريد أن أعرف شيئًا».. ولم أرَ شيئًا بعدها.

استفقت على صوت أعرفه، الصورة مشوشة غير واضحة المعالم، حولي جمع من الناس، يبدو أنني قد فقدت وعيي لفترة، أشعر بتعب شديد، ورغبة شديدة في البكاء غير أنني لا أستطيع، لا أرغب في الكلام، لا أرغب في شيء، أشعر بالخوف فحسب، الخوف من كل شيء، الخوف أن أحيا، أن أتكلم، أن أحب، وأكثر ألوان الخوف خطورة هو الخوف من المعرفة، كثير منا يظن أن لديه الشجاعة لمواجهة الحياة، والحقيقة أن الخوف شيء متأصل فينا، قابع في هويتنا، وإن بدت المعرفة سبيلًا للحياة فالخوف من الألم يقف حائلًا أمام البحث.

كنت ألوم من يرفض إجراء الفحوصات الطبية نتيجة خوفه من علمه بإصابته بأحد الأمراض المستعصي علاجها بل كنت أنهرهم، وأوجه لهم اللوم الشديد، أكانوا على حق؟! يبدو أنهم كانوا أكثر دراية مني وخبرة وأكثر جبنًا! الخوف أحد مرادفات الموت على أرض الحياة، رغبة مذلة في الحياة ورؤيتها من نافذة بعيدة.. بل والاكتفاء بمجرد النظر والمراقبة، كالخانع لا ينتمي لسوى نفسه، يتمنى أي لحظة يشعر فيها براحة وأمان، لحظة لا يهرب فيها إلى أي ركن، فالهروب بالنسبة إليه هو مجداف الحياة وسفينتها الأبدية الآمنة وسبيله إلى السقوط الحتمي بلا إرادة.

ظللت صامتة وعيناي حائرتان في المكان، أبحث عن أمي كي أعانقها وحسب، لا أريد شيئًا آخر، انصرف الجميع بعدما رأوا عينيَّ تفتحتا قائلين «حمد لله على السلامة يا ماري»، سمسم ينظر إليَّ كأنه يبكي، أشعر به، أحب هذا الكائن. شعرت بمغص شديد، قمت عن الفراش وذهبت إلى المرحاض.. دورتي الشهرية.. ولكنه نزيف شديد، حتى دورتي لا تريد الانقطاع، وأنا عائدة في طريقي من المرحاض سقطت من يدي منشفتي، انخفضت كي أحضرها وإذا بي أجد إحدى صوري الفوتوغرافية ملقاة على الأرض، وبجانبي في الصورة صديقتي سالي نصحي، هي إحدى صديقاتي المقربات للغاية منذ المرحلة الثانوية وحتى العام الثالث من دراستي الطب، سالي فتاة غاية في الجمال والرقة، من عائلة عريقة ومتحررة جدًا، لكن لا تجيد في حياتها سوى مساحيق الجمال والكتب والمذاكرة، لا تقرأ عن شيء آخر، أصاب علاقتنا الفتور منذ أواخر العام الثالث من دراستي الطب، فقد تمت خطبتها لصديق لنا بالجامعة يدعى نادر.

حقًّا أحبها للغاية وربما كانت الأكثر مداومة في الاطمئنان عليَّ ما بين الحين

والآخر، فهي أيضًا ذكية للغاية تعرف ما تريد، وبالفعل تحصل على أي شيء تريده، أذكر أن آخر مرة التقينا فيها كانت على شواطئ الإسكندرية مع نادر، كانا يداعبان بعضهما بعضًا على الشاطئ وانتهى بهما الأمر إلى قبلة ساخنة للغاية، نادر حمل سالي خارج الشط بين يديه كطفلته واحتضنها بشدة وشوق، وأخذ يداعبها كأنها هرة صغيرة، وبعدها كانت تلك الصورة التي التقطها نادر لنا أنا وسالي بملابس السباحة.

التقطت الصورة عن الأرض، وبدا لي أنها إشارة ما، نظرت خلف الصورة كي أقرأ نص الكلام خلفها لكن نادتني أمي «ماري ماري ماري إنتي كويسة؟»، أجبت بشيء من عدم التركيز «هه هه بتقولي حاجة يا ماما؟».. ردت أمي قائلة:- «حمد لله على السلامة يا حبيبتي».

قررت أن أستلقي على ظهري وأنظر بتأمل ماذا حدث، لا بد أن أعرف ما المشكلة، ما الداء!، تركت سمسم مع كريستين واستلقيت على الفراش آملة أن أسترخي وأفكر بهدوء، الصورة ما زالت بين يديَّ.. أدرت الصورة ووجدت مكتوبًا عليها عبارة غريبة «الأشرار لا يغنون»، شعرت براحةٍ غير مألوفة عند قراءة هذه العبارة وقررت أن أستمع إلى بعض الموسيقا الهادئة أو بعض الأغاني الهادئة، أحضرت الراديو القديم الذي كان ينتمي لجدي فتلك الأشياء القديمة لا تقدَّر بثمن، وذلك أنها تنتمي لزمنٍ جميل وأكثر بساطة.

هكذا نحن دومًا.. تألف أرواحنا كل ما هو قديم، وبالفعل أغنيتي المفضلةyou and I تغنيها لورين كريستي بهدوءٍ ورقةٍ لا متناهيةٍ، وكلمات تلك الأغنية التي تبدو كأنشودة السماء حينما تخاطب القلوب، إنها الراحة والجمال، الموسيقا تداعب الروح وكأنك في رقصةٍ هادئةٍ مع السماء، يداك مبسوطتان وعيناك حالمتان،

هادئتان، روحك مرهفة، الموسيقا أداة الرب كي يلاطف الودعاء والحزانى الذين أنهكتهم الحياة وأثقلت أرواحهم.

أشعر برغبة شديدة في النوم، أتثاءب بكثرة، ولم أشعر بعدها بشيء إلا والباب يطرق، قمت مسرعة، النافذة مفتوحة وأنا حتى بلا غطاء على الفراش، الساعة الواحدة بعد الظهر؛ لا بد أن الجميع قد خرجوا، لا أحد بالمنزل.. فتحت الباب فإذا بعامل النظافة يأتي كي يحمل ما تبقى لدينا من قمامة، أخبرته بأنه لا توجد قمامة وشكرته وأغلقت الباب، واستلقيت على الأريكة في غرفة المعيشة وأشعلت التلفاز، حالتي أفضل اليوم.. اتصلت بمحل عملي أطلب إجازة من العمل لشيء عارض.

هاتفت الدكتورة نور وفرحت للغاية لسماع صوتها العذب النقي، وأخبرتها بأني سأعود وأخبرها بما حدث الأيام الماضية، أشعر براحةٍ غيرِ عادية، ولأولِ مرة أستيقظ بكل هذا النشاط والرغبة في الحياة، تساءلت لماذا أشعر بهذا؟ النوم الراحة، النوم رحلة خلود روحية تسمو بنفسك وروحك إلى عالمك غير المرئي، عالم لا يصفه قلم، شيء لا ينقصنا سوى لمسِهِ، أو نشعر به، اليوم يتغير لمجرد أنك قد رأيت شيئًا جميلًا ولو في عالم الأحلام، حتى وإن لم تذكره جيدًا، ولو أطلق على شيء أكسير الحياة ووجودها الدائم، لأطلقت على النوم الهادئ ذلك الاسم.

نهضت عن الأريكة وذهبت إلى المرحاض للاستحمام. نزعت عن جسدي كل الملابس، أنظر لنفسي في المرآة، نهداي يبدوان ذابلين، كل السيدات يعرفن ما معنى النهدين الذابلين، النهد عنوان جسد الأنثى، كل ما أشعر به أنني مثارة للغاية، بظري منتفخ وشُفراي ملتهبان للغاية يعلوهما احمرار وانتفاخ شديد،

الماء يغمر جسدي كله فربما يطفئ حرارته الشديدة، أو يزيل ما تبقى من سوء تلك الأيام التي مضت، ولكن الماء داعب نهديَّ حتى انتصبت حلمتاهما للغاية، وانتفخ بظري بشكل أشد، أخذت بعدها أداعب بظري بيدي حتى أكثر من إفرازاته، أدخلت إصبعي إلى أعماق مهبلي أحاول بذلك أن أروي هذا العطش الجسديّ الغريزة، أخذت أتحسس جسدي من رقبتي حتى بظري، صرت أكرر تلك الحركات وأنا أتخيل تلك اللحظات الرائعة وأنا أقبل أحد أصدقائي بالشهور الأولى بالجامعة، كان الأمر ممتعًا.

وكان هذا الشاب مجنونًا، كنت أشعر أن لسانه يصل إلى أعماق فمي من الداخل، ارتشف كل لعابي، كنت خائفة في البداية، فقد كان خبيرًا وهو يقبلني.. كانت يداه تلامسان مؤخرتي بمداعبات رقيقة، أخذت أذكر ذلك حتى ارتعشت وأنا ما زلت تحت المياه، انتفض مهبلي وساقاي بشكلٍ شديدٍ بعدها بدأت أشعر براحة بعض الشيء، لكن شيئًا ما ينقصني، ورغم أنه قبلني لم أكن أود إقامة علاقة حميمية معه، ولو كان مضى أكثر من ذلك كنت سأوقفه، شعرت فقط بأن الجسد يسودُني، وأني فقط أردت إشباع رغبتي.

خرجت إلى غرفتي عارية، استلقيت على فراشي.. أبدو وكأن نوبة من الجنون انتابت كل أفكاري حتى إنني انتفضت فجأة وشغلت موسيقا صاخبة ورقصت كما أنا حتى تصببت عرقًا من كل ناحية، أحدهم يفتح الباب.. يبدو أنها والدتي، أسرعت أغلق باب غرفتي وأضع شيئًا يستر جسدي وخرجت، فوجدته والدي على غير المتوقع.. تبدو عليه أمارات الإجهاد والتعب.. سلمت عليه وقبلته ثم نظر إليَّ نظرة حب وحنان:

- شكلك النهاردة زي العروسة يا ماري.

- إنت اللي قمر يا نبيل، عاوزة أجوزك بقى، ماما كبرت خلاص بقى.

ثم ضحكت بشدة. رد عليَّ ضاحكًا: - الصحة تعبت.

سألته بشيء من الجدية: - بابا إنت مبسوط من حياتك دي؟

أجابني وهو يتنهد:

- نشكر ربنا. مفيش حد مرتاح يا ماري، مفيش حد عاجبه حاله، كل واحد بيفتكر إن مشكلته هي المشكلة الأهم اللي ملهاش حل، ومفيش حد بيرضى.

حاولت برقة أن أغير الموضوع، فعلى ما يبدو أن والدي يؤلمه شيءٌ ما، تنتابه حالة من الغضب الداخلي التي قد تكون أحد معالم أو ملامح الإرهاق النفسي الشديد والتسليم أو عدم الرغبة.

سألته قائلة «هتروح للدكتور امتى؟»، أومأ برأسه وأخبرني بأنه لن يذهب إلى أي طبيب، ثم طلب إليَّ أن أدعه كي يتناول قسطًا من النوم على أريكته، وبالفعل تركته ودخلت غرفتي، رتبت كل أغراضي، ارتديت بنطالًا ضيقًا جدًّا وعليه بلوزة سوداء ضيقة أيضًا وحذائي الأحمر.. وقررت أن أتصل بسالي وأخبرها بأني أود الخروج دون أعذار الآن.

هاتفت سالي: - إزيك يا سالي؟

أجابت بشيء من الفتور والتعب : - مين معايا؟

داعبتها قائلة: - مش فاكراني يا جزمة ولا إيه؟

ثم ما لبثت سالي أن قالت: - إزيك يا ماري؟ وحشتيني.

افترضت أن هناك شيئًا ما يجعل سالي ترد بكل هذا البرود، سألتها:

- سالي إنتي كويسة؟

أجابت سالي منهمرة في البكاء:

- عاوزة أشوفك أحكي معاكي لأني هانفجر.

تغيرت ملامحي، ولكن حاولت تهدئتها:

ا- لنهاردة لازم أشوفك. إنتي واحشاني جدًّا.. نص ساعة ونتقابل.

أبي مستلقٍ على الأريكة، ما كنت أود إزعاجه لكنه انتبه وسألني إلى أين أذهب.. وأخبرته بأني سأقابل سالي وأوصاني بألَّا أتأخر لأنه يريد مصارحتي بأمرٍ ما.

نزلت من الشقة وخرجت إلى الشارع والشمس قاربت على الزوال، ما عدت أرى «عم أحمد» الرجل البشوش، وفي هذا الوقت استنشقت كمية كبيرة جدًّا من الهواء كأني في شوقٍ إلى أن أتنفس الهواء، قدت سيارتي.. أوقدت الراديو وكانت إحدى أغنيات المطربة فيروز، صوت كأنه يأتي من السماء، يداعب الروح كأنها الحياة بعد الموت، فيروز تغني «سكن الليل وفي ثوب السكون تختبي الأحلام».. ما أحلى هذا التشبيه الرائع! حنين غريب، شوق متلهف لشيء مجهول غير معروف، الأغنية رائعة تبدو كبساط يحملك إلى أرضٍ تود لو أنك تنتمي إليها ذات يوم، لا أعرف ما السر، يبدو شيئًا غريبًا غير أنه ممتع وكامن في ثنايا الروح.

أبدو الآن عاطفية جدًّا وغريبة، لست أنا هذه، أشعر بأنني طفلة صغيرة أود شراء

إحدى العرائس، لم كل هذا؟ أبدو غريبة جدًّا، هاتفت سالي كونها تحركت من منزلها، وأجابتني أنها ستتأخر قليلًا لأنتظرها في أحد المقاهي المطلة على النيل، انعطفت بسيارتي لكني لمحت أحدًا خلفي بسيارة حمراء كأنه يتبعني، وحين انعطفت سار في طريقه مباشرة حتى لا ينتابني شك، سكتُّ لحظة لعلها تكون ضلالات ثم تابعت السير، السيارة تقف إلى أحد النواحي الموازية للشارع الذي أسير فيه، ثم رن الهاتف وأجبت.

- إنتي فين يا ماري؟ أنا وصلت قدام كافيتريا الشجرة.

أجبتها مسرعة

- حالًا هكون عندك.

لم أذهب لتلك الكافتيريا منذ وقت طويل، أوقفت السيارة، أخيرًا قد وصلت سالي.. كم أفتقدها! تعانقنا طويلًا وبشدة عناقًا حارًّا فيه شوق شديد، صديقتي المقربة تأخذنا الأيام ولا نرى بعضنا، انتهينا من المصافحة ثم نظرت نحوي بشوق «واحشاني يا ماري كنت هاموت وأشوفك»، وهي تبدو شاحبة وحزينة للغاية، غير ما كانت تبدو أيام الدراسة في الجامعة، كانت الزهرة وسط جميع الفتيات، شديدة الذكاء والجمال والنضارة وكثيرة الحركة.

ثم ما لبثت أن عانقتني مرة أخرى واحتضنتها بشدة، لكن سألتها متعجبة فهي تخفي شيئًا ما يحزنها:

- مالك يا سالي؟

انهمرت سالي ثانية في البكاء، قلت لها:

- مالك يا حبيبتي؟

وضممتُها إلى صدري وتابعَتْ حديثها لي:

- نادر.

- ماله نادر؟

ثم واصلت سالي السكوت وكأنّها تراجعت عن إخباري، ولكني نظرت في عينيها فلم أعد أرى غير ذبول وإرهاق ثم قلت:

- إيه يا بنتي جراله حاجة؟ قلقتيني.

لم تتماسك حينها سالي، وكأنّ الأمر انفرط منها وقالت:

- ألحَدْ يا ماري.

تعجبت جدًّا ورددت في دهشة: - نادر!

- أيوه وبيعرف ستات وبينام معاهم.

لا أصدق ما أسمعه. فنادر كان آيةً في الصدق والخلق والحسن، لقد كان متدينًا جدًّا وطيبًا جدًّا، وكان يحارب ويعادي كل من يتبنى هذا الفكر، لقد كان شديد اللوم على أفكاري.

تابعت سالي: - كل ده اتغير، بقى واحد تاني.

أشرت برأسي.. فأنا لا أصدق: - إيه اللي غيره كده؟

بكت سالي بحرقة: - الصحبة يا ماري.. نادر من سنة أحواله اتغيرت ألف درجة، مكالمات من أرقام غير معروفة، أنا سمعته مرة وهو بيكلم واحدة وبيديها معاد في بيتي.

لم أستطع تصديق ما تقوله سالي، التي تابعت:

- وبقى يشرب خمرة كمان، مبقاش طايق البيت وأنا اللي كنت مستحملاه بقرفه، يا ماري نادر أساسًا ضعيف جنسيًّا، مش عارفة بيعمل إيه وعلاقات جنسية غريبة، وأنا معاه على طول بيتفرج على أفلام إباحية، واجهته، هو وصاحبه الملعون ده على طول في الخمارات والكباريهات، ظبطته هو وصاحبه نايمين مع أكثر من واحدة وكل مرة يقولي آخر مرة، لدرجة مرة جالي عاوزني أوافق نعمل علاقة ثلاثية مع واحدة عاوز يجيبهالي! شوفتي القرف والقذارة وصلت لفين؟!

في تلك اللحظة أصابني الذهول من هول ما سمعت، ولكن حاولت تهدئتها قدر ما أستطيع، فهي غاضبة للغاية، قلت وأنا غير مقتنعة بما أقول:

- إهدي يا سالي ونشوف حل للمشكلة.

انفعلت سالي ثانية ثم صرخت في وجهي صائحة:

- يا ماري هو ملحد دلوقتي وأنا مسيحية. انتي عارفة ده معناه إيه؟

هنا أقبلت على سالي وضممتها إلى صدري، عانقتها بشدة حتى صرنا كجسد واحد ثم قلت: - اهدي يا سالي.

ثم مسحت دموعها ونظرت نحوها:

- عاوزة أسألك سؤال وتجاوبي بصراحة.

رفعت سالي رأسها من فوق صدري وقالت:

- اتفضلي يا ماري.

- انتي لسه بتحبيه؟

- مش عارفة.

- يعني إيه مش عارفة؟! لازم إجابة واضحة.

بكت سالي ثانية:

- كان كل حاجة ليا في الدنيا، كنت باتباهى بيه وبأدبه، مكنتش بحس بأي غربة وأنا في حضنه.

قلت وأنا في غاية العجب:

- أمال بيعمل كده ليه؟!

- والمسيح مش عارفة.

عرضت عليها أن أساعدها، ثم قلت جادة:

- سالي عاوزاني أتدخل وأحاول أوفق بينكم؟

- لا يا ماري إياك تعملي كده؛ نادر بيحب الخصوصية جدًّا.

وفيما أنا أتحدث مع سالي، شرد ذهني لحظة وتساءلت.. ما الذي يمكن أن تفعله لحظة يقظة في حياتنا؟ هل تكون بمثابة الزلزال الذي يهدم كل ثوابت وترهات الماضي؟ لحظات الماضي على ما يبدو غير قابلة للمحو، يمكننا أن نتخلص منها بشيء واحد هو الثورة والخروج على النفس وهذان الشيئان في تعداد المستحيل. إن أكثر اللحظات حسمًا في تاريخ الفرد هي تلك التي يولد فيها أمام نفسه دون حوائل أو اعتبارات، لحظة ميلاد حقيقية يصاحبها آلام طالما صاحبت أي نبت وولادة، لا تشوبها مخاوف أو تحدها ثوابت حتى وإن بدت ثوابت دينية مقيتة.

- ماري.. ماري روحتي فين؟

- سرحت شوية يا سالي، انتي ناوية على إيه دلوقتي؟ هتنفصلوا؟

لم تستطع الصمود أمامي وسقطت مغشيًا عليها، أسرعت أطلب المساعدة وبالفعل استجاب عدد ممن يعملون بالمقهى الذي تقابلنا فيه، وأخرجنا سالي إلى سيارتي وأسرعت نحو المشفى المجاور للمنطقة، اتجهت إلى قسم الطوارئ بالمشفى، على ما يبدو أنه مشفى حكومي متهالك، طلبنا مقابلة أحد الأطباء، أجابت إحدى الممرضات بالمستشفى بأن الطبيب غير موجود الآن، علا صوتي وأخبرتها بأن تحضر أي طبيب بالمكان في الحال، دخلنا فلا توجد أي بوابة أو مدخل أو حتى لافتة تدلنا إلى أين نذهب، فلا عجب في مصر تلك هي مستشفيات الفقراء، المرضى على أرصفة المستشفى وفي حالات الكشف لا توجد أي اعتبارات آدمية، ولا احتياطات للسلامة، أدخلتنا الممرضة إلى أحد الأسرَّةِ المخصصة لمرضى الطوارئ، القطط تحيط بنا داخل المستشفى مأساة أخرى في بلدٍ هكذا استشرى فيه الظلم والفقر والجهل، ثالوث الدمار الأكيد الذي يفتك بالفقراء. بالفعل تم استدعاء الطبيب، فعلى ما يبدو كان خارج المستشفى.. أتى مسرعًا يخاطبني وأنفاسه تتسارع:

- إيه اللي حصل؟

رددت وكلي ضجر:

- أغمى عليها وفقدت الوعي يا دكتور.

أردف الطبيب قائلًا:

- ما تقلقوش، صدمة عصبية شديدة وهي بخير.

- أنا فين؟ أنا فين؟

صوت يأتي من ناحية سالي، هللتُ فرحة «حمد الله عالسلامة يا سالي ألف سلامة عليكى، خضتيني عليكي».

أخبرني الطبيب بأن الأمر عارض وليس فيه أي خطورة، شكرته وقررت الانصراف، وركبنا السيارة متجهين إلى بيت سالي، وفيما أقود السيارة لمحت في المرآة نفس السيارة الحمراء تتبعني، حاولت أن أتعرف على ملامح السائق ولكنه على ما يبدو كان محترفًا، وما لبث أن سلك طريقًا آخر، وبالفعل لمحت أرقام السيارة ودونتها بسرعة على هاتفي الخلوي ثم أكملت طريقي لبيت سالي، وصعدت معها إلى المنزل حتى أطمئن على حالتها وأنها أصبحت بخير.

أدخلتها منزلها واطمأننت عليها، ثم ودعتها وانصرفت وما يدور ببالي أن أتعقب رقم تلك السيارة التي ربما تكون خيطًا للوصول لما يجري حولي، أو ربما كانت لذلك الشخص الذي يحاول دومًا الاتصال بي وتهديدي.

أسرعت إلى المنزل، رن هاتفي.. إنّها أمي تطمئن عليَّ. ثم رن مرة أخرى.. إنه أحد أصدقاء الدراسة بطرس، ربما كانت تلك المكالمة بمثابة تهدئة وراحة لبالي لبعض الوقت حتى وصلت إلى منزلي، فهو يدعوني كي أحضر الجابنيوت ليعلن خطبته لإحدى قريباته، هنأته ووعدته بالحضور قدر الإمكان، وبعدها أجريت اتصالًا بأحد أصدقائي والده ضابط شرطة كي يساعدني، وبالفعل أعطيت له رقم السيارة، لعلي أصل إلى أي خيط!

صعدت السلالم، فقد كان المصعد معطلًا لسببٍ غير معروف كالعادة، ودخلت شقتي مسرعة إلى غرفتي حتى أبدل ملابسي، ودون أن أنظر حتى في الصالة لمن

هو موجود، بدلت أغراضي وأنا أرتدي رداء النوم، سمعتُ طرقًا على باب الغرفة. تساءلت «مين؟».. فإذا هي أمي.

- خير يا ماما؟ فيه حاجة ؟ ادخلي

- أمي تبدو متهللة الوجه، ولكن يبدو عليها بعض القلق وهي تخبرني:

- فيه ضيوف بره عاوزين يشوفوكي.

- ضيوف مين؟

- طنط شيرويت وابنها فادي.

استشطت غضًبا واحمرَّ وجهي قائلة:

- عاوزين إيه؟

حاولت أمي تهدئتي، ثم رفعت عينيها وحاجبيها قائلة:

- فادي عاوز يتعرف عليكي، وعاوز يرتبط بيكي.

انتفض قلبي وقلت بتلقائية شديدة:

- أنا مش موافقة.

للحظة كأن روحي تركت جسدي وتخطف فؤادي تلك اللحظة المثيرة للغثيان، في بلادي أن يأتي رجل لا نعرفه، يتعرف عليكِ في لقاءٍ واحدٍ ومرةٍ واحدةٍ، وبعد ذلك يطالبونك بأن تحبيه وتكوني لطيفة معه.. بل وأن تعشقيه. لا أجد ذلك النوع من الزيجات إلا بيعًا وشراءً، عريس مناسب يأتي لشراء عروس بشكل في -نظر عرف المجتمع المريض- مقبول حتى تهرب الفتاة من شبح العنوسة الذي يواجه أغلب فتيات ذلك المجتمع المصري، نظرًا لارتفاع تكاليف الزواج والتضييق المتعمد

من الأسر على قواعد وأعراف الزواج، لذا تهرب الفتاة من شبح العنوسة لتجد نفسها وليمة لرجلٍ استطاع أن يدفع أكثر من أقرانه وكأنه مزاد علني في سوق نخاسةٍ قديم.

وقد علا صوتي أمام والدتي كالعادة لدرجة أسمعت من كانوا بالصالة خارج الغرفة فانطلقوا مغادرين!
«أنا مش هاتجوز حد يا ماما»

والدتي أبدت غضبًا شديدًا.. فهي ترى فادي رجلًا مثاليًا لا عيب فيه، استأذنتها أن تتركني بمفردي وعادت إلى غرفتها، أعرف أنها ستشكوني لوالدي الذي تأخر في العمل اليوم.

الهاتف يرن.. إنها سالي تطمئنني وتعتذر لي عما بدا منها وتشكرني، أخبرتني بأنها قد ارتاحت لأننا تبادلنا الحديث معًا. هكذا يبدو المرء في شدته قد يحتاج إلى يدٍ حانية أو صوتٍ محبٍ يخفف عنه آلام الدهر، لحظات من الضعف تستوجب تكاتفًا روحيًا قد يعين الفرد على تحمل طعنات الدهر الغادرة، هدأت قليلًا وأخذت ألاعب سمسم ذلك الجرو الصغير الوفي، وفي كثير من الأحيان أغبطه لأنه في راحة من عقله.. رغم وفائه فلا عقل له، إذن لا حزن ولا اضطرابات ولا ألم، تناولت أدويتي فقد تأخرت في تناولها اليوم عن ميعادها المعتاد، فاليوم هو السبت الموافق الثالث عشر من ديسمبر، طالما أحببت يوم السبت، ربما لأنه بداية.. وأجمل ما يواجهنا في حياتنا دومًا هو البدايات، ارتخيت على فراشي وأنا أبدو في حالة إنهاكٍ جسديٍ شديد وفي حاجة إلى قسطٍ من النوم والراحة، عانقت وسادتي بشدة ولكن هيهات فالأرق مقيت، التفكير الدائم دفعني لأن أحضر هاتفي الخلوي؛ شيء ما يذهب الأرق.

وجدت سالي ما تزال مستيقظة، عرفت ذلك من حالتها على الفيسبوك، تكتب شيئًا محزنًا للغاية.. «على المرء أن يدرك أنه لا رهان على أحد وهو على قيد الحياة حتى لا تتجرع مرارة فقدانه».

سالي حزينة للغاية؛ لماذا ترضخ للأمر الواقع ما دامت تحب نادر؟ والسؤال الأهم.. لماذا تبدل حال نادر بعد إلحاده؟ لماذا حياة الملاحدة تبدو مضطربة دائمًا تملؤها المخاوف والانحرافات؟ شيء ما في نفسي وأخبر الجميع به دومًا.. أننا لا نعرف وجهتنا، الملحد فَقَدَ التوجه، استوت عنده الأشياء، لا قانون يحكم النفس سوى علاقة أعلى من قوانين البشر، النفس تحب أن تخضع لشيء قوي، لإرادة عليا، لبرهان أكثر وضوحًا، أما عندما تفقد النفس البشرية ذلك الركن الأساسي تضطرب، كالقمر الاصطناعي حينما تضطرب سرعته المدارية أو يخرج عن إطار مداره فيُفقد.

يبدو ذلك شيئًا غريبًا ولكن ذلك ما يدور في نفسي، إن النفس البشرية مهما بلغت من ذروة القوة لا يمكنها الاستناد إلى ذاتيتها.

ماري ماذا جرى؟ تتحدثين كأصحاب الديانات؟ لا.. لا أتحدث مثلهم، ولكن ما أطرحه تساؤلٌ لعل الجميع يخشى طرحه.. لماذا تضطرب حياة الملاحدة؟ نادر كان شابًا متدينًا وزوجًا صالحًا بارًّا بزوجته ويحبها، ماذا حدث؟ لا أتحدث عن حاله خاصة.. فالكثير من الرجال بارعون في خيانة زوجاتهم، ولربما يعترض أحد الناس ويخبرني بأنه ليس الملاحدة وحدهم هم المضطربون، وسأوافقه الرأي.. ولكن لماذا حين يغيِّرُ الفرد وجهته وديانته تضطرب أحواله؟

عندي تفسير وإن بدا بسيطًا ولكنه قد يفنِّد بعض الحقائق، «الوحدة».. الشعور

بالوحدة وعدم الانتماء.. لا أقصد الوحدة بالعدد ولكن توحد النفس وشعورها بأن ذلك البناء العالي الذي أحاط بها فترة طويلة من الزمن قد تم هدمه، لتصبح النفس في حالة من العراء والبرد الشديد، تلك المرحلة التي قد تسبق التكيُّف بعد ذلك كأول مرة لك حينما تغتسل بماء بارد ثم بعد ذلك تهدأ الأمور، ولكن ذلك التكيُّفَ قد يستغرق وقتًا طويلًا، وذلك للتفاوت الواضح بين الشخصيات وطبائعها إذ يصعُب التنبؤ بحالتها بعد تلك التجربة.

الملاحدة أشخاص نبلاء قرروا التخلص من أنفسهم القديمة.. يريدون أن يروا النور الحقيقي، الإلحاد ليس مجرَّد تجربة مظهرية وإنما حقيقة جوهرية داخل كل نفس بشرية، ببساطة.. الملحدون ليسوا وباءً أو انحرافًا للفطرة كما يصفهم أصحاب الديانات، ولكنهم عقول تبحث عن وجهة مادية حقيقية، آمنوا بالعلم وقدسوا رواياته أكثر من روايات أصحاب الأساطير التي لو سلَّم لها الإنسان من فترة لما كان هناك أي نوع من الترف أو الغناء.. التي يتخذها أصحاب الديانات لبثِّ أفكارهم والتحريض على عودة البشر إلى الوراء وخاصة في تلك المجتمعات الضالة من العالم الثالث حيث يعم الجهل والفقر والأساطير التي تحكم حياة الناس.

ولكن هناك طرحًا بسيطًا بعيدًا عن السفسطة العلمية أو الاستقراء الفلسفي.. لماذا يلحد الفرد جملة واحدة؟ لماذا يترك المرء الكيان بالكلية؟ إن نفي الحقيقة عن المعتقد أو الديانة لا يعني أبدًا عدم وجود حقائق ولكنها حالة فقدان للثقة والهوية والتيه، كالذي يعتزل الزواج من كل النساء لأجل امرأة خائنةٍ، وظل يبحث عن طبائع النساء وقرأ عن نساء خانوا أزواجهن وأحاط نفسه بكل شيء يتحدث عن الخيانة.. فما عاد يرى أي امرأة شريفة، وإن رأى تساوره الشكوك فيضطرب وتعم الفوضى حياته، بالضبط كما حدث مع نادر.

نادر وجد البناء والصرح العظيم قد تهاوى بعد بحثه واستقرائه عن الله فلم يجد الله في بنائه.. فقرر هدم البيت بما فيه، لتصل به الدرجة إلى الانتقام من الذات، من الناس، الانتقام من الله من وجهة نظره.

لذا قرر نكران الله، بل وبحث عن أي شيء يحاول أن يثبت أنه على صواب وألا وجود لله وأن الأديان كذبة، وهنا تكمن المعضلة.. إذ لماذا لم يفترض أنه لو كانت الأديان كذبة.. فالله ليس بكذبة؟ لماذا هدم العبد البيت؟ إنه جرح غائر وقصور في فهم الحقائق والاستنباط، أنا أشعر بألمه فقد كنت ذات يوم مثله، ولا يشعر بالألم إلا من ذاق طعم مرارته، ولا يشعر بك إلا من مر على شوكٍ قد مررت عليه، لذا أقدر تلك الفوضى التي حلت به ولذا أبديت تعاطفًا معه حين أخبرتني سالي.

الوقت تأخر. لا جديد على مواقع التواصل سوى كونها وطنًا جيدًا للحزانى والفارغين من الحياة.. الساعة الثامنة صباحًا وبدأت أتثاءب.. يغلبني النوم والصداع شديد لا يحتمل، وغدًا عطلتي الأسبوعية، أريد أن أنال قسطًا وافيًا من الراحة حتى أستعيد بعض نشاطاتي القديمة، لم أدرِ ما حدث وما أيقظني سوى منبه الهاتف في تمام الواحدة بعد الظهر، تناولت فطوري وكوبًا من النسكافيه ثم قررت أن أذهب إلى المقهى لأجلس فترة من الوقت كشيء من تغيير الأماكن والوجوه.

وبالفعل ذهبت إلى المقهى المجاور لكليتي القديمة، ونظرت إلى وجوه الناس في الشارع وقد تغيرت طباعهم وتبدلت ملامحهم، ما إن يروا فتاةً جميلة أو ترتدي لباسًا أنيقًا لا تسلَمُ من مضايقات ونظرات جائعة تنهش أجساد كل السيدات ولا يسلم من تلك النظرات أحد.

دخلت إلى المقهى ثم استدعيتُ النادل وشرعت في تناول فنجان قهوة باللبن، أتى النادل ثم كانت المفاجأة، تسارعت نبضات قلبي حتى ظننته يخرج من صدري، إنه ثابت! يجلس إلى الطاولة المجاورة وحده ولم يلحظني.

- حضرتك تطلبي إيه؟

- ها آه قهوة.. قهوة باللبن من فضلك.

ذهب النادل لإحضار القهوة وانتابتني كل ألوان الحيرة والقلق، ماذا أفعل؟ ولماذا أبدو هكذا؟ لم يُصِبْنِي كل هذا الضعف أمام أحدٍ من قبل! هل أترك المكان وأذهب الآن؟ أم أذهب له وأصافحه كزميل دراسة؟ ولكن ماذا لو لم يكن هو؟ ماذا لو لم يعرفني؟ كل ما كان بداخلي من أخبار أقنعت نفسي قبل ذلك بأنها مؤكدة أضحت الآن وهمًا لا ثقة به، وفي تلك اللحظة قررت أن أذهب إليه كي أصافحه، ليست لدي إرادة الآن، شيء ما يسوقني إليه لا أدري ما هو! رابط يجمعنا لا أدري ماهيته أو حكايته!

نظرت إلى وجهي في كاميرا الموبايل، أبدو شاحبة، لم أضع أي ماكياج رغم أنه لا يفارق حقيبتي، ذهبت إلى المرحاض بسرعة ووضعت بعض الروج الأحمر وبعضًا من الزينة على وجهي وخرجت إليه كطفلةٍ يسوقها القدر إلى حيث لا تعلم وإلى مصيرٍ مجهول.

ذهبتُ إلى الطاولة، تلاشى كل الخوف حينما رأيت بريق عينيه، تهلل وجهه كالطفل الذي قصد أهله، أظنها حالةً تلامسَ فيها قلبان.. وتعانقت فيها روحان مثقلتان بأعباء النفس الثقيلة، وفي ذلك الحين لم أكن أستطيع التفوُّهَ بكلمةٍ واحدةٍ غير أن الكلام قد خرج بتلقائية وكأننا جليسا غرفةٍ واحدةٍ تجمعنا الحياة ويعرف

كلٌّ منا الآخر منذ زمنٍ بعيدٍ.

ابتسم ثابت وكأنه في حالةٍ من عدم التصديق، كأنها حالة أمل بعد يأسٍ طويلٍ، بادرتُهُ بالسلام والمصافحة.

- ثابت! إيه الصدفة الحلوة دي؟ إزيَّك؟ عامل إيه؟

أجاب ثابت وملامحه لم تستفق من المفاجأة:

- ياه.. ماري إزيك؟ مش مصدق نفسي والله!

حاولت أن أتجاوز بعيدًا عن حرارة اللقاء فكلانا يبدو مرتبكًا للغاية ثم عرضت عليه:

- تسمحلي أقعد؟

أجاب وعيناه شاخصتان من الفرحة:

- طبعًا طبعًا.

ثم قام وجلس عدة مرات، ثم سألني:

- طلبتى حاجة يا ماري؟

- آه.. قهوة باللبن.

نادى ثابت النادل ثم طلب إليه إحضار طلبي على نفس الطاولة التي نجلس عليها. ثم تابع حديثه:

- طيب مش جعانة؟ يعني ممكن ناكل وبعدين نشرب حاجة؟

لم يكن لدي خيار التظاهر حتى بالرفض كما يفعل أغلب الفتيات، لكني أخبرته

ودون تفكير:

- طيب هتأكلنا إيه؟

ثابت يتصرف كالطفل الآن:

- طيب نفسِك تاكلي إيه؟

أجبت بسرعة:

- كشري.

سكت ثابت للحظة ثم قال:

- كشري؟!

- ضربِت في دماغي آكل كشري.

- بس الكافيه مافيهوش كشري، هاخرج أجيبه من بره وأرجع.

قلت وأنا أنظر رافعة حاجبي الأيسر:

- أوك يبقى نشرب حاجة ونخرج سوا ناكل بره.. لو مش عندك مانع طبعًا.

تهلل وجه ثابت ضاحكًا:

- طبعًا.. فكرة حلو جدًّا.

نظرت لنفسي وما أفعله تجاهه ولا أصدق، تولَّدَتْ لديَّ قناعة بكل ما أفعله الآن، إذا تنفس قلبي، فليذهب العقل والمنطق إلى الجحيم!!

خرجنا إلى الشارع بعد أن تناول كلٌّ منا كوبًا من القهوة، ثابت ذو لحية مهذبة

ووجه مستدير، ذو بشرة بيضاء وشعر كثيف للغاية، ويرتدى بنطالًا وسترة في غاية البساطة والكلاسيكية وحذاءً أسودَ تعلوه الأتربة، ويحمل في يديه -على ما يبدو- مفكرةً قديمةً بعضَ الشيء. الجو رائع، والشتاء ينشر روحه وهواءه على قلبي، أود أن أعانق الناس.. أقبِّل الأشجار.. أعدو وأجري، حالة من فرط السعادة لا تصفها إلا ألحان الشتاء الجميلة، تراودني أفكار جنونية، أود أن أسأله بشكلٍ مباشرٍ.. من أنت؟

الآن تبدو خطاه ثابتة، لا يتكلم كثيرًا، به حالة من الثقة لم أرها في رجلٍ قبله، ما لبث أن نظر إليَّ نظرة عتاب قائلًا:

- بعتلك طلب صداقة!

أردت قول الصدق لكني في النهاية كذبت عليه وأجبت بحرج شديد:

- مكنتش متأكدة إنه إنتَ.

- حصل خير.

احمرَّ وجهي ولم أعرف ما يتوجب عليَّ قوله، ولكن فجأة انفلت لساني مناديًا إياه:

- ثابت إنت تعرفني منين؟!

أجاب مبتسمًا:

- من الكلية طبعًا.

لم أتوقع أن تكون تلك إجابته.. ولكني رددت كي أعرف مقصده:

- مش قصدى يعني.

- يعني إيه؟

انتابني الحرج مرة أخرى حينها وحاولت أن أغير وجهة الموضوع إلى موضوع آخر وهو، ينظر إليَّ ويبتسم، أردت أن أغادر المكان كله وصحت بعصبية:

- وإنت بتضحك على إيه؟

- مفيش حاجة يا ماري، أصلك شبه الأطفال.

لم أعرف كيف أرد، لكنه أراد مجاراتي كي يرفع عني بعض الحرج مما يظهره وجهي وصار يتحدث معي في أمور كثيرة كالسياسة، اضطررت إلى الحديث معه عن الحياة والخطط المستقبلية كي أتعرف على ذلك الرجل الذي هزَّ كل أرجاء كياني وحرك بداخلي شعوري لأول بأنني أنثى حقيقية، وأنني أمام رجلٍ بكل معنى الكلمة.. أعرف عنه ما يتناقله بعض الأصدقاء، إنه ذو مبدأٍ وخلقٍ ولكنه معقد بعض الشيء، يقولون إنه كاتب رغم صغر سنه، ذلك المزيج الذي عزَّ أن نراه في رجلٍ في هذا العصر ووسط كل العقول الشاغرة من كل مسؤولية.

قررت أن نطرح موضوعًا للنقاش قد يجمعنا معًا، لأنني شعرت أن رابطًا ما جمع بيننا في كل شيء، أردت أن أطرح عليه سؤالًا ثم قلت له بشكلٍ فيه بعض المفاجأة فلم أعد أدري كيف أرتب حديثي.. ولكني تابعت:

- تقدر تقولي يعني إيه ألم يا ثابت؟

تكلم بسلاسة دون تكلف أو تفكير مسبق قائلًا:

- هو عكس ما نشعر به الآن.

- أنا باسأل بجد، يعني إيه الألم؟

تغيرت ملامح ثابت وخيم الحزن على وجهه، وكأنني ذكرته بشيءٍ ما، ولكنه استمر قائلًا:

- الألم ما هو إلا ظل زائف للآمال، حقيقة مركبة، وطن لنا حيث نريد الاختباء من أنفسنا أو حين تعارضنا الحياة.

وفيما ثابت يتكلم أنظرُ لكل ملمحٍ في وجهه أثناء الحديث، وأشعر براحة لا وصف لها غير أنها لحظة صدق وأمان وسكون.

- ماري.. ماري.. ماري روحتي فين؟

- ها.. هنا معاك.

- انتي مش هنا بالمرة!

وابتسم ثابت، واحمرَّ وجهي بشكلٍ لافتٍ، ولا أدري ما هذا الشيء الذي انتابني فجأةً وكأنَّ أحدًا ما قام بتنويمي مغناطيسيًّا.

وصلنا إلى أحد محلات الكشري.. ولما دخلنا المطعم في أحد الشوارع التي مررنا بها، إذا بثابت يتأخر قليلًا عني، وطلب إليَّ أن أسبقه في الدخول.. ولكني لم أرتح للأمر وراقبته من بعيد كي أعلم ما سبب التأخير، وانخلع قلبي وقلت في نفسي «مَن هذا الذي أدخل معه كي أتناول الطعام وأنا حتى لا أعلم عنه شيئًا!».. وبدأت رأسي تدور وتدور حتى شاهدتُ ثابت يداعب طفلًا مِمَّنْ غدرت بهم الحياة في مستنقع الشارع ويعطي الطفل مبلغًا من المال، أسرعتُ إلى المطعم حتى لا يدركني ثابت.. وهدأتْ كل جوارحي، ثم أتى ثابت إلى المحل، سألته عن سبب التأخير رد بأنه كان أمام ماكينة الصراف الآلي يجلب النقود.

سكتُّ حتى نادى ثابت النادل.. وبالفعل أحضر الطعام وأكلنا معًا، وكأنني لأول مرةٍ في حياتي أتناول طعامًا رغم بساطته إلا أنه كان بمثابة طعام الفردوس.

انصرفنا فالوقت تأخر، وهاتفي يرن.. أعلم أنها والدتي، نظرت في ساعتي، ثم انتفضت فجأة وأنا ألملم أغراضي ثم قلت:

- يا خبر! أنا اتأخرت جدًّا لازم أمشي.

نظر إليَّ ثابت وعيناه ترغماني ألَّا أغادر.. قائلًا:

- لسه بدري.. الوقت عدى بسرعة.

وأصرَّ على توصيلي إلى سيارتي التي تركتُها أمام المقهى الأول، استقللتُ السيارة وانطلقت مسرعة، أود أن أتراقص من شدة الفرح، كأنني عدت صغيرة تريد أن تخلع حذاءها لتجري طربًا وفرحًا، نشوة عامة تنتاب الجسد والروح.

الهاتف يرن مرة أخرى.. والدتي:

- انتي فين يا ماري؟

رددت عليها مسرعة:

- في الطريق.. قربت على البيت دقايق وأكون عندك.

قطعت الطريق في عشر دقائق، وصعدت إلى شقتنا وأنا أغني، ووالدتي استقبلتني وهي في حالةٍ من عدم التصديق والذهول بعد ما صار بيننا بسبب العريس السابق، نظرَتْ إليَّ ولم تسألني حتى كيف حالي، ولكنها ابتسمت إليَّ وقالت بكل حنان «أول مرة أشوفِك بتضحكي من فترة طويلة يا ماري.. ربنا يفرح قلبك، يا رب خير».

دخلت إلى غرفتي مسرعة ولست خائفة من أي شيء أو أي عواقب، فتحت هاتفي وأرسلت لثابت طلب صداقة وبالفعل وافق في الحال، أخذت أتصفح ما كتبه وما كان يكتبه حتى أستطيع بذلك التعرف على شخصيته وطبيعة أفكاره.

فهو ليس مجرد كاتب فحسب ولكنه يبدو أنه متصوف ساحر، يأسر القلوب بكلماته وبأسلوبه الرقيق، الذي تشوبه الصعوبة في بعض الأوقات. وإذا بالباب طارق..

- مين؟

- أنا كريستين يا ماري.

فهي تناديني كي تعرف ما الذي بدَّلَ حالي، متأكدة أن فضولها ما ساقها نحوي كعادتها، أجبتها كي أتهرب من أسئلتها ثم قلت «هنام يا كريستين»، وإذا بكريستين تقتحم الغرفة وتقفز على السرير لتسألني ما الذي حل بي؟ ولم أخبرها الحقيقة، بالفعل كذبت عليها.

سكتُ لحظة وقلت في نفسي «ها أنا أكذب وكنت دومًا أنعت الكاذبين بأسوأ الصفات، وأصرخ في الناس بأنه لا مبرر للكذب، ولكن.. ها أنا أكذب».. الكذب عجزٌ عن المواجهة والمراوغة، عدم الرغبة في تقبل النقد وردود الأفعال، ضربٌ من ضروب الجبن والضعف واهتراء الشخصية.

الهاتف يرن، ولكن هذه المرة رسالة من ثابت:

- نورتي يا ماري.

- ده نورك. ميرسي.

- ماذا تفعلين الآن يا ماري؟

- ليه بتكتب بالعربية الفصحى؟

- أتعلمين يا ماري أن اليوم هو أفضل أيام حياتي؟

في تلك اللحظة تسارعت دقات قلبي ولكني تداركت الموقف، غيرت وجهة الموضوع ثم راسلته:

- تونس قام فيها ثورة.

- أعلم، ولكن ماذا عن مصر؟ هل ستقوم بثورة يا ماري؟

وغير ثابت الموضوع:

- مصر صارت كالعجوز يتكالب الفاسدون والمجرمون على امتصاصها ونهب خيراتها وثرواتها ومنع أهلها من خيرها.

سرحت فيما يقوله ثابت..

- إيه ده؟! مكنتش أعرف إنك ثورجي!

- ليست قصة «ثورجي».. ولكن الظلم طال يا ماري.

- مش خايف من النظام الموجود؟

- أنا لا أخاف أي شيء في الدنيا، لماذا قد يخاف من لا يملك إلا قلمه وصوته؟

- عندك حق، ممكن أسألك سؤال؟

- اتفضلي.

- ليه عندك دقن؟ إنت منتمي لفئة أو جماعة أو غيره؟

- والله ضحكتيني، ولا فئة ولا بتاع.

- مجاوبتش عن سؤالي؟

- لا يا ماري، لا أنتمي لسوى نفسي ومنطقي.

- إنت مؤمن بقى؟

- الموضوع به حاجة إلى شرح طائل لا مجال له هنا؛ لنا لقاء نتحدث فيه عن تلك القضية تحديدًا.

يبدو أن ثابت يحضر شيئًا ما بداخله، رأسي ما زال يؤلمني، إنه جرح ينزف! ما هذا؟! ذهبت إلى أمي لتنظر، إنه جرح ينزف في رأسي.. من أين أتى؟ أحضرت بعض الشاش والقطن ووضعته والدتي على الجرح بعد أن طهرته ونظفته جيدًا بالمطهر، وحينها تذكرت عند فتحي باب السيارة، صدمت زاوية الباب رأسي ولكني لم أشعر حينها بأي ألم.

امتطيت فراشي وصرت أشرد بذهني لحديث ثابت.. ولم ينتهِ الحديث بعد، فحديثه ينم عن تجاربَ كثيرةٍ رغم صغر عمره الحقيقي، يبدو أيضًا ككهل مثقل بالهموم، لا يدري من حوله ماذا به، تحيط به هالة من الهيبة والغموض، ليس جميل الشكل والخلقة ولكن له رؤية جذابة وآسرة للنفس والروح.

أخذت أتصفح هاتفي كل دقيقة، حتى أتابع ما يقول وما يكتب، فأغلب ما يكتبه هو روح المتصوف العابد، الرائي.

مضت ثلاثة أيام ولا حديث من ثابت لي، ماذا جرى يا ماري؟ فلتهدئي.. وإذا بالظنون والهواجس تعاودني وتطرق باب رأسي مرة أخرى؛ ثابت مسلم، ألا

يمكن أن يكون كغيره من المسلمين الذين يطمعون في الزواج بمسيحية من وجهة نظره حتى يكافئه ربه بالجنة كما يؤمن المسلمون؟

إذن فما سر لحيته؟ وأنا أعلم أن هناك العديد من الشباب المتدين المسلم يتحفز لإفساد حياة المسيحيات.. بل وفي بعض الأحيان تصل إلى الخطف من الأهل والقتل.

أليس من السذاجة يا ماري أن تأمني لرجلٍ لم تجلسي معه سوى مرةٍ واحدةٍ؟ وفيما أنا على ذلك إذا بشيء في نفسي يخبرني بأن ثابت ليس كذلك. هل أعاني فراغًا عاطفيًا أو أحب المغامرة غير المحسوبة؟ فهو يبدو هادئًا لا يتكلم كثيرًا، وهذا اللون من الناس يصعب التنبؤ بما يريد.

باب المنزل يطرقه طارق..

- مين؟

- رجل البريد يا أبلة. ممكن تفتحي؟

أسرعت نحو الباب واستقبلت رجل البريد، وإذا به إنذار من عملي لأنني تغيبت دون عذر عن العمل، حملت الجواب ووضعته في مكتبتي الصغيرة، ونظرت للكتب نظرة إجلالٍ ولومٍ على ما فعلت بي وبرأسي، لُمتُ نفسي، لماذا لم أكن كالأخريات اللاتي يحلمن بالزواج والأطفال؟

كتاب يلمع أمامي.. يبدو رواية، أحضرت كرسيًا فأنا قصيرة بعض الشيء كي أستطيع الوصول للكتاب، وبالفعل أحضرته وكانت رواية «الكيميائي» لباولو كويلو الكاتب البرازيلي، قررت أن أقرأ الرواية كي تسليني بعض الشيء، واستوقفتني

بعض العبارات اللافتة التي قالها الكاتب، إحداها «عندما تشبه الأيام بعضها بعضًا فهذا يعني أن الناس توقفوا عن ملاحظة الأشياء الطيبة التي تخطر في حياتهم ما دامت الشمس تعبر السماء باستمرار»، وعبارة أخرى جميلة.. قال الكيميائي «قل لقلبك إن الخوف من العذاب أسوأ من العذاب وليس هناك من قلبٍ يتعذب عندما يتبع أحلامه، لأن كل لحظة من البحث هي لحظة لقاءٍ مع الله والخلود».

كأن الكاتب يتحدث عن نقيض حالتي أو كأنه يخاطبني بشكلٍ مباشرٍ، أليس على المرء أن يترك زمام الأمر لقلبه؟ فقد ضاعت الحياة على أعتاب المنطق وضلالات الافتراض المقيتة، ألم يحن الوقت للاستماع ولو لمرة للقلب؟ ولكن هيهات أن يأمن المرء قلبَهُ!

رأسي سينفجر.. ماذا حلَّ بي؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟ هل أرسل له رسالة كي أطمئن عليه؟ أليس من الممكن أن تكون حالته مترديةً أو أصابه شيء؟ وبحكم الصداقة أطمئن عليه؟ لا لا.. لن أفعل ذلك، لا أدري! يداي وقلبي يغازلونني كي أرسل رسالة ولكنه كِبْرُ النساء، المرأة مهما تبدو فهي تلك الوردة والزهرة الرقيقة الهشة التي يداعبها نسيم الحب ويأسر إدراكها فلا ترى غير شيء واحد هو أن تهتم، وإن أحبت المرأة بذلت روحها وقلبها، وتخلت عن كل مظاهر الرياء والتجمل شريطة أن تحبها بصدق.

ماري.. ماري فلتستيقظي، إنه مجرد لقاء مع زميل! لا ليس مجرد لقاء.. إنها أنشودة من أناشيد الجمال والبعث وإحياء القلب بعد الموت، شيء ما جمعني به لا أدري ماهيته، غير أنه رائع.

الرابط بين البشر ليس مجرد حديث مرسل، ولكنها حقيقة وأمر ما وراء العقل لا يخضع إلا للمجهول.. الآن يا ماري قد آمنتِ بشيءٍ غير محسوس، الآن قد تحررتِ من قيود المادة المظلمة لما وراء تلك المادة، رقَّ القلب وصار أكثر قابلية لرؤية الحقائق والإنصات والتعقل!

ماذا جرى يا ماري؟! لا أعلم.. فقط أنا متعبة جدًّا وعليَّ أن أرتاح وأخلد للنوم.

لم ألبث سوى ساعة، بعدها استيقظت ووجدت الجميع خارج المنزل، فأخذت كوبًا من الشاي وقررت أن أشاهد التلفاز بغرفتي، أحضرت بعض القنوات الإخبارية التي تبث عبر شاشتها محاولة انتحار عامل بحرق نفسه بشكل يُذهب العقل أمام الجميع بعد مصادرة عربته التي يتكسب منها بإحدى البلدان العربية «تونس»، لم يعنني الخبر سوى بعضِهِ.. ولكن للحظة تأملت، لماذا بالتحديد تلك المنطقة في العالم غير مستقرة؟ لماذا الحكام في تلك المنطقة بهذا السوء والظلم؟ لماذا يستشري الجهل والفقر بين أفراد تلك المنطقة؟ ولماذا يرضون مثل هذا الذل والإهانة؟ إن الأمة التي تسمى بالأمة العربية لم تكن يومًا أمة، إنما قبلية وعصبية جاهلية، هدأتْ بعض الشيء بمجيء «محمد» الذي يؤمن به المسلمون بعد «يسوع المسيح»، ولكن الطبع غلاب، بمجرد وفاته أبت أطراف تلك الأمة إلا التناحر والعراك وحب المال والسلطة.

وانتهى بهم الحال كأي إمبراطورية ينتابها الجشع والتسلط فغزت العالم، واحتلت أرضه، واستولت على خيراته، بل وانقسمت إلى طوائف كثيرة، القتال والعداء بينهم شديد، فهؤلاء ليسوا أرض خير ولا تعاليمهم تمكنهم من التعايش مع غيرهم، تعلمهم فقط الانطواء على الذات، وعدم الرغبة في تقبل الآخر إلا في حدود بعض المعاملات الإنسانية.

المسلمون الآن في كل أنحاء المعمورة مصدر قلق للعالم كله وخاصة هذه الأيام التي انضم فيها الغالبية العظمى إلى دويلات وطوائف، فأصبحت لا ترى التسامح ولا تقبل الآخر. الرجل يمضي بلحية كثة ورداء قصير وتأمره تعاليمه بألَّا يبتسم في وجه الذين على غير دينه وملته، بل قد تمد يدك له بالمصافحة فيأبى.

الغالبية العظمى من المسلمين مسالمون لا يلتزمون بأغلب تلك التعاليم التي يقولون إنها طرأت عليهم من بلدان مجاورة.. تبث ثقافات معادية للبشر والحياة، المرأة لديهم مجرد وعاء يقضون فيه شهواتهم المكبوتة بلا اعتبار لها ولا لحقوقها البسيطة.

كذلك رجال الدين المسيحيون، يعلموننا منذ الصغر أن ننطوي على أنفسنا وأن المسلمين على باطل، ولكن من باب الإحسان للأعداء علينا التعايش معهم وأيضًا بدافع الخوف على العقيدة والثأر مِمن يغتصب المقدسات.

في بلدي مصر كنت أتعلم من جدي -حين يروي لي قصصًا وحكايات- أنه قديمًا لم يكن ليجرؤ أحد أن يسأل عن هوية الآخر الدينية، كانت أمورًا ليس لها اعتبار.. فما الذي غير بوصلة المجتمع نحو الطائفية والجاهلية؟ إن تبنِّي الطائفية لهو من شيم النفس التي ضاق بها المجتمع، قبل أن تضيق بغيرها من معتنقي الديانات، كل هؤلاء الحمقى يؤمنون بأنهم على صواب، يتقاتلون من أجل الله، يقتلون الأطفال من أجل الله، يغتصبون النساء من أجل الله، يسرقون من أجل الله، يتقربون بالدم والقتل إلى الله، ألم يفكر هؤلاء ولو لمرة أنهم قد يكونون على خطأ؟ إذن كيف يمكن للمرء أن يتقبل من يرى نفسه دومًا على صواب؟ لا يوجد عقل بشري يمكنه حتى التجاوب مع هذه الأمور. لو كان الإله موجودًا -كما يقولون- أيعقل أن يأمر الجميع بأن يتقاتلوا؟

ألم يقتل المسيحيون الإسبان الموريسكيين المسلمين ويشردوا أطفالهم ويغتصبوا نساءهم في مذابح وحشية قُتل وهُجر فيها قرابة ثلاثة ملايين من البشر؟ ألم يتقاتل الأرثوذكس والبروتستانت على اختلافات واهية في العقيدة في حروبٍ دمرت الأخضر واليابس؟ ألم يتجاوز رجال الدين المسيحيون بحق العلماء والعلم بما أفضى إلى التنكيل بهم وحرق كتبهم وأجسادهم؟ ألم يتجاوز المسلمون حينما استولوا على آيا صوفيا وحولوها لمسجدٍ واحتلوا أرض المسيحيين وشردوا نساءهم باسم الدين؟ ألم يهدم ويقتل الحاكم بأمر الله ويشرد النصارى ويقتل أولادهم ويهدم كنائسهم في كل مكان؟ ألم يغزُ المسلمون أرض مصر وينهبوا خيراتها من أجل إطعام دولتهم والقضاء على منافسيهم؟ ألم يحتلَّ المسلمون شمال إفريقيا والأندلس من يد أصحابها بعد معارك دموية؟ ألم تتقاتلْ طوائف المسلمين حتى هذه اللحظة من أجل اختلافات زائفة من أجل إرضاء الرب؟ ألم يقتل المسلمون حفيد من يقولون إنه نبيهم بأيديهم للاستيلاء على السلطة بغير وجه حق؟ ألم تنشأ أغلب الحركات الإرهابية المعاصرة من عباءة الفكر الديني للإسلام المتطرف؟ ألم يأتِ اليهود إلى الشرق الأوسط طمعًا في بناء دولتهم المزعومة على أرض مغتصبة من غيرهم؟ ألم يقتلْ اليهود الأطفال ويستبيحوا دماء الشيوخ والأرامل ويفرقوا بعنصرية فاضحة بين البشر للطمع في جنة الرب؟ ألم يستولِ اليهود على مقدسات المسلمين طمعًا في بناء دولة الرب الأبدية؟ ألم يقتلْ اليهود من المسلمين كل يوم مئات وآلافًا لأنهم يدافعون عن أوطانهم؟

إنها الحقيقة.. فوضى الأديان تعم العالم كله وخاصة تلك المنطقة الملعونة من العالم التي تسمى بالشرق الأوسط، هذه المنطقة رغم كل خيراتها وتراثها وأصولها.. فإن الجهل يستشري فيها إلى النخاع، فلا عجب -إذ عم الجهلُ العقولَ وخيَّمَ على

المنطق- أن ترى وجهًا مستنيرًا يخرج عن القاعدة.

ما كل هذا يا ماري؟ كل الذين خرجوا على قواعد الأديان تم التنكيل بهم وقتلهم وتكفيرهم، ما كل هذا الزَخْمِ يا ماري؟ عقلي سينفجر رأسي مليء بالهموم.. كل هذا من أجل خبر بائس على إحدى القنوات الفضائية! أكره الأديان كما أكره السياسة.. هما سواء، الدين والسياسة وجهان لعملة نهب عقول الناس والاستيلاء على ثرواتهم واغتصاب حياتهم. السياسة تنهب الجسد، الدين يقتل الروح والجسد، السياسة يستخدمها رجال الدين لأجل تغييب العقول والسيطرة عليها وتطويعها بمقابلٍ بخسٍ زهيدٍ وهو السماح لهم بسلطة زائفة على العقول.

والسياسات ما هي إلا لغة مزدوجة في التعامل مع المصالح، لا تضع قوانينها إلا المصالح والرغبات، وإذا كان الدين هو إحدى الأذرع التي تمكِّنُ السياسة من الحصول على المصلحة المنشودة فلا بأس بذلك، ورجال الدين مرتزقة.. لا يرون سوى أنفسهم وضلالاتهم، قَلَّ مَن حَسُنَتْ سريرته وسيرته، ودائمًا صلة ما وثيقة بين السياسة ورجل الدين، فرجل الدين يبحث عن السلطة في لونٍ آخر، وفي نظري أشد خطورة من السياسة، فهو يدافع عن قضيته لأنه من خلال تلك القضية ضمن لنفسه وجودًا وحياةً وسلطةً على من لا عقل لهم ولا إدراك، وهذا هو متبع الساسة، رجل الدين يحرك العامة والساسة يحركون رجل الدين وهكذا تدار الأمور في دول العالم السابع.. بهذه الطريقة المزرية.

وبعد فترة يتم التخلص من رجل الدين، ليبقى السياسي الحاكم المسيطر على كل الأمور، لا عيب على السياسي إذ إنه يؤمن بكون السياسة لا علاقة لها بالأخلاق، ولكن رجل الدين صاحب المقام الرفيع بين الناس.. كيف له ذلك؟

قاومت النعاس بكل السبل وساقتني نفسي إلى أن أتسلل خارج غرفتي، البيت هادئ والأضواء خافتة للغاية، شعرت بالخوف ولكن كلما أذكر لقاء ثابت تهدأ نفسي بشكل ملحوظ، أسرعت إذ شعرت بأقدام كريستين تقترب من باب الغرفة الموصود، ودخلت إلى غرفتي مرة أخرى ولكن هذه المرة في غرفتي حدث شيء غريب! أنصتُّ بأذنيَّ فإذا بصوتٍ قادمٍ من الشقة المجاورة لنا، صوتٍ يَسري مع صدى الليل الهادئ فأنصت بدقة، تبدو مشاجرة، إنها أصوات لرجلٍ يضاجع امرأة بكل حرارةٍ وقوةٍ، ولكن كما أعلم أن الشقة المجاورة لا يسكنها أحد، أغلقت باب الشرفة، وخلدت إلى فراشي، الساعة الآن الثالثة، لا أريد أن أعود إلى ضلالاتي القديمة، وأنا أمتطي وسادتي، أثارني صوت المرأة بدرجة شديدة، ولكن هذه المرة لا أريد أن أداعب نفسي، أو أمارس عادتي السرية، هذه المرة انتابني شعور بالحب ورغبة شديدة في أن أكون أنثى، ليس مجرد تفريغ لطاقتي الجنسية المكبوتة.

الجنس بلسم للجسد، ودواء للروح، ولكن بلا حب لم يعُدْ سوى نزواتٍ تفرغ بعض الشهوة، فالمرأة لا تستمتع بالجنس إلا إذا أحبت، فمهما بلغت المرأة من القوة، إلا أنها تريد سائقًا يقود أحلامها وقلبها وعقلها بإرادتها.

لذا فالجنس عند المرأة يختلف في طبيعته وفحواه عن الرجل، إذا تأملنا الرجل نجد بطبعه التعدد في كل شيء، في الرغبة والحب، فالرجل يمكنه أن يضاجع مائة امرأة، وأن يحب عشرات النساء، وقد يبدو بمنطقه صادقًا، لكن إن اصطدم بأنثى صادقة عرف قيمة المرأة المحبة.

قليل من الرجال من يعرف حقيقته، وكثير منهم يدعون الوفاء، وقد يكونون على درجة عالية من الصدق، فالوفاء بالنسبة إليهم في تعريفه يختلف اختلافًا

جذريًّا عن الوفاء لامرأة مخلصة.. فالغالبية العظمى من الرجال يفكرون في الجنس قبل الحب، ولكن المرأة لا تمارس الجنس إلا بحب وعاطفة.

انقطع الصوت الذي كان يأتي من الشقة المجاورة، يبدو أن الحبيبين أرهقتهما ممارسة الحب. تناولت أدويتي وخلدت إلى النوم، حتى صرت كمن أغشي عليه من فرط التعب والتفكير، مر ما يقرب من شهر.. والأمر يتكرر كل ليلة حتى صرت أتلافى تلك الأصوات، اليوم هو أول أيام العام الميلادي الجديد ولأولِ مرةٍ لا أذهب كي أحتفل برأس السنة، الجميع يحتفلون في الشوارع والبارات والملاهي الليلية.. لكن أود أن أخلد إلى النوم ولدي رغبة ملحة في ذلك، وبالفعل نمت ولكني في تلك الليلة حلمت بأشياء غريبة كان أبرزها أني رأيت نفسي أصعد جبلًا شاهقًا وثمة من يجري خلفي ويدفعني ذلك إلى صعود الجبل وبالفعل صعدته، وبعدما صعدت الجبل وجدت رجلًا يشبه ثابت ولكني بالكاد أستطيع تمييزه، فلم يكن هناك غيره، وكنت حينها عارية وأتصبب عرقاً، فأحضر لي منشفةً وغطاءً ثم غمرني بصدره، وقبل رأسي وتركني. استيقظت بعدها وأصررت على أن أرسل له رسالة كي أسأل عن أخباره.

أرسلت الرسالة قبل أن أذهب حتى إلى المرحاض كي أغسل وجهي، وبالفعل شرعت في الاستحمام وأخذت أغني كالأطفال، والماء الدافئ يتخلل كل جسدي، وأنا في أوج انتعاشٍ وحيويةٍ لا مثيل لها، انتهيت وخرجت لأرتدي سترة الاستحمام كي أمشط شعري وأضع عليه بعض الزيوت العطرة، ولكن وجدت الباب يطرق.. «ماري، مش هتروحي الشغل النهاردة؟ شكلهم هيرفدوكي من الشغل»، قالت أمي ثم ضحكت وقامت بإحضار الفطور وكوب الشاي بالحليب الطازج الدافئ كي أتناوله.

أطراف شعري ما تزال مبللة وأبدو مثيرة جدًّا كلما نظرت إلى نفسي، شعرت بأنني أنثى، كنت أفتقد تلك النظرات إلى نفسي ولكن هناك شيئًا يجب التنبه له.. ما هذه الحالة التي تنتابني؟ أهو حب حقيقي؟ أم شوق للحب؟ أم رغبة في المغامرة؟ الحلم الذي رأيته لا أجد له تفسيرًا إلى الآن، ولو كان حبًّا.. أمن المنطقي أن يبدل كل شعورٍ بالمخاوف إلى راحة؟ وماذا لو كان حبًّا حقيقيًّا صادقًا؟ فما ماهية ذلك الحب؟ وهل سأُومن بشيءٍ لا وجود له ولا يمكنني أن أراه أو أفسره؟ أخذت أهز رأسي وكأنني أنتفض، ولكني استطردت في حديثي مع نفسي الرهينة، أيمكن للمرء أن يؤمن بشيء لا يتحسسه سوى بقلبه فقط؟ ولو كان الجواب بالإقرار.. لتبدلت إذن أشياء كثيرة! الآن أبدو غبية أمام نفسي، ما الرابط بين الحب وبين ما تشير إليه نفسي؟

الحب واجهة إشراق لنفس مضطربة تتحسس الأمن والدفء في كل وقت دون إدراك أو منطق أو حتى إبصار.. ولكنها بصيرة قلبٍ رائٍ، والمنطق شيطان الحب المرابط لإفساده، الطاعن في أصله، والمحرض على تركه وجحوده، أينما انتصر المنطق دفن الحب على شاطئ الجحود ولكن يبقى السؤال.. ما ماهية الحب؟

لا أظن أحدًا من الناس سواء كان كاتبًا أو قارئًا، عالمًا أو أُمِّيًّا.. لديه القدرة على إجابة هذا السؤال.. قد نحب ولكن لا يعرف أي منا ماهية الحب، وعلى النقيض فهو حقيقة كالموت لا يقدر أحد أن يجحدها، أو يطعن في صحتها. إذن هل ممكن أن نشبّهَ الحب بالموت في حقيقته؟ أنا أرى أن الحب كالموت يصيب الجميع، لا يترك أحدًا، ولا يمكننا الهروب منه، غير أن الحب يدفع إلى الحياة، على ما يبدو.. هو نقيض الموت والجحود، الحب

ضوء لامع يصيب القلب المظلم حتى يرى ويبصر. وهو الحقيقة الواحدة الخالدة التي تنتصر على الموت، تعبر بها إلى شاطئ الفردوس الخالد والنعيم. حالة سحر تأسر القلب، بقيد النور والإشراق وحب الحياة. أبدو كشاعر أو فيلسوف عثر على غايته ومبتغاه، الآن قررت الخروج، ارتديت ملابسي وألقيت نظرة على هاتفي المحمول ولكن لم أجد ردًّا على رسالتي من ثابت، أحضرت حقيبتي، ووضعت بعض مساحيق التجميل على وجهي، وصففت شعري جيدًا، والكحل الأسود يغطي جفنيَّ والروج الأحمر على شفتيَّ. الجو بارد للغاية؛ إنه الأسبوع الأول من يناير للعام الجديد ألفين وأحد عشر، كم أتمنى أن يمر بسلام، كم كان العام الماضي سخيفًا وبائسًا. قررت أن أخرج كي أتجول لأشتري بعض الأشياء، أحب الشتاء والمطر ولكم أحببت أن أسير تحت زخات الأمطار!

استأذنت والدتي وخرجت وولكني لمحت شابًّا يخرج من الشقة المجاورة، أطرقتُ برأسي أرضًا، وهرولت على السلم دون انتظار المصعد، لأني تمالكت نفسي حتى لا يبدو عليَّ معرفة أو سماع شيء.

أخيرًا استقللت سيارتي.. ولكن لوهلة استحضرت ذاكرتي، ملامح الشاب لا تبدو غريبة.. هذا الوجه يبدو مألوفًا، اعتصرت رأسي ولكن دون فائدة، لدي يقين بأني رأيت ذلك الشاب من قبل، تخطيت بسيارتي ناصية الشارع الأمامي المقابل لبنايتنا السكنية لعلي ألحظ وجهه مرة أخرى لكنه على ما يبدو ما زال بالداخل أو خرج قبل مغادرتي.

أدرتُ الراديو وأغلقت نوافذ السيارة، واستمعت إلى موسيقا صاخبة لا أعرف من يعزفها ولكني أريد بشدة التحرر من تبعات الروتين، انطلقت بسرعة جنونية، إلى أن أوقفني ضابط شرطة يطلب أن أظهر رخصة القيادة، وقد حرر لي

مخالفة، لم أحزن للمخالفة فأنا مخطئة ولكني وجدت الضابط ينصرف ثم أتى أحد أفراد الشرطة -يبدو برتبة أقل من الضابط- يطلب مبلغًا من المال مقابل عدم احتساب المخالفة وسحب رخصة القيادة. هذا هو الحال المزري الذي انحدرت له البلاد، كل شيء يدار في مصر بالرشوة، وقبل كل شيء انعدم ضمير أهل هذا البلد. تركت رخصتي له وانصرفت وأخذت الإيصال وانطلقت، وصرت أومئ برأسي يمينًا ويسارًا، وأنا أذكر قصة تبدو طريفة، بأني كنت أرفض توصيات أبي بالجامعة على الرغم من أن ذلك يبدو واقعًا بين كل أصدقائي. لا عجب فقد فسدت طباع الناس واستشرى الفقر بين غالبيتهم، والأعجب من ذلك كله أنه فوضى وفساد اتفق عليه الجميع فصار لا يُجَرَّم، وإن خالفتَ ذلك قد يسخر منك الجميع، الموظف صار يبرر سرقته ورشوته براتبه القليل، والضابط يفعل ذلك أيضًا، وأيضًا الطبيب والمريض والعالِم وغير العالِم، مستنقع فساد تسبح فيه الرذائل، وينعدم فيه الضمير، وانتحرت بأرضه الفضائل.

أذكر صديقتي إسراء.. كانت الخامسة في ترتيبها على الدُّفعة بالجامعة، ولكن لم يتم تعيينها إذ ليس لديها واسطة أو شخص مرموق تُخشى أنيابه، والآن هي طبيبة بإحدى الوحدات الصحية كغيرها من الأطباء، وعلى كل الأصعدة لا يوجد ما يدعو للدهشة في هذا الوطن الهش المتآكل، الذي نهشته حمى الفساد.

أخيرًا وَقَفْتُ سيارتي بجوار أحد النوادي الشهيرة بالقاهرة، وفيما أنا أنظر وجدت سورًا كبيرًا يحيط بالنادي، خارج السور رجل ينام على الرصيف لا يجد قوت يومه، ويرقد بجانب سيارات فارهة أصحابها يرتادون النادي، حقًّا إنها النكبة الكبرى، هؤلاء المساكين لا يعلمون أن أحلامهم سُرقت بأيدي أصحاب المال والباحثين عن السلطة والنفوذ. أهذا هو العدل الذي نطمح إليه؟ لا عدل إذن

في بلدٍ فقيرٍ يحكمه الجهل والقوة ويقوده المرض. أوقفتها في مكانٍ عامٍ تصطفُّ فيه السيارات، باغتني رجل كالبغل.. يطلب مبلغًا من المال مقابل إيداعي السيارة، ورغم أنها ملكية عامة.. هذا السارق لا ينهره أحد، بل توفر له سلطات الأمن الحماية مقابل المال.

حقًّا إن فسد الضمير.. فكل شيء يمكن شراؤه حتى النفوس والأولاد والأوطان، هذا هو بلدي مصر أرض الكنانة، ومقبرة الأخلاق والفضائل.

لا أملك إلا أن أعطي هذا البغل مبلغًا من المال كي أتّقي شر إيذائه لي ولسيارتي. حملت مفكرتي وترجلت حتى أقوم بشراء بعض الأغراض الخاصة بي.

استدرت لليمين حتى أعبر الطريق وإذا بانفجارٍ هائلٍ يزلزل الأرض من تحتي، ظننته في البداية زلزالًا مدمرًا ولكن لم ألبث أن رأيت صراخًا وعويلًا ينبعث من داخل كنيسة الأرثوذكس بمنطقة الدقي فاقشعر جلدي، وبكيت بشكلٍ هيستيري والأطفال يصرخون والمارة يسرعون جميعهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأحياء، الجميع يسرع إلى مكان الانفجار، كلهم يهرولون إلى مكان الانفجار الهائل بالكنيسة.

ويحضرني مشهد مؤثر، وبالأخص شاب ذو لحية كثة حليق الشارب، تبدو عليه علامات التدين والأصولية، حمل وعاءً من الماء وذهب لينقذ الجرحى والمصابين. تعجبت وظننت في البداية أنه أحد مرتكبي الحادث إذ يبدو إرهابيًّا متعمدًا.. فلطالما يشبه تلك الأحداث المفجعة الأليمة. الشاب يتصبب عرقًا وصاح في وجهي بصوت غليظ «يلا اعملي حاجة، واقفة ليه؟ ساعدينا». نظرت إليه ثم شرعت في مساندة ومساعدة كل من بالكنيسة واستطعنا أن ننقذ ما يقرب من

عشرين طفلًا وجمعًا وافرًا من النساء والكهنة.

تعرفت عليه.. كان يدعى عمر واصف، لا أنسى وقع الاسم أبدًا، وكأن القدر يريد أن يُذهب عن عيني غشاوة قرابة عقدين من الزمان، وشرعت أتساءل لماذا أسرع الجميع لإنقاذ الكنيسة؟ لماذا أسرع الفاسد والظالم والمتشدد والعالِم والأُمّي؟ أليست كل هذه الفئات فاسدة وهذا المجتمع رجعي التفكير؟

لحظة تدبر، بلدي يحيّر الفكر ويُذهب العقل.. يبدو أن أبناء هذا البلد ما زال معدنهم طيّبًا لم يكتسب سواد تلك البيئة، وأن ما يصيب هذا المجتمع هو أمر طارئ وحالة عارضة من السقوط والوهن. تراجعت عن كوني ظاهرية في حكمي بعض الشيء على الأشياء التي يبدو -من منظورٍ واحدٍ لديَّ- أنني على درايةٍ بها ولكن كيف! ولديَّ حكم مسبق على متهم لم أرد أن أستمع أو أنصت ذات يوم لحجته، الشاهد في الحكاية أن طريقة الحكم على الأشياء تستوجب خبرات قائمة على تجاربَ ودلائلَ ومشاهداتٍ محسوسةٍ وملموسةٍ، كي تلتزم آداب الحياد والنزاهة في الحكم، ليس مجرد رؤى أحادية تحكمها العاطفة. كل يوم يمر عليك لا بد أن تتعلم، ولكن لن تتعلم دون تساؤل، ولن يكون هناك تساؤل بلا ألم وضريبة، ولكن كل خطوة تخطوها قدمك سيكون ثمة ثمن عليك دفعه وتحمل تبعاته. كنت متعبة للغاية ولكن عندما شاركت في إنقاذ أرواح بعض البشر زال التعب، وكأنني أستطيع حمل جبلين فوق كتفي. عدت إلى سيارتي، ولم أشترِ أغراضي فالوقت تأخر جدًّا، الجو شديد البرودة، أبدو مرهقة بعض الشيء.

انطلقت بسيارتي ولكن غلبني النوم، وَقَفْتُ السيارة بجوار أحد المقاهي لأحضر شرابًا كي يساعدني على مواصلة القيادة، ترجلت وفيما أنظر بعيني ناحية المقهى

وجدت الشاب الذي رأيته يخرج من الشقة المجاورة لنا في البناية. تعجبت، وهنا تذكرت، نظرت في عينيه، اضطرب وانصرف من أمامي، ثم انصرف مسرعًا من المقهى بأكمله.

هممت مسرعة وراءه، ولكن لم أستطع اقتفاء آثاره، تعجبت وتسللت الريبة إلى قلبي، وكأن حجرًا ثقيلًا على صدري، الآن تسارعت نبضات قلبي، صرت متوترة للغاية. ما سر هذا الشاب؟ عيناه تبدوان مألوفتين، فأنا متيقنة أني قد رأيته من قبل.

قدت سيارتي في محاولة لتهدئة نفسي، فتحت كل نوافذ السيارة حتى يتخلل الهواء كل طيات جسدي وروحي، الهواء شديد البرودة، وفيما أنا ذاهبة إلى المنزل، القاهرة مزدحمة كالعادة ولكن اليوم الطريق به تعثر مروري شديد على الرغم من أنه عطلة رسمية احتفالًا بعيد ميلاد المسيح كما أقرته الكنيسة الشرقية موافقًا السابع من يناير من كل عام.

لا أدري ما سر هذا الازدحام المروري الشديد، ظننت في البداية أن إحدى الشخصيات الهامة ستمر من خلال الطريق، فالأمر معتاد في مصر، إذا مر أحد الساسة المهمين أو الوزراء يتم إيقاف البلد بأجمعها حتى يمر سيادته بسلام، كطبيعة أي بلدٍ متخلفٍ لا زال ينافس على القاع بجدارة.

أخيرًا استطعت أن أصل إلى المنزل بعد تحرك الطريق، المصعد معطل، ترجلت حتى أصعد السلم الطويل. وجدت سلمى (بنت عم أحمد بائع الحلوى) تسرع باكية في طريقها إلى الطابق الأرضي، حاولت محادثتها لكنها لم ترني حتى أمامها، وفيما أصعد درجات السلم وجدت والدة سلمى في الشقة المجاورة لنا وصوتها

مرتفع للغاية، وهي تتعدى على الشاب الذي يقطنها، كيف استطاع أن يصل بهذه السرعة؟ الجيران تجمعوا والصوت مرتفع والوقت متأخر، إنها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. والسيدة تنهال بالضربة تلو الأخرى بحذائها، والشاب لا يرد ووجهه لا ينظر لأعلى حتى لا يرى كل هذه الجماهير. إلى أن تدخل أحد الجيران لتهدئة الموقف، فلا أحد يعرف ماذا جرى ولكن يبدو الحادث كبيرًا، آثارني الفضول وخاصة بعد ما رأيت من السيدة ما رأيت، لم يحزنني ما جرى للشاب، فهو يبدو مريبًا بعض الشيء.

اصطحبت السيدة والدة سلمى إلى شقتنا وأحضرت لها عصير الليمون كي تهدأ وهي تواصل البكاء، تبدو منهارة وهي تقول قولًا واحدًا «لازم أقتله يا دكتورة»، حاولت تهدئتها «إهدي يا أم سلمى».. ردت السيدة في حسرة وعيناها تبكيان «انتي مش عارفة حاجة خالص يا دكتورة». قاطعت والدتي الجلسة وهي تحاول تخبئة شيء ما عني، أرى ذلك في عينيها، أطلت الحديث مع السيدة -تدعى نادية ولم أعلم باسمها من قبل- وبعد أن تناولت الليمون هدأت بعض الشيء، ثم تحدثت بنبرة حزن.. «يا دكتورة البنت حامل».

ذهلت مما قالته وظننت في بادئ الأمر أن خطيبها يعاشرها وحملت منه، ولكن سكتُّ لوهلة وتركتها تكمل حديثها. «حامل من الكلب ده».. أجبتها في استنكار «خلاص يتجوزها، انتي زعلانة ليه؟ اللي اتكسر يتصلح». تغيرت ملامح السيدة، وتوقدت النار في عيونها وكأنها تريد قتلي ثم صاحت:

- إزاي يا دكتورة؟

ثم أخذت تضرب بيديها على وجهها وحدثتني بلهجة فيها ازدراء شديد:

ما انتوا زي بعض لازم تدافعي عنه وتبقي في صفه.

لم أكن أعلم ما تود قوله وما تقصده ولكني غضبت من لهجتها، أحاول تهدئتها وهي تنظر إليَّ هكذا! ولكني تمالكت نفسي والتمست لها عذرًا ثم قلت:

- انتي محتاجة ترتاحي شوية يا أم سلمى.

- يا دكتورة هو مسيحي وهي مسلمة وبتنام معاه من ست شهور!

تذكرت حينها تلك الأصوات التي كانت تأتي من الشقة المجاورة. تابعت المرأة قولها:

- لو أهلها عرفوا! دول صعايدة هيقتلوني وهيقتلوها وهتبقى مدبحة.

حينئذٍ لم أستطع التفوه بكلمة واحدة، فلم أكن أعلم أن ذلك الشاب مسيحي من الأساس، ولكن المرأة بداخلها هي الأخرى حقد دفين موروث تجاه كل ما هو مسيحي.. لأن ذلك إرث قديم ورثه كل أبناء هذا الجيل. وكأن المشكلة ليست أن ابنتها أخطأت، ولكن المشكلة هي أن من عاشرها مسيحي، حتى في أدق الأمور أيضًا، وفي أكثر الأمور تفاهة، تطفو الطائفية إلى أعلى نفوس كل هذا المجتمع.

انصرفت السيدة نادية والساعة قاربت الثالثة صباحًا وعيناي تؤلماني.. فقد كان يومًا طويلًا حافلًا بالأحداث.

طرقت أمي الباب بلطف:

- عاوزة أتكلم معاكِي يا ماري.

أسرعت لأفتح الباب..

اتفضلي يا ماما.

- أمي باكيةً أمامي:

- ليه محضرتيش قداس عيد الميلاد المجيد ولو على سبيل المجاملة يا ماري؟

سكتُ في بادئ الأمر ولم أكن أريد الجواب، ولكن حتى لا تحزن أمي قلت لها:

- اليوم كان طويل جدًّا، بس إيه الجديد؟ بقالي كتير مش باحضر العيد.. حوالي خمس سنين.

ما زالت عينا أمي مليئتان بالدموع، لم أتمالك نفسي وعانقتها بشدة:

- أنا خايفة يا ماما، خايفة من كل حاجة، خايفة من الكنيسة مش طايقة أشوف أي راجل دين مش قادرة أفهم، مبقتش زي ما أنا يا ماما.

ضمتني بين ذراعيها وقالت:

- خايفة عليكي من الدنيا يا ماري.

ثم أخبرتني أن أبدل ملابسي لأخلد للنوم ولتتحدث معي غدًا.

جلست على فراشي وأنا أتذكر أعياد الميلاد السابقة حينما كنت طفلة صغيرة، تذهب للعيد ليلة السابع من يناير، وكل العائلة يرتدون أحلى الثياب ويتبادلون الهدايا ويتناولون عشاء الميلاد واللون الأخضر والأحمر يزينان منزلنا الصغير، شجرة عيد الميلاد دائمًا ما كنت أنظر إليها على أنها الشجرة السرمدية التي تأخذ روحي للخلود، شجرة اللبلاب تلك التي ترمز ثمارها الحمراء لدم يسوع وإبرها

إلى تاج الشوك الذي ارتداه عند الصلب، كنت ألعب أنا وكريستين وجارنا مايكل في البناية القديمة، ثم ألهث حتى أتناول بعض الطعام لأكمل اللعب، ثم تأتي لتأخذني أمي إلى داخل الكنيسة، وموسيقا وتراتيل الميلاد ألحان جميلة ما زال صداها يرن بأذني، قصائد ملحنة جميلة، والكل يغني بفرح حينما يتناول حلوى عيد الميلاد. شردت بذهني، فالذكرى شعور عالق بالنفس لا ينتهي بانتهاء الحدث بل تظل كالعطر الذي كلما مرت عليه السنوات ازداد رونقًا وعبقًا. ما أجمل أن يظلَّ المرء طفلًا! لكن لماذا؟

طرحت هذا السؤال على نفسي.. الطفل ذو حظ وافر لا يفكر إلا في ما يُصَبُّ في رأسه، ترتبط الذكرى بأنها العيد، ولكن حينما تكبر تسأل نفسك، وماذا لو كان المسيح لم يولد في هذا اليوم؟ ثم تتتالى الأسئلة، لماذا عليَّ حتى أن أحتفل بميلاد المسيح الذي لا أراه حتى مقدسًا؟ حتى تفقد كل معاني الجمال وشعور الراحة الذي كان ينتابك في طفولتك.

أرق شديد ينتابني ويوم لا ينتهي، وعلى ما يبدو سأفقد وظيفتي نظرًا لتكراري الغياب دون إذن، فكرة واحدة تسيطر على رأسي.. هي أين ذهب ثابت؟ لم يعد يرسل لي حتى رسالةً نصيةً.

استيقظت وأنا لم أغير ملابسي.. يبدو أن النوم قد غلبني، الساعة السابعة صباحًا، أسرعت حتى أرتدي ملابس أخرى لألحق بالعمل، بالفعل اتجهت مسرعة وقدت سيارتي إلى مكان العمل وهو الوحدة الصحية بمنطقة إمبابة، حيث الزخم الشعبي.

منطقة إمبابة هي محل عملي، منطقة شعبية للغاية تجمع كل أطياف البشر،

الجيد وغير ذلك، المهذب وقاطع الطرق والسارق والبلطجي، يا الله! إنه من المؤسف بدء اليوم بهذا الشكل، المركز يبدو مزدحمًا للغاية.. يبدو أنها حملة تطعيم الأطفال، سجلت حضوري ثم مضيت إلى مقر عيادتي بالمركز، وذهبت إلى الدكتورة نور الوجه المضيء في عتمة هذا المكان، تعانقنا بشدة، أشعر براحة كلما اقتربت منها، تفاجأت من نظرتي ليمناها ووجدت خاتمًا يشير إلى خطبة، فرحت جدًّا وتهللت أساريري ثم عانقتها ثانيةً.

- ألف مبروك دكتورة نور.

احمرَّ وجهها ضاحكة:

- الله يبارك فيكي يا ماري.

- إزاي وإمتى؟ قوليلي بسرعة، مش مصدقة!

ساقتني الدكتورة نور إلى عيادتها ثم أخبرتني بأنها بمجرد أن تنتهي طوابير المرضى ستخبرني بكل شيء وبالتفصيل.

انتهى وقت العيادة وبالحديث مع الدكتورة نور تبين أنها قد تمت خطبتها لحب عمرها الذي كانت تحلم به منذ كانت طالبة، والذي قد تقدم لخطبتها في بداية حياته كأغلب شباب هذا البلد، كان طبيبًا شابًّا حالمًا، ولكنه كان فقيرًا للغاية، وقد رفضته عائلتها حتى دون إبداء السبب، يكفي كونك فقيرًا في هذا البلد كي تتجرد من أحلامك وآدميتك ووجودك كإنسانٍ له حق الحياة.

جدَّ هذا الشاب في مهنته حتى صار من أشهر وأكبر أطباء جراحة الكبد في العالم، وهو الآن يقيم في الولايات المتحدة ويعمل بأحد أكبر المستشفيات، ولم يتزوج حتى عاد إلى مصر وفوجئ بأن حب عمره ما تزال دون زواج إلى الآن، لم

يكن يعلم عنها أي شيء، هي تقول إنه كان بمثابة روحها وكلَّ شيء، قاطعها أبوها حتى مات، وأمها الآن قعيدة وتعاني الشيخوخة، الآن تمت خطبتها وسيتزوجان بعد شهرٍ من الآن، ما هذا الجمال والصدق! الحب حقًّا لا يموت، والقلوب لا تعيا ولا تشيخ.. فالقلب كالورقة الخضراء اليانعة إذا مسها ولو قدرٌ بسيط من حبٍ صادق نضرت، تلك النماذج لا تتكرر كثيرًا في مجتمعاتنا ولا في أغلب العالم، نعم التقيا بعد عمرٍ طويلٍ ، حققا حلمهما، فاليومُ مع من نحب يساوي عمرًا جديدًا بالكامل، هما في الخمسينيات من العمر ولكنهما التقيا أخيرًا، فلا أستطيع أن أصف ما تشعر به الدكتورة نور إلا أن ملامح وجهها تغيرت، شعرت كأنها طفلة وليدة تسبح في إناء المحبة والدفء، كأنَّ ذلك الرجل كالكساء والمأوى لها من غضبة الزمن.. الزمن الذي طالما بخل عليها.

استأذنتني الدكتورة نور حتى تنصرف إذ تستعد لمراسم الزفاف، وقدمت إليَّ دعوة لحضور الزفاف، تغير مزاجي وصرت أحدث نفسي كالمجنونة، أيمكن أن يمر العمر بلا جدوى؟! أيمكن أن أعبر الزمن دون حبيب؟ أم أسلم نفسي لأي ذكر يأتي لخطبتي كأنني بهيمة يأتي تاجر لشرائها إذا كان يملك المال؟! يا لبشاعة الموقف، لا يمكن أن يحدث لي هذا.. لا يمكن.. لا يمكن!

انتهى وقت العمل وسلمت على مديري على مضض واستأذنت، ولكني قررت أن أترجل على قدميَّ دون سيارة حتى أتعرف جيدًا على معالم المكان الذي أعمل فيه، والذي بجواره ورشة لتصليح السيارات مكتوب أعلاها «ميمون وولده»، وبها جمع من الأطفال الذين باعهم آباؤهم، وجرّدوهم من طفولتِهم حتى يذهبوا للعمل في تلك السن المبكرة، على الجانب المقابل إحدى عربات بيع الأطعمة يقودها أحد البسطاء.. لا يدري أنها تنقل السمَّ والمرض للملايين من فقراء هذا

البلد، كَسَمْتِ أي بلد فقير لا يوجد مكان تأمن على نفسك فيه المرض، وخاصة محلات بيع الطعام التي لا تخضع لأي رقابة أو مساءلة من الدولة على طبيعة ما تقوم به رغم أنه من أخطر الأشياء التي تواجه هذا المجتمع، إنها مشكلة خطيرة لم ينتبه لها أحد، تجار الغذاء الفاسد الساعون إلى الربح السريع والتجارة المربحة يتاجرون في كل شيء حتى البشر؛ إن أمكن يبيعون حتى الموت للفقراء الذين ليس أمامهم سوى تناول تلك السموم وإلا جاعوا وفرغت أمعاؤهم.

الشوارع مليئة بالحجارة والتكسير المتعمد، وكأني في بلدٍ ليس على الخريطة الآدمية، ولا حتى على المستوى الأدنى من رعاية الحيوان. الحقيقة دومًا موجعة، الساعة الآن الثانية ظهرًا وقت خروج الطلبة من المدارس والجامعات، تكدُّس غير معهود، مشاجرات بين الطلبة بالأسلحة البيضاء على أبواب المدرسة، ضاعت هيبة المعلم في بيئةٍ فاسدةٍ لا توفر أدنى مستوى من التوقير والاحترام للمعلم وقيمته، وحين ضاع المعلم ضاع التعليم.. فضاع الوطن. هم لا يعرفون أن التعليم البداية والمنتهى بعد فوات الأوان، يقول الروائي إسحاق عظيموف.. «المدرسة هي الوكالة الإعلانية التي تقنعك بأنك في حاجة إلى المجتمع كما هو، إنها تجعلك تعتقد أن للحياة سرًّا لا يعرفه إلا هؤلاء المدرسون ولا يمكنك معرفته إلا من خلالهم، ولن تكتسب منزلةً أعلى في المجتمع من دون هذه الوسيلة»، ويقول أوسكار وايلد «كثير من الناس يركزون على المال، وليس على الثروة الحقيقية التي هي التعليم، وإذا كان الناس على استعدادٍ ليصبحوا أكثر مرونةً وانفتاحًا على التعليم، فسوف يصبحون أغنى وأغنى، أما إذا كانوا يعتقدون أن المال سيحل مشكلاتهم، فأخشى أنهم سيجدون الطريق وعرًا للغاية، الذكاء يحلُّ المشكلات ويجلب لك المال، والمال دون ذكاءٍ هو مال سيضيع هباءً بسرعةٍ كبيرة».

عرفت أوروبا قيمة العلم والتعلم، فصارت منبرًا للحضارة والرقي في كل مجالات الحياة، عرفوا قيمة العلم، فعرفوا قيمة الإنسان والحضارة.

العلم هو بوابة الأمل، النور الذي يعبر بك نحو مستقبلٍ أفضل وحياةٍ مثلى.

الدول العربية أهملت العلم والتعليم، فصاروا في قاع الأمم وفقدوا زعامتهم وانهارت حضارتهم القوية على أعتاب التخلف والفقر والمرض والجهل.

السوق أمامي الآن، ملامح كل من بالسوق تبدو مثقلة بأعباء الحياة، الكل يبحث عن أرخص السلع، وهذا الاختراع الجديد الذي يسمى بالتوكتوك قد تسبب في عزوف الكثير من أصحاب الحرف للعمل عليه، فهو وسيلة للكسب السريع الذي لا يتطلب جهدًا ولا تعبًا، ناهيك بإساءة استخدام سائقيه إذ إنه وسيلة غير مرخصة ولا تخضع لأي رقابة.

رأسي لا يتوقف عن التفكير في ما يجري، لا أدري أين أنا الآن ولكن أيقنت الآن أني على مقربة من شاطئ النيل المقابل، يبدو أنني قد مشيت كثيرًا ولم أشعر بالوقت ولكني ركبت (المعديَّة) مع البسطاء.. قارب صغير يعبر للضفة الأخرى من النيل، إنها جزيرة الزمالك والتي كانت تسمى قديمًا «جزيرة النباتات» إبان حكم الخديوي إسماعيل، كان بها أندر وأجمل نباتات العالم وبها برج القاهرة الشهير.

وجه آخر مغاير رغم أننا في نفس الوطن، رمز للرقي ومسكن لذوي النفوذ والأموال والشهرة.. هي جزيرة رائعة وسط النيل، ذات بنايات قديمة في غاية الجمال والبساطة، بها عدد وافر من سفارات الدول ويقطنها العديد من الجنسيات الغربية، هواء نظيف، بيئة متباينة وكأن المال في بلدي يغير حتى من طبائع

الناس وتربيتهم ويؤثر في نشأتهم وأخلاقهم بل ويرسم لهم طريقًا مغايرًا.

فاصل صغير يفصل بين منطقتين في وطنٍ واحدٍ والسر هو المال، المال وحده، «قصة وطنٍ بائسٍ». ما إن ترى طبيعة الناس في هذا المكان.. حتى تبكي لكل تلك الخيبات، رغم أن الماء يحتضن ضفتي النيل بلا تمييزٍ.. يبقى صوت المال أقوى، واصلت السير والهواء البارد يلسع أذنيَّ، ويداي وساقاي باردتان جدًّا، بحثتُ عن تاكسي حتى يقلني إلى مكان سيارتي لأعود إلى منزلي، عدت إلى سيارتي. في منزلي سلمت على والدة سلمى ولكنها لم ترد عليَّ السلام ووجدت شابة تغطي وجهها ورأسها حتى أسفل ساقيها وإذا بها سلمى، لم أعرفها في البداية لكنها سلمت عليَّ، نظرت إليها بتعجبٍ شديدٍ.

في باديء الأمر تضايقت جدًّا بمجرد النظر إليها، ولكن تعجبت كثيرًا من هذا الرداء الذي يظهر المرأة كأنها كيس متنقل بلا هوية أو كرامة، كل ذلك مراعاة حتى لا تتسبب في إثارة رجل شهواني، وتُتهم بأنها الشيطان حتى تراعي هياج الرجال الذين يشبهون الخنازير في كل مكان بنظراتهم الجائعة القاتلة، إما أن تصير كالزكيبة، وإما أن تُتَّهم بالفسوق والفجر لمجرد أنها تبدو بمظهر لائق، حتى إن وضعت عطرًا ما بحكم طبيعتها وحبها للجمال والطفولة، يتهمونها بالشيطنة والزندقة.

أغلقت باب شقتنا وما زلت أفكر إلى الآن، ولكن أبي فاجأني بعناقه لي «وحشتيني يا ماري»، أجبته وأنا شاردة بعض الشيء «إنت أكتر يا نبيل، صحتك عاملة إيه دلوقتي؟»، نظر أبي إليَّ وعيناه تعاتباني ولكن لم يقل شيئًا غير «الحمد لله نشكر ربنا، كنا منتظرينك يوم العيد في الكنيسة». لم أعرف كيف أرد، ولكني أجبت بتردد بعض الشيء ثم قلت «تتعوض العيد

اللي جاي». لم يدعني أبي أذهب ثم جذبني إليه برقة شديدة قائلًا.. «كبرتي يا ماري وبقيتي عروسة ونفسى أفرح بيكي وبعدها أموت، نفسي أطمن عليكم». أعرف ما وراء هذه الكلمات.. إما شكوى من أمي وإما زبون جديد، ولكني قلت «ربنا يخليك لينا يا بابا، بس النصيب ماجاش، مش انت كنت بتقول ما تتجوزيش حد إلا لما تكوني مرتاحة وتحبيه؟». بعدها انفرجت أساريره ثم استأذنته كي أعود لغرفتي.

رافقني سمسم وكأنه يلومني لعدم اهتمامي به تلك الفترة السابقة، فالكلاب تفهم وتعي كثيرًا، وقد تفوق بعض البشر لوفائها. تفحصت هاتفي المحمول ومواقع التواصل الاجتماعي، إشعارات كثيرة فلم أكن أتصفحه منذ فترة، ولكن أبرز الإشعارات هي الدعوة للتظاهرات للمطالبة بإقالة وزير الداخلية المصري والمطالبة بتغيير الحكومة.

في بداية الأمر اطمأننت أن ثابت ما يزال بخير، وأنه آمن الآن، شعرت بارتياحٍ شديدٍ بعدها، ثم أثار إعجابي شجاعة كل المنضمين إلى الصفحة وعددهم لا يتجاوز المئتين، وما دار في رأسي.. هل يستطيع هؤلاء فرض مطلبهم على أعتى وأكثر نظام متجبر في تاريخ الدولة المصرية؟ وزير داخلية لا يقهر، دولة بوليسية محكمة بقبضة حديدية من نظام أمني لا يجيد سوى الاعتقال والتعذيب لمن تسول له نفسه حتى التفكير في السياسة، جواسيس بكل مكان لدرجة أنك لا تأمن صديقًا لك بالعمل على أمرٍ إلا إذا كنت تعرفه حق المعرفة.

الفساد استشرى والنظام يتجبر ويتجبر، الضرائب في زيادة، والخدمات متدنية، والحرية مقيدة، والجهل يستمر، والأمراض والأوبئة تقتل الفقراء، وتنكل بهم.. لدرجة أنك قد تموت في مصر داخل مستشفى لعدم توافر أحد الأدوية البسيطة

لمجرد أنك لا تملك المال.

قرأت ما يكتب الشباب، وتحمست بشدة لتلك الشجاعة الوليدة والرغبة في كسر القيود، وتحدي الخوف الذي دام قرابة الخمسين عامًا. أعمارهم متفاوتة بين العشرين والثلاثين، زهورٌ متفتحةٌ وطيورٌ محلقةٌ نحو المستقبل بثقةٍ وثباتٍ، قرر الجميع تسمية الصفحة باسم أحد ضحايا تعذيب النظام، وهو شاب قامت قوات النظام باعتقاله وقتله لمجرد تصويره لأحد الضباط وهو يعذب أحد السجناء في أقسام الشرطة، ومن ثَمَّ تم التنكيل به ولقي الشاب حتفه، ولم يكتفوا بذلك فحسب، بل قاموا بإلقائه كأنه قطعة من القمامة أمام بيته فجرًا لتفجع أمه المريضة، فلا عجب.. لا وزن ولا قيمة لإنسان في هذا البلد لا يملك النفوذ والسلطة.

كانت الأخبار تتناقل من تونس عن انتصار الثورة التونسية هناك وهروب الرئيس التونسي إلى المملكة السعودية، مما أعطى دفعة للشباب الراغبين في التغيير، وكانت المطالب إقالة وزير الداخلية وتغيير الحكومة.

اتفق الشباب على أن يكون يوم التجمع يوم الثلاثاء الموافق الخامس والعشرين من يناير إذ إنه يوم إجازة رسمية للاحتفال بعيد الشرطة المصرية، ثابت كان يتزعم الشباب بكتاباته العقلانية، والتي تحث على التغيير والرغبة في إثبات الذات والتحدي.

الصفحة تشهد إقبالًا كثيفًا ولاقت إعجاب الكثير من الشباب، تسير بسرعة البرق المدوي، الآن أصبح عدد المعجبين بها نحو عشرة آلاف في ساعتين، ما هذا السيل؟ إقبال غير مسبوق! مشاركات فعالة وكتابات مستمرة، قررت حينها أن أراسل ثابت؛ أرسلت له رسالة «أنا فخورة يا ثابت بهذا العمل إن طبق

على أرض الواقع». لدرجة أني نسيت حتى أن ألقي عليه السلام أو اطمئن على أحواله وكأنني عندما طمأنت نفسي نسيت سؤاله.

- ماري! أهلًا أهلًا.

- أخبارك يا ثابت؟ أنا شوفت الصفحة واللي بتكتبوه وعاوزة أكون معاكم.

- ماري ده احنا نتمنى كل المصريين يكونوا معانا، أدينا بنحلم.. نفسي تبقى مصر أرقى وأجمل بلد في الدنيا، بنحلم نشوف تعليم محترم ونظام صحي يضمن لنا حياتنا، يكون للفقير مكان هنا، بأن أولادنا ينتموا لبلدهم ويعرفوا قيمتها بجد. يا ماري البلد دي عظيمة جدًّا، تخيليها من غير فساد ولا رشوة، بلد حرة، فيها الحرية زي الأكل والشرب، تخيلي يا ماري ان مصر ترجع للحضارة والتاريخ.

قاطعتُ ثابت وقلبي كله فخر وسعادة:

- مش باين عليك إنك ثورجي، تصدق إني كنت مفكراك أصولي!

أظهر ثابت تعجبًا وضحك، سألته:

- بتضحك على إيه؟

- أصل كنت كده فعلًا في يوم من الأيام.

- إزاي يعني؟ انت دماغك وتفكيرك مختلف عنهم تمامًا.

ما زال ثابت يتابع الكتابة:

- حتى لو هما كده لا تطلقي أحكامًا بلا شواهد ودلائل يا ماري. نصيحة من القلب، مش كل حاجة زي ما بتظهر، فيهم الكويس وغيره، أنا أكثر واحد تضررت منهم ولكن ده مأثرش عليا وأنا باحكم عليهم، حياتي كانت على وشك الانهيار بسبب ضلالاتهم، ولكني أهو واقف على رجلي.

- تسمح لي أسألك عن اسم والدك؟

- ليه؟ هتبلغي عني الحكومة؟

ضحكت بشدة:

- لا بجد عاوزة أعرف اسمه.

- اسمه عبد العزيز مدكور.

- أكيد فخور إنه عنده ابن زيك.

- والدي رجل بسيط للغاية، من عائلة لها أصل كبير، بلدنا بقرية السواعد بدلتا مصر الجميلة، محافظة الشرقية، بيشتغل في التجارة والمقاولات وقبل كده كان موظف بشركة المياه والري وطلع معاش.

- ابن بلد يعني.

- أتمنَّى أكون كده بس أنا سبت البلد من فترة طويلة، ولغاية دلوقتي مقيم في القاهرة.

- هو صحيح انت بتشتغل فين دلوقتي؟

- باشتغل في مستشفى الشمس الخاص، طبيب نفسي وليا عيادة في

السيدة زينب واستقلت من العمل بالحكومة.

- معقولة انت اتخصصت نفسية؟! تعرف إنك عبارة عن تشكيلة غريبة من حاجات عكس بعض؟!

حاولت تغيير وجهة الحديث فأنا أبدو كمحققة شرطة، الأمر بدا سخيفًا للغاية!

- الأهم دلوقتي هو انتو فعلًا هتعملوا إيه يوم التلات؟

- مش هتصدقي إن معندناش خطة نعمل إيه لغاية دلوقتي! حتى ما اتجمعناش، واحنا عارفين إننا تحت عيون الأمن وأكيد بعد اللي حصل النهاردة على الصفحة هيسجنونا كلنا.

- تفاءل يا عم «ومن يتهيَّب صعود الجبال، يعش أبَدَ الدهر بين الحفرْ».

- الأبيات دي بتغير مزاجي.

- بالمناسبة عرفت إنك كاتب وشاعر.

- لا شاعر ولا حاجة يا ماري.. كل واحد مننا ممكن يبقى شاعر لو شاف الناس بعينين طيبة.

- إيه العمق ده كله؟! بالراحة عليا.

أبذل كل محاولاتي كي أتعرف على تلك الشخصية الغريبة التي تحيرني، هل أنا حقًّا أمام رجلٍ فاضلٍ؟ أم أحد مدعي المثل والفضائل؟ يبدو ككهل لا كشابٍّ في العشرينات من عمره. أسئلتي وطريقة عرضي للأمور معه ينتابها الارتباك

الشديد وعدم الترتيب، فأشعر أمامه أنني محققة، أم أنني حقًّا عديمة الخبرة في التعامل معه؟ حتى إنني تفاجأت من مجاراتي إياه في الحديث باللغة والطريقة التي يحبها، فأمامه تنهار كل مقومات القوى والعناد، قد حاولت إبراز ذلك عامدة ولكن بيني وبين نفسي تتهاوى جدر الرغبة في التجمل، أشعر أنني ماري الطفلة الصغيرة التي تتعرف على العالم الجديد من حولها، عالم لم تَحْيَهُ من قبل، يبدو حقًّا أن كلًّا منا طفل أمام شيء لا يعلمه، إنها ولادة جديدة للقلب حينما يدرك ما حوله. كل التجارب التي تمر بالإنسان بدءًا من مولده وصرخته الأولى في الدنيا وانتهاءً بموته.. لا تساوي لحظة حبٍ حقيقية فهي تجربة ميلادٍ جديدٍ تعبر بك نحو الحياة.

شردت بذهني وتركت ثابت، رسائل متتالية منه لم أرد عليها، أغلقت الحاسوب والهاتف دون أن أرد، انتابني قدر كبير من الارتباك، لا بد أن أهدأ قليلًا وأستعيد بعض قوتي، ما هذا الضعف يا ماري؟ حان وقت الاسترخاء والاستحمام، الجو بارد جدًّا.. إنه يناير، الماء الساخن ممتع أيضًا، أنا الآن تغرقني المياه وأنا عارية، حالة من الاسترخاء، أود لكل قطرة من الماء أن تتخلل جسدي، جسدي أيضًا يحتاج إلى بعض جلسات التدليك التي أهملتها منذ فترة، أود استعادة نشاطاتي السابقة، أنا الآن في حالة حياة.

انتهيت من الاستحمام وقمت بتجفيف جسدي جيدًا.. الساعة تدق الثالثة صباحًا، انقبض قلبي، فكنت قد تغافلت عن ذلك الوقت المقيت، غصة انتابتني ثم فجأة انقطع التيار الكهربائي، صرخت وأنا داخل المرحاض، خفت بشدة، أتت أمي وأحضرت بعض الشمع والكشافات الضوئية ووجدتني أتصبب عرقًا وخوفًا بارتعاد ورعشة في كل أرجاء جسدي.

«جـرالك حاجـة يا مـاري؟». لم أسـتطع حينهـا الـرد، ولكـن بـدأت حالـتي تهـدأ شـيئًا فشـيئًا حيـنما حـضرت أمي، أحـضرت أمي كـوب مـاءٍ وعصـيرَ ليمـونٍ حـتى أهـدأ، تناولـت كـوب المـاء وهـدأت روحي بعـض الـشيء، وارتخـت كل عضـلات جسـدي وشـعرت بالنعـاس لكـني أخـاف أن أخـلد إلى فـراشي والتيـار مقطـوع، أخذت أتسـامر مع والدتي في بعض الأمور، هى تريد أن تسكنني بعض الشيء، أخـاف الظـلام، لم أقـدر يومًـا عـلى مواجهـة الظـلام بـأي صـورة.

تجاذبنا أطراف الحديث وتطرقت إلى الحديث عن والدة سلمى زوجة عم أحمد بائع الحلوى، أمي أخبرتني بأن أحد الجيران أخبرها -وتلك عادة في مجتمعنا المصري.. النميمة الدائمة والحديث عن الغير- بأن الرجل الذي يسكن بجوارنا يقيم حفلات داخل الشقة، رقص.. وخلاعة.. وكانت سلمى إحدى ضحاياه، طلب إليها ذات يوم الحضور لتنظيف المسكن، ثم ضاجعها.

سـلمى -رغم فقرها الشـديد- أنيقة وعلى قدرٍ عالٍ من الجمال والاهتمام بجسـدها، فكانت دومًـا ترتـدي السراويل الضيقة التي في بعض الوقت كانت تبرز مفاتنها، مؤخـرة منتفخـة وثـديًا مشـدودًا للغايـة، عـلى الـرغم مـن كونهـا -بمفهـوم المسـلمين- محجبـة تغطي شـعرها، وكنـت أتعجـب لـكل هـذه السـطحية في تكميم فكـر النـاس، مؤخرتهـا بارزة للقاصي والداني وشـعرها يعلـوه حجـاب العفـة!

اسـتكملت أمي حديثها، إن الشـاب ليس مسـيحيًا كما يقولون، إنما ملحد منذ فـترة طويلة وقد تـرك أبويه هـروبًا منهما، وقد تسبب لهما في مشـكلات عدة، هـذا مـا عرفته من زوجة جارنا ناجي عازر.

طـال انقطـاع التيـار الكهربائي وأنا أنصـت إلى أمي وكأنهـا تحاكيني أو تـروي لي قصـة

كي تساعدني على النوم، الأم صفة عظيمة لا يعرف قيمتها إلا من فقدها.

لم يجذبني الحديث عن الشاب، كريستين استيقظت لتناول الماء فوجدتنا نتسامر آخر الليل، سلمت عليَّ وعادت إلى غرفتها لتنام. أريد النوم.. النوم فحسب، غداً الجمعة.. راحة من كل شيء، أخيرًا عاد التيار الكهربائي، خلدت إلى سريري، تناولت عقاقيري التي أهملها دومًا. لم أشعر بشيء حتى الواحدة ظهرًا، جلسنا معًا أنا وأبي وأمي وكريستين تناولنا الإفطار، فقد انتظروني حتى أستيقظ بعد عودتهم من عظة الجمعة، الشعور بالعائلة رائع كونك تنتمي لعائلة مثل عائلتي مسالمة، وأب طيب وأم حنون يحبون الخير، أخبرتني والدتي بأن عمتي ستأتي لزيارتنا اليوم.

أبي لا يبدو بصحة جيدة، أحضرت جهاز الضغط حتى أطمئن عليه، وبالفعل وجدت الضغط مرتفعًا، وهو -مثلي- يُهمل في تناول عقار الضغط، أحضرت له الدواء، نظر إليَّ ببسمة ولم يقل شيئًا، ثم ذهب ليشاهد مباراة كرة القدم للمنتخب المصري، فهو يحب مباريات كرة القدم جدًّا، لكن كريستين تود الذهاب إلى النادي، وظلت تدعوني كي أرافقها لنذهب معًا.

ذهبنا إلى النادي وأحضرتُ سمسم معنا فهو ملازمٌ للمنزل منذ ما يقرب من شهر وقلما يخرج، وصلت إلى باب النادي ولكني أشعر بالملل، لم أعد أحب النادي، نفس الوحدة، الشيء الإيجابي الأوحد، الهواء المنعش وتلك المساحة الخضراء الشاسعة التي تشرح الصدر.

مفاجأة.. إنها سالي، جريت نحوها وفاجأتها ثم عانقتها بشدة:

- مفتقداكي جدًّا يا سالي وحشتينى جدًّا، أحسن حاجة في اليوم إني

شـوفتك.

بادلتني العناق كأنها كانت تتوقع مجيئي وقالت:

- كنت هاتصل بيكي النهاردة.

- عاملة إيه مع نادر دلوقتي؟

- خـلاص انفصلنـا يـا مـاري، نـادر دلوقتـي بقـى مدمـن خمـرة، ينـام طـول النهـار وبيقـضي الليـل في البـارات والملاهـي، حتـى فـكّ الودائـع المجمـدة في البنـوك، هـو دلوقتـي كباريهـات ونسـوان بـس، وصلـت بيـه الدرجـة إنـه كان بييجـي وأصحابـه السـكرانين وأنـا لوحـدي في البيـت، سـاعتها أخـدت القـرار بـدون تـردد.

شكله اتجنن ده ولا إيه؟

استكملت سالي تشكو نادر وكلها حرقة وعناد، لأول مرة أراها هكذا:

- دلوقتي ماشي مع ساندي ميخائيل بيقضي الوقت كله معاها.

تعجبت بشدة ثم قلت:

- إيه اللي عرفه سكة ساندي؟

- مش عارفة!

سـاندي ميخائيـل أجمـل فتـاة في الجامعـة، الجميـع كان يسـيل لعابهـم عـلى تـلك الفتـاة، ممشـوقة القـوام، لهـا نهـدان بارزان نافـران، ووجـه أبيـض ناصـع، عينـان سـوداوان، وشـعر شـديد السـواد يغطـي أول كتفهـا، ومؤخـرة لا تقـل جـمالًا عـن أجمـل نجـوم

السينما، حقًّا فاتنة بكل معاني الجمال. ساندي دومًا ترتدي عامدة ثيابًا ضيقة وعلى صيحات الموضة، قد تبرز حتى أدق مفاتنها، كانت تعمد دائمًا إلى الإغواء، ومن أسرة ثرية جدًّا، والدها يقيم بدولة الإمارات، ووالدتها تمتلك «بوتيك» لبيع الأنتيكات والتحف غالية الثمن، أعرف ساندي جيدًا.. ليست فتاة سهلة، لكنها تعشق جذب الانتباه، تريد أن تلفت كل الأنظار، كانت إحدى صديقاتي ولكن بعدما اتضح لي أنها صارت ممن يتعاطون الكوكايين ابتعدت عنها بشكل كامل.

كان لنا صديقٌ يدعى رامي يحلم بأن يتزوجها ولكنها رفضت بشكل مقيت، كان لديه ضعف في النطق، تأتأة بسيطة في الكلام. وليتها اكتفت بذلك ولكنها سخرت منه أمام الجميع، لكن ما الذي جمع بين ساندي ونادر؟ ساندي لم تكن تربطها أي علاقة بنادر، ولا من قبيل الصداقة أو الزمالة.

ناديتُ كريستين ومعها سمسم، كي نجتمع معًا وسالي لتناول الغداء، لكن سالي نادت أحد الشباب وقدمته لنا على أنه صديق لها مقرّب، شاب طويل ذو بشرة سمراء لم أره معها من قبل، ثم أقبلت نحوي أنا وكريستين وقالت:

- أعرفكم بأكرم أعز أصدقائي.

كريستين قاطعتها:

- ده قريب نادر؟

أشرت لكريستين بعيني فسكتت، فهي لا تعرف أي شيء، وانفردتُ بسالي لدقيقة كي أعرف ما الحكاية، أخبرتني بأنها تقيم مع أكرم علاقة.. فهي الآن لا تستطيع العيش دون زوج، وأشارت إليه كأنها مومس:

- أكرم يا ماري يدخل مزاج أي بنت!

تعجبت لجرأة سالي، ملامح عينيها تبدلت، أشعر أنني أمام امرأة لعوبٍ ليست صديقتي! أخبرتها حينئذ بأني لن أتناول معها الغداء ما دامت بصحبة هذا الشاب الذي يشبه نجوم البورنو، غضبت مني بشدة وقالت «إنتي حرة يا ماري أنا هاتغدى مع أكرم».

وهنا قررت ترك النادي أنا وكريستين على الفور والذهاب إلى مكانٍ آخر حتى أتناسى ما فعلته سالي، ولكن لوهلةٍ تذكرت نظرات سالي وسيل من الأسئلة يطوف برأسي، أكل هذا من صدمتها في نادر؟ أتنتقم من نفسها أم منه؟ أم من العالم كله؟ سالي لديها طفل منه، وهي تتسكع مع رجلٍ غريبٍ دون زواج، تبدلت أحوال سالي.

كريستين تناديني:

- هنروح فين يا ماري؟

- هنروح مستشفى الوادي.

- ليه كده يا ماري؟! مستشفى برده!

- يا كريستين بقالي في المكان ده تَمَن سنين.. عمر تاني!

هذا المكان رغم أيام الدراسة المؤلمة والصعبة فإني لا أشعر بالانتماء والراحة إلا فيه، وبالفعل ذهبنا إلى هناك على غير رغبة من كريستين ولكنها في النهاية انصاعت لرغبتي، وقفتُ سيارتي في أحد الجوانب من جراج المستشفى وترجلنا منها نحو أحد الأرصفة بالفناء، ثم جلسنا فأنا مرهقة بعض الشيء.. اتكأت على كتف كريستين، وشردت بذهني، هل يمكن أن أرى ثابت الآن؟ يقولون إنه من الممكن استدعاء شخصٍ ما تفكر به، بل والتخاطب معه، أطلَّت علينا الحاجَّة

نـوال وأحـضرت إلينـا قليـلًا مـن الكرتـون كي نسـتلقي عليـه، امـرأة في الثمانـين أو مـا يزيـد، كل مـن يعمـل في هـذا المكان يعـرف قصتهـا، كانـت إحـدى العامـلات ثم تقاعـدت ومـا زالـت تعمـل لأنهـا تتـولى ابنتهـا المطلقـة وأولادهـا بالرعايـة والمـال.

أعطيتهـا مبلغًـا مـن النقـود، هي تعـرف أغلـب مـن يعملـون هنـا؛ لديهـا ذاكـرة جيـدة للغايـة وذلك أيضًـا مصـدر رزقهـا الأوحـد، فجـأة تسـاقط علينا بعض فضـلات الطيور، ضحكـت كريسـتين قائلـة «هنِتْكِسِي». أمامنـا شجـرة شـاهقة الارتفـاع أطلـت النظـر إليهـا بإعجـابٍ شـديدٍ، أحـب الأشجـار.. لكـن ليـس بهـا أوراق خـضراء، كعفريـت بأطـراف مهلهـلة.

لفـت نظـري بعـض الكلـمات الـتي تم نحتهـا عـلى أفـرع الشـجرة، أخـذت أدقـق، هي حـروف واضحـة تبـدو شـعرًا أو عبـارةً مشـهورةً «وقـد يجمـع الله الشـتيتين بعدمـا...»، لم أعـرف مـن كتـب تـلك العبـارة، في الحـال أخرجـت هاتفي الجـوال وبحثـت عـن صاحـب العبـارة، الشـاعر قيـس -أو كـما يلقـب مجنـون ليـلى- والبيـت له تكمـلة.. «وقـد يجمـع الله الشـتيتين بعدمـا يظنّـان كل الظـن ألَّا تلاقيـا»، واتضـح لي أنـه أحـد أشـهر أبيـات الشـعر القـديم، الحاجَّـة نـوال مـا زالـت تجلـس بجـوارنا ودون اسـتئذانٍ اقتحمَـتْ حِـواري مـع كريسـتين كأغلـب المصريـين البسـطاء ذوي الفضـول.

وقالت:

- فيـه دكتـور بيجـي يقعـد قـدام الشـجرة بالسـاعات وهـو الـلي بينحـت عليهـا عـلى طـول.

انتفضت فجأة، تسارعت دقات قلبي:

- دكتور مين يا حاجَّة نوال؟

كريستين تنظر إليَّ بتعجب، أجابت العجوز:

- والله مش عارفة اسمه، بس هو بدقن كده ودايمًا بيقعد ساكت لوحده.

في داخلي شك في أن يكون ثابت ولكن أشعر بأني شردت، أو بأني أشاهد فيلمًا عربيًّا لا يمكن تصديق نهايته، ثم قلت:

- كملي يا حاجة نوال.. بيجي كتير؟

- آه بس بقاله ييجي أسبوع ماجاش. والله يا بنتي أنا بيصعب عليا قعدته الفترة الطويلة دي.

- بتفكري في إيه يا ماري؟

هكذا قالت كريستين ساخرة!

- بقولك إيه يلا نروَّح عشان جعت جدًّا وماما طبخت حمام، يلا يا ماري أنا بقالي فترة صايمة.

أود أن أجلس أمام الشجرة فترة طويلة، ولكن الشمس قاربت على الزوال والغروب. كريستين تكرر قولها:

- يلا يا ماري هموت من الجوع.

ألحت كريستين وصرت متفهمة أمرها لأني شعرت بالجوع أيضًا.. «يلا بينا نروَّح».

ذهبنا معًا إلى سيارتي، ولكني وجدنا إطار السيارة فارغًا من الهواء، وبحاجة إلى إصلاح أو تغيير، نظرت كريستين غاضبة:

- هو ده وقته يا ربي؟ لازم أروح هموت من الجوع.

تركتُ سيارتي داخل جراج المستشفى، وانتقلت أنا وكريستين وسمسم كي نوقف تاكسي ليوصلنا إلى شبرا الآن.

وصلنا إلى المنزل ووالدي ووالدتي يجلسان على الأريكة، والدي يسند رأسه متكئًا على أمي ويشاهدان التلفاز، أسرعت والدتي كي تحضر الطعام لأن كريستين طوال الطريق تخبرها بسرعة تحضير الطعام. تناولنا الطعام معًا.. كان شهيًّا للغاية، شيء غريب ينتابني، إنها فترة تبويضي.. أعرفها جيدًا، حرارتي مرتفعة بعض الشيء وبظري يؤلمني، لا أعرف ما يحدث، دخلت إلى غرفتي، ثم أوصدت الباب خلفي، تلك المجتمعات تجبرك على فعل كل شيء بالخفاء، استلقيت على الفراش، وأشعر بحنين وشوق لا أدري إلا ماذا.

أنا محتاجة للغاية ولا أدري ما أفعل، مستلقية على الفراش.. يدي اليسرى على نهديَّ منتصبَيْ الحلمات، يدي اليمنى تحت سروالي أفرك بظري، أتخيل ثابت معي، ثابت يرتشف شفتي المبللة بالروج، يدخل لسانه في فمي يلعق فمي وشفتي، يداي مبللتان ببعض اللزوجة من سائلي المهبلي. كدت أفقد وعيي، أشعر بمتعةٍ ولذةٍ لا توصف، ثابت يلمس نهديَّ الناعمين، أود أن أصرخ، سائلي يتدفق، سروالي ويدي تبلَّلَا للغاية، ثم يضع ثابت يده على سروالي، يداعب بظري برقة ووداعة ولطف، في تلك اللحظة صرخت بشدة، وارتعشت أقدامي ولم أشعر بشيء لمدة دقيقة، لم أشعر بنفسي إلا ووالدتي تطرق الباب قائلة:

- فيه حاجة يا ماري؟ سمعتك بتصرخي!

رددت مرتعدة:

- أنا.. أنا مش باعمل حاجة، ده صوت الموبايل.

لن أخرج إليها فأنا أتصبب عرقًا من كل أرجاء جسدي، جسدي في ظمأٍ شديد، يريد أن يرتوي.. أشعر باسترخاء وراحة، مزاجي جيد للغاية، هدأت بعض الشيء وخرجتُ من الغرفة، في البداية كنت في غاية الحرج وأمي تنظر إليَّ باستنكارٍ ومكرٍ:

- العنقود استوى يا ماري عاوزة أجوزك.

- عاوزة تخلصي مني يا ماما؟

لا يقرأ ما يدور برأس امرأة سوى امرأة، فماذا لو كانت أمًّا رائعة؟ قد تكون على دراية بما أفعل ولكنها لا تود إخباري بأنها تعلم أني أمارس عادتي السرية. الهاتف يرن، إنه رقم دون اسم..

- ألو.. ماري معايا؟

- مين حضرتك؟

- أنا ساندي ميخائيل يا ماري.. فاكراني؟

رددت باندهاش:

- أهلًا أهلًا! إزيك؟

يبدو صوتها مضطربًا، تتحدث بسرعة شديدة ثم قالت:

- عاوزة أقابلك يا ماري.

بدون تردد شعرت بأن الأمر جد خطير؛ أجبتها:

- حاضر.. خير؟!

- خلاص نتقابل في الزمالك بكرة في قهوة جراند.. هاستناكي.

أغلقت ساندي الهاتف لكن عقلي لم يُغلق، بل تكالبت عليه كل أمراض النفس والفكر، أمضيتُ الليل حالك السواد، والسماء خالية من النجوم لكنها صافية للغاية، صمت يعتري الكون كله في جوف الليل المظلم.

قررت أن أغلق باب النافذة، الهواء يتبخر في فمي من شدة البرد، نمت وما شعرت بسوى سمسم يلعق وجنتي ليوقظني، استيقظت في تمام الساعة السادسة، لا أريد أن أزيل الغطاء عن جسدي، أشعر بالدفء، بمجرد أن تخرج رأسك من الغطاء تشعر بالبرد، في نهاية الأمر تركت الغطاء واستيقظت.

وارتديت ملابسي بسرعة بعد أن انتهيت من غسل وجهي وأسناني، تناولت فطوري مع كريستين، وبقيَ أن أخطو بقدمي خارج الشقة، تذكرت أن السيارة ليست معي، نسيت أني تركتها في مستشفى الوادي. سأتأخر عن مواعيد العمل، لذا قررت أن أستقل تاكسي كي يوصلني إلى محل العمل، ثم أذهب بعدها لإحضار السيارة.

أخيرًا وصلت إلى محل العمل، الطريق مزدحم للغاية كالعادة صباحًا، وجدت المركز خاليًا من المرضى، تساءلت عن السبب.. إنه يوم الجرد السنوي والتعقيم الدوري، وهو يوم يعتبره الأطباء عطلة استثنائية، حينها انتهزت الفرصة، واستأذنت لإحضار سيارتي من المستشفى.

بالفعل ذهبت إلى هناك، جمعٌ من الفتية عرضوا عليَّ المساعدة لتبديل الإطار،

وبالفعل بدلت إطار السيارة، ولكن لم أركب السيارة وذهبت لأتناول كوبًا من النسكافيه باللبن، ذهبت فوجدت أحد أصدقائي الذي صار أحد أعمدة الإدارة في هذا المكان رغم صغر سنه كما أخبرني، يبدو سخيفًا للغاية، أود أن أغادر ولكني أشعر بالحرج، أخيرًا تركته، رجل ثقيل للغاية، يشرح لي إنجازاته في العلم والطب والمادة لدرجةٍ مبالغٍ فيها.

قدمي تسوقني إلى الشجرة التي كنت أجلس تحتها أمس، ذهبت إلى هناك، والحاجَّة نوال كالعادة بالمكان، نادتني بصوتها المميز الذي فيه بعض الحشرجة:

- أجيبلك كرتونة يا دكتورة؟

نظرت إليها وأنا أبتسم:

- ماشي يا حاجَّة هاتي واحدة.

أحضرت الحاجة نوال الكرتونة كي أجلس عليها، لكني وقفت أمام الشجرة، كي أتأمل المكتوب عليها.. وكان أبرز المكتوب بطريقة منحوتة، بيت الشعر هذا «وقد يجمع الله الشتيتين بعدما...»، التقطت صورة لهذا البيت بهاتفي المحمول، وإذا بأصابع على كتفي وصوت يبدو مألوفًا يقول:

- بتعملي إيه؟ هدفَّعِك تمن حقوق الملكية لصورتي اللي بتصوريها بدون إذن.

سقط الهاتف من يدي وارتبكت بشدة. التفتُّ خلفي وإذا به ثابت! ليس من الممكن أن أصدق ما جرى!

هل أشعر أني في رواية أو فيلم غير مقنع؟ أم أنَّ لديَّ حدسًا قويًّا وقدرة حقيقة على التنبؤ؟ أم شيء آخر لا تفسره العقول؟ انحنى ثابت كي يحضر الهاتف ثم

قدمه لي معتذرًا، وقال:

- متأسف إني خضيتك يا ماري.. مكنتش أقصد.

نظرت في عينيه كأني أحتضنه بعيوني وقلت:

- ولا يهمك حصل خير، أنا عجبني البيت فقُلت أصوره، شكله مكتوب من فترة طويلة.

رد ثابت رافعًا أحد حاجبيه:

- هو فعلًا مكتوب من فترة لكن مش طويلة أوي.

- وإنت تعرف مين كتبه؟

- أيوه عارفه كويس جدًّا.

هنا لم أكمل استفساري عن صاحبه، تولَّد لديَّ اليقين بأنه من كتب البيت.. ولم أرد الاستطراد أبعد من ذلك، لأول مرة أشعر بحقيقة الخوف وعدم تقدير العواقب. ثابت يبدو كطفل، وجنتاه شديدتا الحمرة، عيناه تضحكان، يبدو فرحًا للغاية. اقتحمَتْ الحاجَّة نوال الحوار ونظرت إلى ثابت نظرة امرأة ذكيةٍ لها تجارب ثم قالت جملةً غريبةً فيها دعاء «ربنا يفرحك يبها يا رب». أشار ثابت بعينه إلى الحاجة النوال، لاحظته وهو يغمز بعينه إليها حتى تسكت، وبالفعل انصرفت المرأة ولم تلتفت إلينا ثانية.

سألني ثابت:

- إنتي جيتي هنا ليه يا ماري؟ فيه حاجة؟ بتخلصي ورق؟

- جيت هنا كنت سايبة عربيتي كانت عطلانة امبارح جيت آخدها،

وإنـت بتيجـي هنـا كتـير؟

- كل يـوم لازم أعـدي عـلى هنـا، بـس بقـالي حـوالي أسـبوع مجيتـش، ده مـكاني الـلي باعتمـد عليـه علشـان أغـير مزاجـي وعشـان أفكـر أو أقـرر أعمـل أي حاجـة.

سكتُّ لحظة ثم نظرت بتعجب قائلة:

- إنت غريب يا ثابت، غريب في كل حاجة.

لم يعلق ثابت على ما قلت ولكنه باغتني فجأة:

- إيه رأيك في الكلام المكتوب على الشجرة؟

لم أرد فتح أي نافذة لمناقشة الموضوع ولكنه كرر سؤاله:

- رأيِك حتى في معنى الكلام إيه يا ماري؟

لم أرد على ثابت، وانتابتني بعض الريبة، جلس ثابت وأخرج حاسـبه الشـخصي من حقيبته التي يحملها دومًا ولا يتركها، أوقد الحاسب ثم صاح قائلًا:

- بكـره سـاعة الصفـر يـا مـاري، يـا إمـا نحقـق الحريـة ونبقـى بنـي آدمـين يـا إمـا نمـوت زي الخرفـان.

تذكرت أن اليوم الرابع والعشرين من يناير.. يوم الاثنين وموعد التجمع المنشود هو الخامس والعشرين من يناير كما اتفق أغلب أعضاء الصفحة، ثابت في لحظة تحول إلى شخصٍ ملهمٍ ثائرٍ تغيرت ملامحه وهو يحدق في حاسبه، وبالفعل يكلم نفسه ثم نظر إليَّ بحماسة شديدة..

- ميعادنا في ميدان التحرير يا ماري.. معانا طبعا؟

- بدون تفكير.. طبعًا معاكم.

ثابت يحدق في الحاسب وينظر إليَّ:

- عارفة يا ماري حركة «تحرير» أعلنوا إنهم هيشاركوا معانا.. ولكن حركة «حماية» أعلنوا إنهم مش معانا.. مش فاهم توجههم، رغم إن شباب كتير منهم على الصفحة معانا، حاسس إننا هنعمل حاجة.

- إيه المطالب يا ثابت؟

- أول مطلب إلغاء العمل بقانون الطوارئ وإقالة وزير الداخلية والإفراج عن المعتقلين السياسيين. وحل مجلس الشعب اللي جابه كرم الشاعر وكمال محمد في تزوير سافر لم تشهده مصر في تاريخها. وتعديل الدستور لمنع الترشح لأكتر من فترتين.

أخذت الأمر بجدية واستطردت في سؤالي:

- تفتكر المطالب دي واقعية يا ثابت؟

- لأ مش واقعية بس لازم سقف المطالب يكون كده عشان نقدر نحقق حتى خمسين في المية من اللي عاوزينه، قدمنا دعوة للدكتور البرعي ووافق، أعرفه جيدًا وكنت مِمَّنْ جمعوا له توقيعات من ذي قبل، وجوده يمثل ثقلًا كبيرًا سيضفي على المشهد قوةً وتأثيرًا، وسيلفت أنظار العالم الدولي نحو ما سيجري في مصر. منذ عشرة أعوام لم أكن ممن يتعاطفون مع الدكتور البرعى بحكم أنه قضى عمره لا يعرف عن هذا البلد شيئًا، قد يكون ذلك الحكم جائرًا أو تأثير آلة النظام الإعلامية للطعن في أي شخصية تنافسية، بعد ذلك صرت من أشد أتباعه ومؤيديه وقمت أنا وزملائي بجمع التوقيعات له.

التفت ثابت نحوي ثم قال:

- ممكن أطلب منك طلب يا ماري؟

- اطلب طبعًا يا ثابت.

- بس اوعديني متزعليش مني ولا تفهميني غلط.

توترت للحظة ثم أشرت له:

- يا سيدي قلقتني، إنت عاوز إيه بالظبط؟

رد ثابت وعيناه لا تنظران إليَّ:

- هاستأذنك رقم تليفونك.

- مممممم ليه؟

- خلاص لو فيها مشكلة بلاش.

- هي مفيهاش مشكلة ومش محتاجة كل المقدمات دي رقمي أهو...

- متشكر جدًّا يا ماري.

فرح ثابت للغاية ودوَّنَ الرقم على هاتفه وفي مفكرته. في داخلي فرحت أيضًا للغاية وشعرت بأن شيئًا ما بيننا سيكون!

تلك اللحظة تيقنت أني أكبرُ ثابت بعشرين سنة، وأنه كطفلي الصغير الذي أخاف عليه، لم يتولد لديَّ هذا الشعور من قبل تجاه أي رجلٍ، ولا أدري لمَ -وقد تلامس قلبي مع قلبه- وودت لو ضممته إلى صدري في عناقٍ يدوم إلى الأبد، ماذا جرى يا ماري؟ أصرتِ عاشقة؟

إنه الحب.. لا يخضع للمنطق، نعم لا يخضع للمنطق، لا يمكن تفسير كل الأشياء

وإخضاعها للعقل، العقل حقًّا ليس المهيمن الأول على قرارات الإنسان، فلو أخضعنا كل ما نشعر به للعقل والمنطق لفقدنا لذة الأشياء، وصرنا دمى تتلاعب بنا قواعد المنطق المقيتة.

وإلا فما هذا الشيء الذي تولد داخلي؟ أنا لا أعرف ماهيته، أبدو ناضجة بعض الشيء الآن صرتُ قويةً، إنها إرادة عليا تعلو فوق الجميع تلك التي تهيمن علينا، إنه الحب الذي يتجلى كنور يخترق القلوب، يبقى هذا النور سرًّا يعلو فوق كل منطق تشوبه الحقائق، رواية أبدية لا تنتهي، يخلق الأبطال ويقتل الضعف ويورث القوة، أشبه بحالة ميلاد أو بالأحرى بعثٌ بعد موتٍ ثقيل.

جرس الهاتف يرن، إنها ساندي، انتفضت مسرعة أمام ثابت..

- يا خبر! أنا عندي معاد مع واحدة زميلتي.

استأذنت ثابت، نظر لي بعتابٍ ولومٍ:

- المعاد ده مهم يا ماري؟

- آه مهم جدًّا جدًّا.

رافقني ثابت دون مناقشة وانطلق ليوصلني إلى السيارة وصافحني، ثم قال لي:

- خلي بالك على روحك يا ماري.. معادنا بكره.

ثم انصرف إلى حيث ترك حقيبته.

انطلقت مسرعة بالسيارة صوب الزمالك، والساعة تقترب من الرابعة عصرًا، فكرت لحظةً لماذا كان عليَّ أن أقبل لقاء ساندي؟ وصلت إلى المقهى المسمى «جراند»، وهو مزدحم للغاية، الفتيات يدخنَّ الشيشة بحرية دون مضايقات،

مظهر جيد لحرية المرأة، بحثت عنها وسط المقهى المفتوح، نظرت يمينًا ويسارًا وفجأة لمحت ساندي بملابسها التي لم تعد أنيقة، اتجهت نحوها، عيناها ذابلتان، اللون الأسود تحت جفنيها، وجهها شاحب يبدو أنها تعاني مرضًا ما.

لم تبدُ ساندي -التي أعرفها منذ الجامعة- كفتاة شارعٍ تبحث عن مأوى كأقل تشبيه. وهي أيضًا لم تبدُ مرحبةً بي في بادئ الأمر، ناديتها وأنا أجري نحوها:

- ساندي ساندي.. إزيك واحشاني؟

لم تكن سعيدة حقًّا كما ظننت، حتى ملامحها لم تتغير للقائي وقالت:

- ماري عاملة إيه؟ يا رب تكوني سعيدة في حياتك.

أشرت برأسي:

- إيه يا بنتي مالك؟ انتي تعبانة؟ بجد وحشتيني.

ردت عليّ وهي تبكي:

- ساندي خلاص يا ماري، المهم انتي طمنيني عليكي.

دعوت ساندي للجلوس ولكنها أبت بشكل قاطع أن تجلس معي، وأخبرتني بأن لديها أكثر من موعد هام. قلت إنها لا تريدني أن أراها بذلك الوضع المزري، استأذنت ساندي لتنصرف، بسرعة ناديت النادل لأدفع فاتورة الشراب الذي تناوَلَتْهُ وتركتني بالفعل أتولى ذلك، أعرف أن ذلك كان غريبًا عليها، هي تُعرف بالكرم.. بل بالبذخ والتبذير في كل شيء، يبدو أن طبيعتها تبدلت، انطلقت معها ودعوتها كي أوصلها إلى بيتها، نظرت إليَّ بحزن وقالت:

- أنا هاخد تاكسي يا ماري، بيتي قريب من هنا روَّحي انتي. كنت

هانـسى أديـكي الظـرف بتاعـك، اتفضـلي بـس اوعدينـي مـا تفتحيـه إلا وانتـي لوحـدك، ولـو في البيـت ميبقـاش فيـه حـد موجـود.

- ظـرف إيـه ده يـا سـاندي؟ فيـه إيـه يعنـي مخليـكي تقابلينـي بعـد تـلات سـنين ماشـوفتكيش؟

- هتعرفي أما تفتحيه إنه أمانك في حياتك كلها، يلا أسيبك.

كلمات غريبة وكل حرف تخرجه كأنه رصاصة رعب على قلبي.

- أستأذنك يا ماري.

- طبعًا اتفضلي.. كنت حابة أوصلك.

- تتعوض المرة الجاية.

انطلقـت سـاندي وانطلقـتُ أنا وقـدمي تهـتز كمـن ينتظـر نهايتـه، صـارت غريبـة الأطـوار، وكيـف أصبحـت فقيرة إلى هـذه الدرجـة؟ كانـت تقـود أغـلى سـيارة في الجامعـة، وترتـدي أغـلى الثيـاب، بـل كان يُطلـق عليهـا ملكـة جـمال الجامعـة، أنوثـة وإغـراء وأناقـة، أنـثى بـكل معايـير الجمـال.

أذكر آخـر لقـاء بيننـا عندمـا حاولـت أن أثنيهـا عـن طريـق إدمـان الحبـوب المخـدرة والكوكايين، لكنهـا ضريبـة الحيـاة، لم تـدَعْ لأحـد أن ينـام مسـتريح الجوانـب.

هـا أنا وصلـت إلى بنايتي، مـا هـذا التجمع أمـام المنزل؟ اقتربـت ووجـدت سـيارة إسـعاف ولكنهـا ليسـت أمـام منزلنـا بـل أمـام البنايـة المجـاورة، شيء دعـاني لألقـي نظـرة فوجـدت كل مـن يسـكنون ببنايتنـا أمامهـا، ترجلـت مـن السـيارة ثم ناديـت أحـدهم «فيـه إيـه يا جماعـة؟ إيـه الـلي حصـل؟ حـد جـراله حاجـة؟». نظـرت إلى

عربة الإسعاف فوجدت أبي ينادي الناس قائلًا «يلا يا جماعة بسرعة، البنت بتنزف هتموت». ناديته ولم يلحظني وسط هذا الزخم. ذهبت مسرعة كي أعرف ما الحكاية، يكاد قلبي ينخلع؛ ظننتها كريستين أو أمي، وجدت بيشوي صديق كريستين فطمأنني أنها ابنة البواب القديم. اطمأننت أن أهلي بخير ثم في لحظة قلت «بنت البواب مين؟ سلمى؟!» أومأ بيشوي مغلقًا فمه ورأسه تجيب بنعم.

عربة الإسعاف تحركت، ما زالت سيارتي عالقة خلف البناية لم أستطع التحرك، أخرجت هاتفي المحمول وتحدثت إلى والدتي وطمأنتني أنها بخير لكنها تزور زوجة الأستاذ ناجي لأنه اعتُقِلَ اليوم.

رددت وكأني لا أصدق:

- هو فيه إيه اللي بيحصل النهاردة؟ اليوم ده شكله نحس!

- فعلا يا بنتي يوم نحس، زوجته منهارة.. انتي عارفة إنهم مبيخلفوش وملهومش غير بعض.

- اعتقلوه ليه يا ماما؟ طول عمره ماشي جنب الحيط!

- بيقولوا عليه كان عامل توكيل لدكتور برعي من زمان وإنه يؤيد تدخل الحكم الأجنبي في الشأن الداخلي.

في ظل هذا الجو الكئيب أصابتني ضحكة هيستيرية عالية كلها استنكار وغلٌّ وهمٌّ.. وكل ما لا يتخيله أو يتحمله بشر.. قلت:

- ده أغلب واحد في الدنيا، تدخل إيه؟

ثم طلبت إليها أن تبلغ زوجته أنها متى احتاجت إلى أي مساعدة فإني مستعدة.

وسألتُ والدتي:

- هي فعلًا سلمى اللي الإسعاف واخدها؟

لم تجبني في بداية الأمر ولكني أعدت السؤال مرة أخرى:

- هي فعلًا يا ماما؟

- آه هي، ربنا يسترها علينا. خدي بالك من نفسك يا ماري باباكي معاها دلوقتي متشغليش روحك.

أمي أجابتني بإجابة واحدة وكأنها لا تريد إخباري بما حدث، أنهيت المكالمة معها وأخبرتها بأنني سألقي عليها نظرة ثم أطمئنها على ما يجري من أحداث.

المشفى بجانبنا، المسافة قصيرة إلى «معهد الصادق التعليمي»، وهو أحد المشافي الحكومية الكبيرة في بلدنا، وصلت إليه وسألت أحد موظفي خدمة الاستقبال الذي أخبرني بأن الحالة التي أستفسر عنها تم نقلها لغرفة الجراحات العاجلة، وبالفعل ذهبت إلى هناك، ظللت أتنقل من هنا إلى هناك حتى أعرف أي خبر عنها، إلى أن قام أحد الأطباء بالخروج كي يستفسر عن التاريخ المرضي، رجل أصلع بعض الشيء يرتدي نظارة طبية سوداء الإطار وبالطو أبيض.. ومن كارت التعريف عرفت أنه استشاري التخدير الخاص بالحالة، لم يجد غيري يسأله.. حتى أبي لم أعرف أين أجده فهاتفه مغلق. سألني:

- إنتي من قرايبب الحالة؟

- لأ. أنا من سكان العمارة.

- عاوز حد من قرايبها فصيلتها نادرة (A-ve) ومحتاجين دم ضروري،

وعـاوز أعـرف أي تاريـخ مـرضي عنهـا.

رددت عليـه وأخبرتـه بـأني طبيبـة ومـن واجـبي الإنسـاني أتيـت، تغـيرت نبرتـه في الحديـث معـي بعـد علمـه بأنـني طبيبـة ثم رد عـليَّ:

- أهلًا يا دكتورة.. طيب عرفيني بنفسك

- أنـا بـس عـاوزة أقولـك إني ماعرفـش أي تاريـخ مـرضي لكـن والدتهـا جايـة في الطريـق، الحاجـة الـلي أنـا أعرفهـا ولكـن ده سر للمريـض إنهـا حامـل مـن خطيبهـا.

نظر إليَّ بوجه متعجب للغاية..

- انتي متأكدة إنها حامل؟

- آه طبعًا. ده حصلت مشكلة كبيرة بسبب الحكاية دي قدامي.

أجاب وهو يرفع حاجبيه:

- هـي مـش حامـل، اختبـار الحمـل بتاعهـا سـلبي وده إجـراء روتينـي بيتعمـل لـكل بنـت قبـل إجـراء أي تدخـل معاهـا.

أصابـني الجنـون واتهمـت الطبيـب ومشـفاه بالكـذب وعـدم الـتروي في إعـلان النتيجـة، لكنَّـه أكـد مـرة أخـرى أنهـا ليسـت حبـلى. وبعدهـا اسـتأذن قائـلًا:

- أستأذنك يا دكتورة.

وانصرف إلى غرفـة العمليـات. لم أصـدق مـا سمعتـه، جلسـت عـلى أحـد الكـراسي بسـاحة الانتظـار، لم تحملـني قـدمي. أمهـا اتهمتهـا زورًا! كل مـا يـدور في بالي.. لمـاذا

قتلوها إذن؟ أيمكن أن تكون قُتلت ظلمًا؟ أمها هي السبب.

أخيرًا ظهر أبي، عانقته بشدة، أعطاني منديلًا لتجفيف العرق الذي كان يتساقط مني ونحن في فصل الشتاء ثم قال:

- انتي عرفتي من فين يا ماري؟

نظرت إليه ثم عانقته مرة أخرى ولم أستطع الجواب عليه، صدره دافئ، كل ما أحتاج إليه الآن واحة أمن وأمان، أبي رجل شهم بكل ما تحويه الكلمة من معانٍ، مسح على رأسي وأنا على صدره وطمأنني قائلًا:

- إن شاء الله هتبقى كويسة، عندها نزيف حاد وأنيميا شديدة، شكلها نزفت كتير.

لم أستطع أن أرفع عيني من البكاء

- قتلوها ليه يا بابا؟ البنت طلعت مش حامل، يقتلوها ليه؟ كله من مامتها هي اللي فضحتها.

رد أبي بعد أن أخرجني من صدره متسائلًا:

- هما مين اللي قتلوها يا ماري؟ انتي عارفة حاجة عن الموضوع؟

- العمارة كلها عارفة، مامتها فضحتها مع الواد اللي ساكن جنبنا وأكيد أهل أبوها الصعايدة قتلوها.

- الموضوع شكله أكبر من كده، متشغليش بالك.

وفيما أتناقش مع أبي إذا بصراخٍ يأتي من الصالة المجاورة، لرجلٍ يرتدي جلبابًا

وعامة ولهجته ليست بلهجة أهل القاهرة:

- جُلتلها متروحش معاهم والله حذرتها منِّيهم.

رقم يهاتفني للمرة العاشرة على التوالي، إنه اتصال من ثابت، ماذا يريد في تلك الساعة؟ أغلقت عليه الاتصال ولكنه ما زال مستمرًا، في البداية ظننت أنه يذكرني بموعد الغد ولكن قررت أن أرد عليه.

- ألو.. مساء الخير يا ماري.

رددت بشكل فيه سرعة وجفاف:

- إنت رنيت عليا كتير يا ثابت فيه حاجة؟

- متأسف يا ماري. بس نسيتي شنطتك معايا، شنطة إيد صغيرة.

قررت أن أعتذر لثابت، يبدو أنني كنت جافة للغاية!

- أنا آسفة يا ثابت. أنا في المستشفى دلوقتي مش عارفة أتكلم.

- خير يا ماري؟ إنتي بخير؟ مستشفى إيه؟ طمنيني.

- اطمن أنا مع حد من الجيران عنده نزيف داخلي وحالته خطيرة، إحنا في مستشفى معهد الصادق.

ثابت لم يطمئن إلى كلامي وظن أني أكذب عليه فقال:

- أنا هاجيلك حالًا أطمن وأديكي شنطتك.

لم أرتح للأمر؛ أبي موجود ولا أريد مزيدًا من الأسئلة المحرجة عنه.. لن يفهم الحكاية أحد. أصرَّ ثابت على الحضور إلى المشفى وبداخلي استحسنت قلقه

عليَّ، على الرغم من أن الأمر بدا لي غريبًا بعض الشيء.

أنهيت المكالمة، الرجل الذي كان يصرخ ما يزال موجودًا بالمكان.. ذهبت إليه.. استطعت التعرف عليه، إنه بوابنا السابق، الذي قام بطرده كل من يسكنون العمارة.

أعرف اسمه جيدًا.. يدعى سمير أبو طشة، طردناه لأنه كان متهمًا بالقوادة، كان يعمل قوَّادًا لأحد سكان العمارة ممن يؤجرون مسكنهم للوافدين من منطقة الخليج، هذا البواب الجميع يعرفه، قوّاد المنظر والهيئة، ولكن ما الذي يجمع بينه وبين سلمى؟ لماذا يبكي عليها؟ هل كان يعرف أباها؟

استهجنت أني أدافع عنه، ثم سألته بشكل فيه اتهام وأنا أجذبه من صدره حتى كادت ملابسه تتمزق وهو يبكي «جُلتلها متروحش مع دول والله جُلتلها يا دكتورة»

ما زالت أجذبه سائلة:

- هما مين دول يا عديم الشرف؟ مين هما؟ قولّي.

يبدو أن أبي سمع صوتي، أتى مسرعًا ووجدني غاضبة للغاية:

- الكلب ده عارف اللي قتلوا سلمى.

أبي نظر إليَّ نظرة لوم وعيناه تتقدان شررًا، محاورًا البواب:

- مين دول يا سمير؟

- يا بيه دول عيال مؤذية وأهاليهم ناس واصلة هيقتلوني لو اتكلمت.

رد أبي يعقب:

- مين دول يا سمير؟ قولّي وأنا هاقف معاك.

سمير يتكلم ورأسه إلى الأرض كمن فقدت عرضها:

- هاقولك يا دكتور على كل حاجة من أولها لآخرها:

- سلمى أبوها صاحبي وبلدياتي، أنا اتغظت منه لما مشيتوني وجبتوه مكاني وهو لا بواب ولا حاجة كان بيبيع حلاوة في الشارع، جلت لازم أنتجم منه، اتعرفت على مراته من وراه، وكنت بنام معاها كل يوم.

أنصتُ باهتمام لما يقوله سمير، ورأسي سينفجر، أشار أبي إليه أن يكمل، وهو ينظر إلى أبي نظرة خوف قائلًا:

- هتجف معايا يا باشا؟ أنا أعمل أي حاجة إلا الدم يا باشا أنا أوسخ واحد في الدنيا كلاتها.

وعده أبي أن يقف معه ولكن طلب منه أن يكمل، فأتبع قائلًا:

- فضلت أنام مع مراته لغاية ما سلمى شافتني.

رد أبي بأسلوب هادئ واضعًا يده على كتف سمير:

- قولّي يا ابني إيه اللي حصل لو عارف حاجة؟

أشار سمير لأبي عليَّ محاولًا إقصائي عن المحادثة، وبالفعل طلب أبي أن أغادر، لكني رفضت بشدة أن أغادر ووعدت أبي ألا أتدخل في المحادثة. نظر أبي نحوه وأعطاه كلمة شرف بألا أتكلم، ثم استطرد سمير مكررًا على أبي السؤال:

- يا دكتور هتجف جنبي ولا هتبيعني؟

صرخ أبي في وجه سمير وقال له:

- أنا مش صغير. قولتلك هاقف معاك.

واصل سمير بنظراته النادمة الحديث قائلًا:

- بص يا باشا، لما طردتوني من البيت وشغلتوا الحاج أحمد مكاني، النار ولعت فيَّا، وده كان أكل عيشي، قررت جوه نفسي إني أنتجم من أحمد، فضلت متابعه فترة وعرفت إن معاه مراته وبنته الوحيدة سلمى، مراته ست زي الملبن بس شكلها شمال ومش راضية عن عيشتها، خلاصة الكلام اتصاحبت أنا والحاج أحمد وكنت باروحله البيت باستمرار.

سكت سمير لحظة، أشار إليه أبي أن يكمل الحديث ولا يخاف، نظرت إليه نظرة اشمئزاز وكأني أعرف نتيجة حواره القذر.

استكمل سمير حديثه.. «كنت سهران يوم عند أحمد باتفرج على الماتش وباشرب الشاي، مراته حضرت معانا، والظاهر إن عم أحمد كان مقصر معاها، توطي قدامي.. واحنا رجالة وهيا كانت فرسة، أول يوم سابتني أحسس عليها وبعدين قامت، عرفت إنها عاوزة، مرة في مرة كلمتها في المحمول مكالمات سكس وكانت فعلًا شمال في كل حاجة، اتفقنا أروحلها البيت الصبح الفترة اللي بينزل فيها الحاج أحمد، وتكون سلمى نزلت شغلها، أول مرة روحتلها كانت متزوقة زي ما تكون عروسة، مقدرتش أمسك نفسي، نمت معاها، وهيا انبسطت على الآخر وزي ما قالتلي إن الحاج أحمد تعبان ومبيناموش مع بعض من عشر سنين،

يوم ورا يوم أنا مبقيتش لاحق، كل يوم عاوزاني أنام معاها لدرجة إن مكنتش عارف أشوف شغلي في العمارة اللي اشتغلت فيها، يوم روحتلها البيت بدري وأنا داخل سلمى لمحتني، عملت نفسي باستفسر على الحاج أحمد موجود ولا لأ، لكن سلمى شكت فيَّا وراقبت نادية أمها، اليوم اللي بعده واحد صبَّح عليا بقرص فياجرا وفراولة.. أخدتهم وجريت على بيت نادية وهيا بتفتحلي الباب بقميص النوم، شيلتها ودخلت بيها على أوضة النوم، والظاهر إنها صرخت جامد، وأنا فوقيها شوفت سلمى بتبص علينا وحتى متكلمتش، اتخضيت وقمت أجري، وقولت لنادية إن بنتها شافتنا. قالتلي «انت شارب حاجة؟ سلمى نزلت بدري»، قلتلها «أنا شوفتها بعينيا دول».. قالتلي «يا راجل انت عاوز تهرب ولا ايه؟ شكلك تعبت». الشك هيموتني، خرجت من بيت أحمد وروحت قعدت على القهوة وأنا مرعوب.. البت دي ممكن تبلغ أبوها وييجي يقتلني، مكنتش عارف أفكر. بعد ما عدا أسبوع على اليوم الشؤم ده، هديت وقلت الموضوع خلص، رحت لنادية الصبح بعد ما اتصلت بيا وقالتلي عاوزاني، نادية كانت بتخطط تخلص من جوزها يا دكتور».

أبي قاطعه:

- يا سمير إنجز أنا مش عاوز أعرف التفاصيل.

- لازم أجولك على كل حاجة عشان تعرف أنا أجصد إيه من ده كله.

- كمل يا سمير.

تابع سمير كلامه.. «المهم يا دكتور، شيمتها وقولتلها إلا القتل، أنا أعمل أي حاجة إلا الدم، هددتني إنها هتبلغ جوزها، ضربتها بالقلم وخرجت، بعدها بيومين جاتلي سلمى وهددتني هي كمان إنها شافتني مع أمها وإنها هتبلغ أبوها وأهله، سلمى

كانت عاوزة فلوس، كانت كل شوية تاخد فلوس».

قاطع والدي سمير مرة أخرى قائلًا:

- يا سمير إنجز إيه الرغي ده كله؟

سمير أبدى امتعاضه من أبي ورد عليه

- خلاص لو مش عاوزين تعرفوا أو تسمعوا بلاها.

رد أبي وهو يفرك جبينه:

- يلا كمل أنا سامعك، كلي آذان صاغية يلا يا سيدي.

«سلمى كانت بتجيلي يا دكتور، كنت مفكرها غلبانة زي ما كان ظاهر عليها، بس أنا شكيت إن أمها تكون مسلطاها عليّا في الأول بعد كده اتأكدت، سلمى عرضت عليَّا بكل جرأة قالتلي «عاوزة أشتغل معاك يا سمير».. وأنا قولتلها «إنتي عارفة الأول أنا باشتغل إيه؟»، قالتلي «أيوه من غير كتر كلام عاوزة أشتغل معاك».

دارت الأيام يا دكتور وبقت سلمى أهم واحدة عندي، الزباين كلهم بيطلبوها، وهيا بصراحة تهبل، عود يعني، بس حذرتها، إن ماتتغرّش وتحاول تشتغل مع الناس دي لوحدها.. دول ديابة هينهشوها»

في تلك اللحظة أصابني صداع شديد برأسي، وبحثت عن مسكن لمداواة رأسي من هذا الصداع، يومي كان طويلًا للغاية وسمير هذا ثرثار للغاية، في تلك اللحظة قررت أن أغادر فأنا لا أطيق ذلك المسخ الأبله والرذاذ الذي يتناثر من أسنانه السوداء، وتلك الرائحة الكريهة التي تنبعث من فمه، ولكنه نظر إليَّ،

ويبدو عليه الغضب قائلًا:

- استني يا دكتورة طالما سمعتي خليكي للآخر.

رد أبي:

- المهم كمل يا سمير. ده إيه علاقته بموضوع النهاردة؟

- ما أنا جايلك في الكلام يا بيه، آخر مرة شفت سلمى كانت جاية تسألني عن شاب اسمه عمر شوكت، عمر ده ابن شوكت الخفيف يا بيه أكيد انت عارفه، شاب تلفان وخمورجي وحياته زفت، عمر ده بيقولوا بياخد الحريم يعذبهم لغاية ما يصوتوا وبعدين يسيبهم لصحابه.. المهم يا بيه إني حذرتها منه.

حضر الطبيب مسرعًا من داخل غرفة العمليات مناديًا إيانا:

- يا جماعة حد يتبرع بالدم بسرعة النزيف مش راضي يقف والفصيلة نادرة (A-ve).

نظرت إلى أبي فليس أحد منا فصيلته من هذا النوع، اضطربنا.. وقعت عيني على ثابت المستند إلى أحد جدران المشفى وهو ما يزال معي حتى الآن، سألته:

- هل تعرف أحدًا فصيلة دمه (A-ve)؟

نظر إليّ ثابت قائلًا:

- أنا.

- الحمد لله.

نزل ثابت مسرعًا كي يتم سحب كمية الدم المطلوبة منه بعد إجراء تحليل تحديد الفصيلة المعتاد. تغيرت ملامح وجه سمير وكأنَّ غصَّة ما في حلقه تمنعه الكلام، في تلك اللحظة أصرَّ أبي على مجاراة سمير وحديثه حتى يعلم أين الحقيقة، أشار أبي بطرف عينه، وبالفعل طمأنت سمير قائلة:

- متقلقش.. أي جراحة بتحتاج نقل دم والدكتور مستعجل لأن الفصيلة نادرة.

استطرد سمير حديثه ولكن القلق لا يفارق عينيه، وطلب أبي إحضار مشروب ليمون لنا جميعًا كي تهدأ أعصابنا بعض الشيء، حضر ثابت بعد أن تبرع بالدم واستأذن مغادرًا المكان فأنا أعلم أن لديه ما لديه غدًا.

- كمل يا سمير.

- احنا وصلنا فين؟

- لعمر شوكت الخفيف.

- آه.. هيا صممت تروح معاهم عشان هيا فاكرة إنهم متريشين، المهم يا بيه أنا موافقتش هيا اللي راحتلهم من ورا ضهري ومكملتش معاهم ساعتين.

- إنت عرفت منين إنها مكملتش ساعتين؟

تلجلج سمير واضطرب بعض الشيء قائلًا:

- يا بيه ما أنا قولتلك كانت عندي قبل ما تروحلهم.

لم يُرِدْ أبي أن يخيفه بل هز رأسه:

- فاهم يا سمير. متقلقش.

وفيما نحن أمام غرفة العمليات نتناقش، إذا بطاقم الأطباء يغادر غرفة العمليات، ملامحهم لا تبشر بخير، ثم أعلن أحدهم لوالدي «البقية في حياتكم». انهمرت عيناه بالبكاء، لم أتمالك نفسي، كدت أسقط على الأرض ولكن ساعدني أبي حتى أجلس على أحد الكراسي، ثم استأذنت الطبيب كي ألقي عليها نظرةً من بعيد.

ببساطة شديدة أعلنت النهاية، نهاية كل شيء، أُسدل الستار بلا عودة ولا رجعة، انتهى كل شيء لم يعد لسان تتكلم به أو تنطق، عينان مغلقتان، وجه شاحب، جسد ساكن، ومصير لا يعلمه أحد.

احتضنني أبي وأسندني إلى كتفه ثم خرجنا معًا، خرجنا من غرفة الإفاقة، صراخٌ شديدٌ، إنها نادية والدة سلمى تنهار، سقطت على الأرض تلطم خديها، بلا غطاءٍ على شعرها الأسود الذي لم تفارقه الصبغة يومًا. نظرت إليها باحتقارٍ شديدٍ، حتى لم أصافحها أو أواسِهَا، سأدعها تتجرع مرارة جرحها.

وصلنا إلى المنزل، دخلتُ غرفتي، وجدت كريستين حزينة وكذلك أمي، قررت كريستين أن تشاركني الفراش في تلك الليلة؛ الموت يخيف النفس من الفراق، لكنها لحظات وسينسى الجميع كل شيء وتمضي الحياة. رغم طول اليوم إلَّا أنَ الأرق عاودني في تلك الليلة وبشراسة، الظرف أمامي ولكن كريستين بجانبي، لن أستطيع فتحه كما أوصت ساندي، ولكني استرقت نفسي، وسحبت يدي كريستين من فوق صدري ببطء ثم اتجهت نحو غرفتها، كي أحاول فتح الظرف دون أن يشعر أحد، وبالفعل فتحته، يحتوي قرصًا مدمجًا وبعض الأوراق التي كُتبت بخط اليد، وكاميرا ديجيتال صغيرة، قمت بإحضار القرص المدمج وفتحت

الحاسوب الخاص بكريستين، ثم قمت بتشغيل السي دي وأنا أنظر أمامي وخلفي كاللص الذي يخاف أن يُكشفَ أمره، وقمت بإغلاق باب الغرفة بإحكام، وبالفعل تم عرض السي دي.. إنه فيديو بجودة ليست عالية.. إنه على ما يبدو فيلم إباحي، ولكن الصورة تقترب.. فتاة تصرخ من النشوة.. ويتناوب عليها اثنان من الشباب بالمضاجعة حتى لم تبدُ أي ملامح للصورة، العرق يتصبب من وجهي وأطرافي باردة للغاية، بدأت أشعر بضيقٍ في التنفس، تمالكت أعصابي لأول مرة في حياتي، لن أسقط، اقتربت الصورة أكثر إنها أنا التي في الفيديو!! نعم أنا!!.. أنا!!!، كيف حصل هذا؟!

لا أذكر أي شيء، لم أنهر، تمالكت نفسي بقوة حتى لا أصرخ فلا أريد أن يفتضح أمري أكثر من هذا.. لو عرف أبي لمات في الحال، أكملت المشاهدة وقلبي يحترق في محاولة مني أن أتعرَّف على هوية أحدهم، نفسي يضيق أكثر فأكثر، دقات قلبي سريعة للغاية، من هؤلاء؟ اقتربت الصورة أكثر من وجه أحدهم، لم أتعرف وجهه، أما أنا لا أبدو كما أنا.. هناك أمرٌ غريبٌ!! «ما هذا! ما هذا؟! مستحيل.. مش ممكن!! نادر! مش مصدقة نفسي! ليه؟ أنا عملتله إيه؟ وإزاي ده حصل؟!»..الدموع تسقط من عيني وأكتم صوت بكائي كي لا يسمعني أحد. «إيه اللي بيحصللي ده؟ مين دول؟ وعملوا كده ليه؟!» عدت للظرف كي أعاود استكشاف ما به، يداي ترتعدان، سقط الظرف من يدي أكثر من مرة وعندما تمكنت منه وجدت ثلاث وريقات، أنا أعرف ذلك الخط، إنه لساندي، يبدو أنها يوميات أو ما شابه.. قررت قراءته دون تردد.

«ماري طبعًا اتفرجتي على الفيديو، ودلوقتي أنا مقدرة حالتك جدًّا، اقري كلامي للآخر، وأنا مش هطوِّل، لأن ده ممكن يكون آخر كلام ليا في الدنيا، أنا تعبت

من كل حاجة بقيت أتاجر في كل حاجة حتى نفسي، إنتي أكيد عارفة السبب، إني مدمنة. ماري أنا بعت حتى كِليتي، وبيع دمي عشان أجيب السم ده، نادر السبب في ده كله، نادر مش طبيعي يا ماري، شكله مريض، كله حقد وغضب وبينتقم من كل حاجة، من نفسه حتى، نادر كان بيعزم صحابه ينهشوا فيا، ويذلني، مش قادرة أفهمه، انتي ملكيش ذنب يا ماري هو حطك في دماغه من فترة طويلة، بيقول إنك السبب لإنك دمرتيه ودمرتي حياته، نادر كان بيقرا الكلام اللي بتكتبيه عن الدين وعن الإلحاد وفضل بيحاول يتجنب قرايته، وعلى طول كان بيشتم فيكي، لغاية ما دخل في جروب على النت عن الإلحاد وبالفعل ألحد، وحياته اتغيرت، مش هاكدب عليكي أنا باقرف منه، ولكن هو فضل ورايا أنا كمان لما حطمني، انتي حد كويس وصادق، صدقيني أنا مليش ذنب في ده كله، نادر استغل وجودك في الفندق لما كنتي مسافرة إسكندرية وكنتي كاتبة عالفيسبوك checked in وراح هناك وهو مقرر يذلّك انتي كمان، راح ومعاه مصور صاحبه من الشلة إياها اللي بيسهروا مع بعض، واتأكد من وجودك في الفندق وأخدوا الأوضة اللي جنبك، يومها انتي تقلتي في الشرب شوية، أنا للأسف كنت عارفة بس صدقيني مليش يد في حاجة ولا كنت أقدر أمنع حاجة، لما تعبتي أخدوكي على الأوضة اللي هما فيها وصوروك الفيديو، سالي كانت بتشك في نادر عشان سلوكه بقى مريب، راحت وراه إسكندرية عرفت إنه واخد أوضة جنبك وزيّ أي ست افتكرت إن بينكم علاقة، وبالفعل سبقت نادر، وراحت لصاحبه عشان تعرفي إن كلهم زبالة اشترت منه الفيديو، والكاميرا بتاعته وأخد منها خمستاشر ألف جنيه، نادر عرف واتخانق مع صاحبه وراح ضرب سالي لغاية ما فقدت الوعي، بس برده مقدرش يلاقي الفيديو، وهي هددته إنها هتفضحه وتفضح حبيبة القلب،

وهي تقصدك انتي، ومع الوقت أنا اتعرفت على صاحبه اسمه هاشم عماد، مش من القاهرة.. طبيب برده من قرية في بني سويف وعرفت بعد فترة إن سالي كانت بتنام معاه لإنها كانت معرفاه أن نادر ضعيف جنسيًا، وهو كمان عارف. وفضلوا مع بعض تلات سنين، والمقطف جوزها ميعرفش، ودي النقطة اللي خلت هاشم يسلملها كل حاجة لإنها هددته.

دلوقتي بتسألي أنا باعمل ده كل ليه؟ ماري أنا مكنتش بحبك، ولا باستلطفك، كنتي دايمًا بتبصيلي بقرف وكأنك بتستحقريني، حتى لو مش بحبك بس انتي إنسانة نضيفة في وسط قذر، حبيت أعمل حاجة نضيفة واحدة في نهاية حياتي ومن بعد ما ماما وبابا اتبروا مني، وكل اللي حواليا بيقرفوا يسلموا عليا حتى، أخدت الحاجات دي من قلب الخزنة بتاعة سالي، وده بالاتفاق مع هاشم وصممت أجيبهالك. أنا متأسفة يا ماري.. سامحيني مفيش كلام أقدر أعتذر بيه عن اللي حصل، ومتقلقيش مفيش نسخ تانية من اللي بعتهولك مع أي حد. سامحيني يا ماري وخلي بالك من سالي عشان مش هاقدر أوصف كم السواد اللي جواه ناحيتك».

انتهى الخطاب وساقاي ترتعدان، كأنّه كابوس قد ألمّ بحياتي، الأمر صدمة لا يمكن تصديقها، كيف حصل هذا؟! ليس أمامي الآن سوى تصديقها وإلا صارت حياتي جحيمًا، استيقظت كريستين لتذهب إلى المرحاض فلاحظت وجودي بغرفتها، اضطربت بعض الشيء وغادرت الغرفة بعد أن لملمت كل ما كان يحويه الظرف، واتجهت إلى غرفتي، نظرت إليَّ قائلة.. «إيه اللي مسهرك لحد دلوقتي؟».. سكتُّ لحظة ثم طلبت أن تتركني وحدي، أشعر أن جسدي بارد للغاية وينتفض بشكلٍ لا يمكنني معه السيطرة على نفسي، ذهبت إلى الفراش، والصبح يطلع على عيني المرهقتين، نال منّي هاجس الفضيحة، سيطر على كل روحي، كل ما أخشاه أن يمتلك أحدهم نسخة أخرى من هذا السي دي،

ولماذا عليَّ أن أصدق تلك المدمنة وألا يكون فَّخًا آخرَ لي من هؤلاء الملاعين ؟ نظرت إلى نفسي مستنكرة! حتّى أنتِ يا ماري تخشين المواجهة، تخافين الفضائح رغم معارضتك لكل من كان يستسلم للمغتصبين خشية الفضيحة، أليست هذه جريمة اغتصاب كاملة؟ لن يصدقني أحد، سيشاهد الناس الفيلم، وسيتمتعون، بل ويصير أيقونة جنسية، فلن يقف أحد بجانب امرأة رأوها تصرخ من النشوة، لن يعذر هذا الشعب امرأة تشرب الخمر بل سيتشفى فيها القاصي والداني، لن يفرّق أحد بين كونكِ تشربين الخمر وبين الذين يغتصبونك ويغتصبون أهلك.

لم يخطر ببالي أن هناك من يبغضني ثم تنال منه الكراهية إلى هذا الحد، أيعقل أن يأتي الغدر من أقرب النّاس؟ أو من أناسٍ لم تضعْهم يومًا محل شبهةٍ أو شكٍ؟ ولماذا وصل الحال بنادر إلى هذا الطريق؟!

تتبدّل أحوال النّاس حينما يلحدون مهما حاولوا التظاهر بغير ذلك، عراء نفسي كالذي انتابني قديمًا، وخاصة لمن كان يومًا يحاط بسورٍ ديني محكم يتحكم في كل ما يعمله أو يتصوره، سورٍ عالٍ يتم هدمه، أو سجنٍ بغيضٍ لنفسٍ مريضة تحلم بنعيم بالحرية وفي نفس الوقت تحرّمها، تخيّل أن يصير العبد حرًّا طليقًا بلا قيدٍ يحكمه، حينها تتبدّل الغايات، وكل شيء يصير مباحًا ما دام يؤدي الغاية مهما بدت قذارتها.

الساعة الآن السادسة صباحًا، الموافق الخامس والعشرين من يناير لعام ألفين وأحد عشر، وما زال النوم يفارقني، الصداع سيقتلني، لا أدري ما مصيري الآن، أناس لا عهد لهم ولا كلمة، ما الذي يمنع هؤلاء من ارتكاب أي حماقة؟ لا رادع ولا حائل أمامهم، ضميرهم أكبر كذبة أمام هواهم، لم يكف رأسي عن التفكير، الآن أتجرّع نتائج أفكاري، وضلالاتي القديمة، أتكلم عن سمو الروح،

والقيم التي من المفترض أن تبقى غاية البشر ولكن طباع النّاس ترتبط بنشأتهم وتقترن بالبيئة التي ينتمون إليها، الفكرة لا علاقة لها برادعٍ أو وازعٍ بقدر ما تكون خاصة بنشأة الضمائر، وللأسف نادر نشأ في جوٍّ ديني بعض الشيء، وهو الآن صار كما صار، على قدر إيمانه صار إلحاده، بل من الملاحظ أنّ أكثر الملحدين تطرُّفًا، كانوا في بادئ الأمر قبل إلحادهم متطرفين دينيًّا. هي طبيعة لم تتغير بتغير الفكرة، والنظرة للأمور كالرداء الذي تبدّله والجسد كما هو، بل إن تطرّف العقل البشري في مرحلةٍ ما يتساوى مع الحيوانات التي لا تحكمها سوى الغاية، وهي بالنسبة إليها ليست أكثر من الإطعام وإشباع الغرائز. أشعر الآن أن رأسي مخدّرٌ، لا أود فعل أي شيء، طريق يبدو موصدًا من بدايته، أود الإقلاع عن كل شيء، أن أصير تافهة، أنثى تريد مضاجعة رجل باسم الزواج كالبهائم بلا مشاعر، أو عاطفة، سأخبر أمي بأنني سأوافق على أول من يتقدّم لخطبتي، سأكون سلعة حتى لا أكون عكس التيار الجارف، تيار المعرفة حقًّا جارف ومهلك، وخاصة إن كنت في بحرٍ يهيج بطوفان الجهل، سأكون أخرى غير التي كنتُ. الهاتف يرن.. إنّه ثابت.. يبدو أنه يتصل ليذكرني بموعد التظاهرة التي يدعون إليها منذ فترة، ليس لدي طاقة كي أرد على أحد، استيقظ أبي من النوم، يبدو في مزاجٍ جيد رغم ليلة أمس الساخنة، أمي تبعته.. ولكن كريستين ما تزال نائمة، أحضرت أمي الفطور ثمَّ أتت إليَّ كي توقظني، ولم تلحظ أني لم أنم منذ البارحة، ثم دعتني كي أتناول الفطور، نظرت إليها وإلى أبي وقلت في نفسي «كم أنا محظوظة كي أحظى بعائلةٍ كهذه.. عين والدي تفيض بالحنان والرأفة والرغبة الشديدة في الحياة لأجلنا، أمي لا مثيل لها.. لا تفيها الكلمات حقها، آه لو تعلمون ماذا فعلت ابنتكم!».

لم أستطع تناول الفطور، ولكني اكتفيت بكوبٍ من الشاي بالحليب وذهبت إلى غرفتي، كنت أتثاءب، ورحت في سباتٍ عميقٍ، وكأن النوم أتى كي يسدل الستار على قلقي وبعض مخاوفي.

انتفضت من الفراش وأحضرت هاتفي بسرعة كي أعرف كم الساعة.. إنها الرابعة عصرًا، كثيرون اتصلوا بي، ثابت وحده قرابة عشر مرات، وبقية المكالمات أرقام لا أعرفها، ليس لدي الرغبة كي أقاوم هذه المرَّة، قد يتكلَّم المرء ألف كلمة، ولكن بلا فعل، ما الذي يمنعني أن أقاوم هؤلاء كي تتم معاقبتهم ومجازاتهم فلا تتكرر أفعالهم الدنيئة؟ أين ماري التي لم تكن تهاب الحياة؟!

صارت كغيرها من الضعفاء، قرار من الصعب تحمّل تبعاته إن قررت المواجهة، ربّما سأخسر كل شيء، وربما ينتهي الأمر برمته، لن أجازف ببطولتي كي أخسر أقرب النّاس إليَّ، وسأحاسب كل كلب أخطأ فيَّ أو حاول يومًا أن يغتصب ما لا يملكه. أمّي أتت إليَّ وفي يدها كوب آخر من الشاي بالحليب الدافئ، ليس لي رغبة في الطعام ولا الشراب، أصرَّتْ على أن أتناول ذلك الكوب وأن أخرج كي أجلس معهم، هي تظن أنني أحزن على سلمى.. نظرت إليَّ في محاولة لإشراكي معها في الحديث.. «زعلانة عليها ليه يا ماري؟ تستاهل.. عاهرة غارت في داهية»، لم أكن أتوقع ردة فعلي وكأنَّ الكلامَ موجهٌ لي.. «إزاي تستاهل يعني؟ إحنا هنفضل زي الحيوانات في الحكم على غيرنا! يعني إيه تستاهل يا ماما؟ حتى لو إيه محدش ليه حق يغتصبها، لو جوزها نفسه وهي مش عاوزة، أنا مستغربة إنك انتي اللي بتقولي كده وانتي اتعلمتي في أحسن جامعات في العالم، مش مصدقة بجد!».

ردت أمي وكأنها فرحت بما قلت، وهي تشعر أنها نجحت في كسر صمتي ثم اتجهت لتغير الموضوع تمامًا.. «شوفتي يا ماري البلد مقلوبة! فيه شباب عاملين مظاهرات في ميدان التحرير، وكل قنوات الأخبار بتنقلها، بيقولوا عاوزين يشيلوا الحكومة ويقيلوا وزير الداخلية!

استني أنا هوريكي»، أمي ذكية للغاية تعرف مفاتيح كل من بالمنزل، وذلك حال الأم تعرف الكثير، وتعاني أكثر.

أحضرت أمي الريموت كونترول ثم اتجهت لتشغيل القناة الإخبارية القطرية، إحدى أكبر شبكات الأخبار في العالم، المنظر في التلفاز مبهر، ويثير الرهبة والفخر، تحدثت لنفسي «هو الموضوع جد ولا إيه؟»، صاحت أمي بصوت غاضب «هما فاكرينها تونس؟ شوية عيال وهيلموهم دلوقتي» .

خبر عاجل على الشاشة: (حركة تحرير تدعو المواطنين للنزول للشوارع بالملايين...)، ثم تلا الخبر خبر آخر بأن الأحزاب الرسمية وجماعة حماية الدينية لن تشارك في تلك الموجة الاحتجاجية.

صوت الشباب يهتف (الشعب.. يريد.. إسقاط النظام.. الشعب.. يريد.. إسقاط.. النظام ارحل.. ارحل..) تجلجل الميدان. تبدّل كل شيء الآن، تبدو أنها شعلة الأمل أخيرًا أضاءت قلوب المصريين وعقولهم.

خبر آخر عاجل نقلًا عن وكالة رويترز: (اتساع رقعة المظاهرات في مصر لتشمل محافظات الإسكندرية والسويس والإسماعيلية، واشتباكات شديدة مع قوات الأمن المصرية). قلبي الآن يرفرف، أريد اللحاق بهم، تناسيت كل شيء، أريد اللحاق بالميدان الآن، كاد النهار ينقضي والليل يقترب والجو شديد البرودة،

غيرت القناة حتى أرى ما يقوله التلفزيون المصري عن الاحتجاجات، التليفزيون المصري يعرض حفلة غنائية لليالي التليفزيون من التسعينيات! والأجواء تبدو في أوج الاستقرار والبرود، رغم أن الأرض تحترق نارًا بالخارج!!

قررت أن أهاتف ثابت كي أرى ماذا يجري بالضبط، يرد ثابت ويبدو أنه كان يجري، صوت أنفاسه سريع جدًّا، قائلًا «ماري ليه مجيتيش؟ لازم تيجي، كل شباب البلد هنا». لم أعرف كيف أرد على ثابت.. أبدو قلقة للغاية، حاولت التظاهر ببعض الاستقرار وقلت «أنا جاية، انتم فين دلوقتي؟ قاعدين فين في الميدان؟»، رد ثابت والأصوات تعلو من حوله.. «إحنا في كل مكان هنا، الميدان مليان مستنيكي».. انقطع الخط، حاولت معاودة الاتصال لكن الهاتف يبدو مغلقًا، أو أنَّ الهاتف بحاجة إلى إعادة الشحن.

ذهبتُ لتبديل أغراضي كي ألحق بهم، وذهبت إلى غرفتي، ونظرت إلى ذلك الظرف الذي قلب حياتي رأسًا على عقب، خبَّأته في مكانٍ خفي حتى لا يصل إليه أحد، لكن باغتتني أمي حتى كدت أفقد الوعي، رأيتها خلفي دون سابقِ إنذار، تبدو غاضبة جدًّا، ثم تساءلَتْ بشكل فيه استنكار «رايحة فين يا ماري؟، رايحة مع «العيال» المخابيل دول؟، «رددت على أمي بعنف «ماتقوليش عيال، دول هاتشوفي هيعملوا إيه!».

تركت أمي الغرفة، وأوصدت باب الشقة بأقفال الطوارئ، ثم نظرت إليَّ قائلة «وريني هتخرجي إزاي، لأول مرة هاجبرك، مفيش خروج يا ماري من الباب، وأنا كلمت بابا كي هو جاي، لأنه هو اللي سابلك الحبل على الغارب يشوف اللي عاوزة تعمليه». لأول مرة أرى أمي تحدثني بتلك الطريقة القاسية، يدها ترتعش وهي تعنفني.

كريستين أتت من الداخل وأمي ما زالت تصرخ في وجهنا «أنا ضيعت عمري كله عشان أربيكم، معنديش استعداد أخسر حد منكم لأي سبب، ومفيش خروج من البيت خالص ولا حتى للشغل».

تبدو خائفة للغاية، لم أُرِد إغضابها وهي في تلك الحالة، ذهبت إلى غرفتي، ولكن كلما رأيتُ خبرًا على الإنترنت، استشطتُ حماسة واستعدادًا وشعرت بتقصير شديد؛ كلٌّ من في الميدان ينشرون صورًا وملصقات تدعو للفخر وكسر الخوف، ولكن هل يا ترى سيجدي ذلك مع بقية الشعب؟!

هذا الشعب استسلم للفقر والظلم منذ ما يقرب من ستين عامًا، لم يخرج أحد مطالبًا بحقوقه، عانقوا الجدران من الخوف، حتى المسرحية الأخيرة من الانتخابات النيابية التي زُورت علانية أمام أعينهم لم يرفع أحد عينه! هل يا ترى آن الأوان ليستفيق الشعب من السبات الطويل؟ الأيام القادمة ستثبت كل شيء، فبعد أحداث تونس لا يمكن استبعاد أي سيناريو للأمل بعد الآن. وبينما أتصفح رسائل الهاتف إذ برسالةٍ من سالي.

«عاوزة أقابلك يا ماري، معايا ليكي حاجة عاوزاكي تشوفيها».. تذكرت ما قالته لي ساندي، وقررت أن أبادلها نفس طريقة التفكير ثم أجبتها:

- طبعًا طبعًا يا حبيبتي، ممكن نتقابل، تحبي نتقابل في القسم ونشوفها سوا؟!

- قسم إيه يا ماري؟

- قسم الشرطة اللي في شبرا.

- هههههههه النهاردة عيد الشرطة واخدين أجازة.

أغلقت الرسائل بيني وبينها، فأنا الآن أفكر في طريقة للخروج من المنزل وسأحاسبها حسابًا عسيرًا، أمي لا تفارق الصالة لحظة واحدة، قررت مشاهدة التلفاز، قناة إخبارية هي المحطة الفضائية الأكثر انتشارًا ورغبة في نقل ما يحدث من قلب الميدان، الساعة قاربت العاشرة مساءً ولم تعلن الحكومة أي بيان حتى الآن، ولكن خبر عاجل:

(سلطات الأمن المصرية تفرق المظاهرة بالقوة وباستخدام خراطيم المياه)، رسالة تفيد بأن هاتف ثابت صار متاحًا الآن، في الحال اتصلت به، وأخبرته بأن أمي أغلقت الأبواب وأنا أفكر في حيلة للخروج، سكت ثابت لحظة ثم ضحك وقال «ماتزعليش.. والدتك يا ماري مش هتعرفي هي قد إيه خايفة عليكي غير لما يكون عندك ولاد."

شردت بذهني لحظة في الجملة التي قالها ثابت، وتساءلت «هل حقًّا سيصير لي أسرة وأولاد؟»، جملة مسّت قلبي الخائف، لم أشعر براحة لوقع جملة عليَّ ذات يوم بهذا الشكل.. ثابت يكرر:

- ألو ألو ماري.. سامعاني؟

استعدت ذهني وفي لحظة واحدة قلت:

- نعم.

ثابت يضحك ثانية، ويقول:

- ياه انتي مش معايا خالص، عالعموم لو والدتك وافقت تخرجك احنا في الصينية في قلب الميدان معسكرين.

تداركت الأمر بسرعة وأخبرته بأني سألحق بهم في أقرب وقت وأنهيت المكالمة.

جرس الباب يدق، يبدو أنَّ أبي قد عاد، استرقت السمع من وراء الباب عن الحوار الذي يدور بين أمي وأبي، ومن ثقب الباب رأيت والدي يعانق أمي وهي تبدو مضطربة وخائفة، أصابتني القشعريرة، دمعت عيني لما رأيت أمي تهدأ، أيقنت حينها أنه مهما كانت قوة المرأة، فإنها تذوب كالجليد بمجرد عناقٍ صادقٍ، لا تريد نقاشًا أو جدلًا، خرجت من الغرفة، سلّمت على أبي، لم يبادلني الحديث أو يتطرّق حينها للموضوع، فهو رجل ذكي للغاية، فقد اعتاد دومًا أن يحدّثني وحدي، الأمر يبدو صعبًا للغاية، قد لا يمكنني أن أغادر المنزل الآن، صوت ضجة كبيرة يأتي من النافذة، جريت إلى النافذة فإذا به تجمع كبير أمام العمارة، لا نعرف ما السبب، خرج أبي مسرعًا ليرى ماذا حدث، ثم ما لبث أن عاد إلينا مرة أخرى، يضرب كفّا بكف، قائلًا «أم سلمى انتحرت، شنقت نفسها بحبل الغسيل». ارتعدت أطرافي، ولكن ليس هناك مصيبة أشد سوءًا من مصيبتي، كيف يقرر الإنسان أن يعلن النهاية في لحظةٍ ما من حياته؟ ولم لا يحاول البعض منا مواجهة مصيره وقدره؟!

أم سلمى كانت مثلًا للمرأة الفاسدة التي خانت شريك عمرها وتاجرت بلحم فلذة كبدها، إذن فلا قياس على تلك النوعية من الناس، فليس لديهم دومًا ما يخسرونه، وليس لهم من يحزن عليهم أو يَرْثاهم بكلمة، فالحياة والموت سواء، ولكن لم في تلك اللحظة بالتحديد؟ ناديت أبي ثم سألته:

- مين قالك إنها انتحرت؟ مش يمكن تكون اتقتلت؟!»

رد عليَّ أبي ساخرًا:

- الأفلام بوظت دماغك يا دكتورة، إنتي في مصر مش في شيكاغو.

ذهب أبي إلى الباب ثم أوصد الأقفال بنفسه، وكأنني صرت في حبس انفرادي

حتى لا أذهب إلى الميدان ثم ذهب إلى غرفته، ذهبت خلفه، لكني وجدته يدعو ويصلّي كأنني عدت طفلة.. كنت دومًا أختلس النظر لأبي وهو يصلي، في لحظة ما وجدت أبي يبكي بكاءً حارًا قائلًا «اللهم إنك ربنا وإلهنا، ارأف بنا، ولا تطرحنا في بحار المهالك ولا عقاب المسالك. لكن نجنا واحفظنا واسترنا. وأنهضنا من الملل والضجر والتواني والكسل. ولا تدع العدو الشيطان يطغينا بسعة الأمل. بل نبه عقولنا، وأيقظ قلوبنا من نوم الغفلة وتسويف العمر باطلا. اللهم اترك آثامنا واصفح عن زلاتنا. ولا تذكر خطايانا ولا سيئاتنا، ولا تغضب علينا ولا يدم غضبك إلى الأبد. ارحمنا يا رب ثم ارحمنا، فإننا ضعفاء ومساكين، وفي بحار الخطايا غارقون.. فإليك نصرخ ولك نسجد وبك نعترف وإليك نرغب. لا تقطع رجاءنا يا سيدي من رحمتك، ولا تغلق باب رحمتك في وجوهنا. بل بفضلك خلصنا، وإلى رحمتك وفقنا، وصوتك الفرح أسمعنا. المجد للأب والابن والروح القدس كما كان في البدء والآن وعلى الدوام وإلى دهر الداهرين. آمين". أطفأ أبي الشمعة التي كانت تضيء صورة المسيح والعدرا أمامه، ثم نادى أمي في تلك اللحظة، قررت العودة إلى غرفتي كأنني عائدة من المرحاض بحجة أنَّ مرحاض غرفتي به بعض الأعطال، وفي حاجة إلى صيانة، نظرت إليَّ أمي رافعة أحد حاجبيها بتعجب قائلة «روحي نامي يا ماري ربنا يهديكي».

صلاة أبي ترن في أذني، شيء ما علق بداخلي، لا أقدر على دفعه، إنه قلق الأب يصلّي لأجلي، رغم علمه أني لا أثق بما يقول! ليس لدي ما يفسر أحوال أبي سوى أنه يؤمن بها، ولها في دواخله أثر لا يفسره غيره.

الهاتف يرن في تلك الساعة المتأخرة، كتمتُ صوت الهاتف ثم ذهبت إلى الغرفة كي أرد.. إنه ثابت، بماذا سأخبره؟ هل سأتحجج مرة أخرى بأني قيد الحبس من

أمي كالأطفال؟ لكن رددت عليه:

- أهلًا ثابت إزيك.. طمني عليك وقولي إيه الأخبار؟

صوت ثابت ليس كالسابق، يبدو قلقًا للغاية:

- ماري أنا الحمد لله، بس الأمور مابقتش تمام، فيه قوة نزلت رشتنا بخراطيم الميه، وقنابل مسيلة بكثافة وسلطوا علينا عساكر الأمن المركزي، وفيه واحد مات من قنبلة مسيلة للدموع من الاختناق، وحوالي عشرة حالتهم خطيرة، الحكومة بدأت تاخد الموضوع جد، ماري أنا بعتلك رقم أهلي تكلميهم تطمنيهم عليا، مش هاقدر أكلمهم أقولهم أنا فين، وخلي بالك من نفسك.

رددت وقلبي يخفق بالخوف والقلق عليه؛ لم يتكلم ثابت بهذه الطريقة يومًا:

- ثابت قلقتني. إنت فيك أي حاجة؟ طمني عشان خاطري.

في تلك اللحظة انهار الجليد الذي أحاط قلبي، أو الذي تحصنت به ضد الرجال طيلة عمري، سقطت كل أقنعة التخفي أمام خوفي عليه، أود أن أحتضنه الآن وأعانقه، انهالت دموعي وأنا أكرر كلامي قائلة:

- عشان خاطري طمني.. إنت كويس؟

ضحك ثابت فحاولت التظاهر بغير ما بدا مني ثم رد قائلًا:

- ماري متقلقيش، أنا هنا وسط أفضل ناس جابتهم البلد واحنا بنبني، ومفيش حد بيبني بيخسر، هنخلي كل العالم يفخر بشوية العيال.. زي ما بيقولوا.

اطمأننت بعض الشيء وجففت دموعي وأنفي، واتفقنا أن يُبقي هاتفه متاحًا

طوال الوقت كي أعرف تطورات الميدان وأطمئن عليه، لأول مرة أشعر بأنَّ لي شيئًا أملكه وأخاف عليه، ما خفت على شيء ولا أحد قبل ذلك مثل خوفي عليه. لم أفعل شيئًا غير أني ذهبت إلى فراشي فالجو بارد للغاية وشديد المطر، تلحّفت كي أشعر بالدفء، ونظرت إلى سقف غرفتي، ثم تساءلت «أليس من المبكّر أن أمُرَّ بتلك المصائب؟ أم إنني من أبحث عنها دومًا؟ لا أبدو محظوظة في كل شيء، أبذل أضعاف الجهد عما يبذله غيري كي أبدو طبيعية، أو أحيا بشكل طبيعي، إنَّ حياةً كهذه لا ترقى لأن تطمح إليها أو تود التلذذ بها.

بالفعل أرسل إليَّ ثابت رقم والده، حفظت الرقم على هاتفي كي أهاتفه غدًا، سكَتُّ للحظة؛ صوت مشاجرة كالعادة تأتي من الشقة المجاورة، الصوت مرتفع للغاية، فتحت نافذتي.. بخار الماء يخرج من فمي من شدة البرد الذي لسع وجهي الدافئ، استرقت السمع، يبدو أنها مشاجرة بسبب خلاف مادي، الصوت صار واضحًا جدًّا، يبدو أحدهم يتحدث عن نادية القتيلة. وإذا بمن يتكلّم يقول «إحنا ما اتفقناش نقتلها يا سمير، أنا قولتلك أنام معاها وأصورها وأذلها، وأنا في نظر الناس مسيحي وهي مسلمة، لو اتكلمت الناس هي اللي كانت هتقتلها، قتلتوها ليه! أنا مش بتاع قتل يا أبو طشة، ينعل اليوم اللي عرفني بيكم!».

هذا الصوت أعرفه.. إنه سمير أبو طشة بواب عمارتنا السابق. شكوكي تزايدت.. ما الذي يجمع بين سمير وهذا الشاب المريب؟! ما زلت أنصت بعناية، عادت المشادات الكلامية مرة أخرى، سمير هذه المرة هو من يعلي صوته غاضبًا «زعلان عليها ليه؟ مَرَة شمال جادرة وهي اللي جتلت جوزها وأنا كنت عارف، نامت مع طوب الأرض، وانت نمت معاها هي وبنتها، ولا نسيت؟! بص يا أستاذ أنا وانت ننفذ الكلام وملناش رأي واصل، أنا باشتغل موصلاتي، وانت

لا مؤاخذة دكر بط، دلوك انت فهمتني، ونصيحة من أخوك متخليش نفسك توديك للهلاك يا ود عمي، خليك في شغلك مليكش صالح بحاجة تانية».

أغلقت النافذة، شعرت بخوف شديد، كيف نحيا وسط هذه العصابة؟ يبدو أنهم مجرمون خطرون، ولديهم من يقف بجوارهم ويخطط لهم، ولكن ما دام الأمر كذلك لماذا أخبر سمير أبي عن نادية وسلوكها؟ أهي خدعة أم هذيان وقت الصدمة؟ أم أنَّ في الأمر شيئًا آخرَ؟! الفضول يقتلني، فتحت النافذة مرة أخرى، صمت تام وبعدها أطفئت الأنوار، جريت أمام باب شقتنا أنظر من العين السحرية.. وجدت سمير يجري ولم ينتظر حتى باب الأسانسير، ارتعدت من الخوف، ذهبت إلى أبي كي أوقظه، وبالفعل أيقظته وأخبرته بما حدث، أصرت أمي على ألا يخرج أحد منا خارج المنزل، قرر أبي إخبار الشرطة، فهو يعرف مأمور قسم شبرا معرفة جيدة، الوقت متأخر، تحدَّث أبي مع الضابط، هم يعرفون العمارة جيدًا.. أصبحت أكثر عمارات المنطقة شهرة بعد تلك الحوادث المتكررة.

حضر الضابط ومعه قوة من القسم لمداهمة الشقة المجاورة، ولم يجدوا أحدًا بالشقة، نظر الضابط لأبي نظرة لومٍ وتعنيفٍ، ولكنَّ أبي اعتذر له وأخبره أن أسرته تعاني بسبب ما حدث وطلب تقدير الموقف الذي يعانيه سكان العمارة، انصرف الرجل ومن معه من قوة، وفجأة لم أرَ سمسم، بحثت عنه في كل مكان لم أجده، الصبح يطلع، والشروق غريب، وأنا سيصيبني الجنون، أتت أمي وعينها يملؤها الحزن، ترتدي قفازًا تحمل فيه سمسم مذبوحًا، لم أتمالك نفسي، أصابني دوار فقدت الوعي ولم أدرِ ماذا حدث. استيقظت من نومي، الساع تمام الحادية عشرة صباحًا، ولم يفارق عيني البكاء، لم يكن مجرّد كلب أليف، كان يفهمني، وقضى معي ما يقرب

من ست سنوات، احتضنتني أمي بشدة، نظرت إليها وأنا أصيح باكية «مين دول يا ماما ؟ وعاوزين مننا إيه؟ المقصود مش قتل سمسم، المقصود أنا. هم بيخوفوني، مين دول يا ماما؟»، أمي كلها خوف وحزن، يدها تداعب شعري، وتقول «أنا سمعت الظابط من شباك المطبخ بيتكلم مع حد في الشقة، الغريب إنه قال ملقاش حد في الشقة، أنا الفار بيلعب في عبي، أبوك بنفسه شك فيه كمان». انتفضت من حجر أمي، ثم هببت بسرعة وفتحت باب شقتنا، ولم تستطع أمي ملاحقتي، وطرقت باب الشقة المجاورة، وبعد طرقٍ شديدٍ على الباب، قام الشاب بفتح الباب، ورأيت آثار ضرب مبرّح عليه، ثم نظر إليَّ وهو بالكاد يفتح عينيه «اتفضلي يا دكتورة»، حاولت أمي منعي لكنها لم تستطع، نظر الشاب إليها وقال «ماتخافيش يا مدام هاتكلم أنا والدكتورة خمس دقايق وترجعلك»، نظرت إليه ثم قلت «انت عاوز مننا إيه؟ أنا متأكدة إني شفتك؟ عاوز مني إيه؟». يبدو الشاب في حالة مزرية لكنه دعاني للدخول، وقال بتهكم «محدش بيقتل حد في عز النهار.. اقعدي نتكلم». دخلت معه، رائحة الشقة كريهة من آثار التدخين، لا يوجد أحد بالداخل، سكت الشاب لحظة ثم قال «ماري نبيل مرقص الصايغ.. إنتي مش فاكراني فعلا! ده احنا اتحبسنا سوا، فاكرة أيام جمع التوقيعات بتاع البرعي؟ أنا فادي وديع بتاع الكاميرا واليفط»، أخيرًا تذكرت، كان أحد الشباب في حركة «تحرير» الثورية، وبالفعل تم القبض علينا بعد جمع التوقيعات لدكتور أحمد البرعي قبل مجيئه إلى مصر، ولكن ما الذي بدّل أحواله؟! الشاب لا يبدو بهذا السوء الذي ظننته، سكت لحظة، وقدّم لي كوب ماء، ثم طلب إليَّ أن أهدأ:

- دكتورة ماري.. أنا هقولك كل حاجة، لغاية هنا وخلاص.. أنا مبقاش فارق معايا كله محصل بعضه. ولو مكنتيش جيتي أنا برضه كنت

هاتكلم، بس افتكري إن الكلام ده ضريبته كبيرة يا دكتورة على حد زيك، لو موافقة أنا هاتكلم.

دون تفكير.. فلا يوجد من حالته أسوأ من حالتي، أشرت له أن يكمل..

أكمل فادي حديثه قائلًا:

- اتفقنا.. انتي تعرفي شوكت الخفيف؟

- الوزير!

- أيوا هو.

- أنا أعرف إنه وزير بس.

- أنا قصدي عارفة بيشتغل إيه؟

لم أعرف كيف أرد، قال هو دون أن يدع لي فرصة إكمال الرد:

- أنا أقولك، شوكت الخفيف هو أكبر وأهم رجل في نظام الرئيس رجل السرير، اعذريني في الكلمة هاكون جريء شوية، رجالة شوكت دول ماسكين زلل على كل اللي في البلد، أبويا كان ضحية ليهم، انتي عارفة إزاي؟ صوروه هو وأمي على سريره في أحد الفنادق وزلوه بالفيديو ده، وقالوله هينشروه! وفي المقابل إيه؟ قالوله لم ابنك وبنتك، عارفة عملوا إيه في أختي؟ خلوا جوزها يصورها عريانة ويديهم فيديوهات ليها.

نظرت إليه ثم قلت بلهجة استنكار:

- إنت عاوز تقول إيه؟

نظر الشاب وبالفعل سقطت دموعه، ثم تابع قائلًا:

- يا دكتورة أنا خريج سياسة واقتصاد، الأول على دفعتي أربع سنين، متعينتش في الجامعة ولا في أي وظيفة، أبويا بيشتغل صيدلي وأمي مدرسة.. كان حلمه إني أتعين في الجامعة بس أنا مش قد المقام، أنا عايش من هوايتي.. كنت بحب التصوير والخطوط، وباكتب يفط وباسترزق منهم، وكنت زيك عندي حلم أشوف بلدي من غير ظلم، كان الجزاء اتحبست واتبهدلت، ولما خرجت من الحبس اللي بدون أي سبب انضميت لحركة «تحرير» وسافرت على حسابهم أخدت كورس في بلجيكا عن طريقة إدارة الثورات لمدة ست شهور، شُفت ناس بتتعامل مع البني آدم مالهاش علاقة بدينه ولا بلونه ولا أبوه مين، وأنا راجع قبضوا عليا تاني في المطار، واتهموني بمحاولة قلب نظام الحكم، وتأجيج الفتن، تخيَّلي! قعدت شهر محبوس ولا عارف أنا محبوس فين ولا عارف أطمن أهلي عليا ولا هم عارفين حاجة عني، الظابط آخر يوم جالي، ونادى لواحد اسمه عوض النطاط وسابلي سي دي أتفرج عليه، تخيلي يا دكتورة السي دي لأبويا وأمي، ومقاطع لأختي وهي عريانة مع زوجها، عمرك شوفتي وساخة كده؟

تابع فادي حكايته وأنا أنصت إليه باهتمام، قلقت أمي عليَّ وبالفعل طرقت الباب فأخبرتها أني بخير، كي يكمل ما يقوله، أمي ما تزال تطرق الباب بشدة، خرجت إليها وطمأنتها عليَّ ثم قررت أن أعرف حكايته. نظر فادي إليَّ نظرة فيها توقير وندم ثم قال:

- أبويا جاله جلطة، ووصاني إني أسيب حركة تحرير وبالفعل سيبتها، لازم عشان أعرف أصرف على البيت، ودوا والدي المكلف جدًّا وخصوصًا إنه مايمتلكش غير الصيدلية اللي كمان مكانها بالإيجار، أخويا الصغير

عنـده حـداشر سـنة ولسـه في التعليـم، لازم كنـت أشـتغل، تخيّـلي إنهـم جـولي لحـد البيـت، وقدمـولي عـرض مـش بيخـيروني فيـه، بيقولـولي إني أشـتغل معاهـم، عارفـة العـرض إيـه يـا دكتـورة؟ إني أشـتغل دكـر البـط.

نظرت إليه بتعجب فلا أدري ما يعنيه بـ »دكر البط« ثم قلت:

- يعني إيه دكر البط دي؟

سكت لحظة ثم نظر للأسفل ولم يرفع عينيه في وجهي:

- دكـر البـط، يعنـي أنـا الـلي بنـام مـع كل الـلي بيضايقوهـم. ويصوروهـم وبكـده يضمنـوا سـكاتهم طـول العمـر، الناشـطات الـلي انتـي شـايفاهم دول كلهـم ليهـم سـيديهات وملفـات، مـش هـما بـس.. فنانـات وغيرهـم، بيكـسروا عنيهـم عشـان يضمنـوا ولاءهـم طـول العمـر، وكـمان يسـتعينوا بيهـم في مهـمات خاصـة بالسرايـر، يعنـي الموضـوع بيبـدأ بتصويـر حـد لـه قـدرة عـلى التأثـير سـواء ممثلـة أو ناشـطة، وبعـد كـده تبقـى واحـدة مـن فريـق السرايـر وماتقـدرش ترفـض.. وهلـم جـرًّا، أنـا لوحـدي عامـل حـوالي تلاتـين فيلـم مـع نـاس مهمـة ونجـوم شـباك، دايـرة قـذارة مكتملـة الأركان.

دار في نفـسي تسـاؤل.. كيـف يقـدرون عـلى تصويـرهم؟ السياسـة قمـة القـذارة. باغتـني فـادي قائـلًا:

- طبعـا إنتـي بتسـألي بنصورهـم إزاي؟ سـؤال إجابتـه كلمـة واحـدة يـا دكتـورة، مفيـش حـد معنـدوش غلطـة أو لحظـة ضعـف، إحنـا بقـى بنصطـاده في الوقـت ده، وخاصـة وهـما شـاربين وسـكرانين وكلـه بيكـون مترتـب ومحبـوك، مـا بالـك إن كل دول مليانـين عيـوب، ومـا خفـي كان أعظـم!

رددت وأنا أستشيط غضبًا:

- يعني إيه تدوا لنفسكم حق انتهاك حق غيركم لمجرد إنكم تمسكوا عليهم زلة؟!

سكت فادي ثم نظر إلي عابسًا وجهه:

- واحنا ذنبنا إيه يا دكتورة؟ بيا بغيري هيتصوروا، دايرة وبتلف وكله بييجي دوره، ودول كلاب مع بعض، لو عرفتيهم محدش فيهم هيصعب عليكي ولا هتزعلي عليه. لو انتي مكاني هتقبلي لو اتعرض عليكي مرتب تلاتين ألف جنية شهريا ومجبرة تعملي كده، بدل الشحاتة اللي كنا بنشحتها، وأحسن أكل ومدارس وأفضل فنادق، بقيت أعمل زيهم وأتمتع بالحياة زيهم، جات عليا يعني؟!

نظرت إليه نظرة احتقار وحينها قررت المغادرة، طلب إليَّ الجلوس لحظة، أبيت في البداية ولما أصر انتهزت الفرصة.. قلت له:

- هاقعد بشرط تجاوبني على سؤال محيرني.

ترك يدي ثم قال:

- أنا هقولك كل اللي عايزة تفهميه.

- قولّي إيه حكايتك مع سلمى؟

نظرت إليه كي أرى تعابير وجهه، لم يضطرب لحظة ولكنه سكت ثم أردف قائلًا:

- عاوزة تعرفي إيه؟

- كل حاجة.

أخذ يضرب كفًّا بكفٍّ ثم ضحك ساخرًا وقال:

- إنتي طماعة! في عشر دقايق قدرتي تعرفي مني حاجات ممكن تقضي على حياتي، بس أنا هقولك، يلا هيسخطوك يا قرد. جات على دي؟!

- الموضوع ده بالذات هو اللي قلب راسي وعاملي صداع واتسبب في كل اللي بعانيه دلوقتي يا أستاذ فادي.

أشعل سيجارة وتناول بقايا فنجان القهوة أمامه -يبدو باردًا- ثم تابع قوله:

- يا دكتورة.. أم سلمى دي إبليس في صورة بني آدم، نادية فريد ده اسمها.. من إسكندرية، دي هربت من أهلها عشان غلطت مع حبيبها الأول وحملت منه، ولما جت القاهرة الوحيد اللي ستر عرضها عم أحمد اللي قالولي إنه بيبع غزل البنات. الكلام ده من لسانها لأنها كانت بترسم عليا. القصة بدأت لما طلعتلي مرة الضهر، لابسة عباية ضيقة مفصلة جسمها، ولا مؤاخذة ماكانتش لابسة حاجة غيرها وقعدت تتلزق فيا بحجة تنضيف الشقة، لغاية ما دخلت تنضف أوضة النوم، أنا دخلت وراها لقيتها خلعت اللي لابساه ونايمة عريانة عالسرير، أكيد إنتي عرفتي الباقي، نادية دي عمرها لسه ٣٧ سنة، كانت عاوزة توصل، هيا عرفت إني ليا علاقة بابن الوزير، كنت بجيبله التموين بتاعه، سيادته مدمن وأنا باسترزق كل أسبوع أروح منطقة على طريق إسماعيلية الصحراوي أجيبله اللي فيه النصيب، الواد ده بيصرف فلوسه كأنها تراب بيبعزقه، وكما تدين تدان.. كنت بانتقم من وساخة أبوه، بس إحنا قدام الناس صحاب، نادية كانت عاوزة توصل له بأي شكل وكانت دي علامة استفهام كبيرة! راحت لسمير أبو طشة لأن سمير

الموصلاتي بتاعه، هو اللي بيجيبله الحريم يعني، سلمى كانت عارفة إن أمها مشيها بطال، طلعتلي يوم كأنها بتشتمني وتصرخ في وشي، أنا بصراحة عجبتني، أنوثة ورقة، سلمى جميلة وبتعرف تلبس رغم إنها بنت البواب، المهم فضلت وراها ولقيتها عندها استعداد، مرة في مرة تطورت العلاقة ونمت معاها، بس اكتشفت إن دي مش أول علاقة ليها، سألتها وعرفت إن سمير الكلب اعتدى عليها وهيا طفلة، ومقالتش لحد ولا حتى أمها تعرف، وسمير مفكرها نسيت لأنها كانت طفلة صغيرة خمس سنين زي ما قالتلي، صدقيني اتعلقت بيها، بس أمها فضحتها، وهي كانت قاصدة تفضحها عشان تبعدها تمامًا عني، بحجة مسيحي ومسلم والكلام الفاضي ده، وفعلا نجحت.

قاطعت فادي وكلي عجب:

- كل ده بيحصل حوالينا ومنعرفش ولا حاسين بيه!

ضحك فادي وقال

- انتي مستعجلة على رزقك، المهم يا دكتورة، اللي عقلي أنا ماستوعبوش، نادية ميطلعش اسمها نادية، اسمها مَلَكَة إبراهيم وكانت بتشتغل في الاستراحة بتاعة شوكت الخفيف، وهو اعتدى عليها أو نام معاها ماعرفش.. وسلمى دي بنته! الكلام أكدهولي حد من الناس اللي أعرفهم، والواد اللي معاه ده ابن مراته بعد ما طلقها من زوجها واتجوزها وبقية ولاده من زوجته الأولى اللي سابته وقاعدة في اليونان ومعاها الولاد، طفشت منه ومن قرفه، سمير كان عارف لما راحتله سلمى تسأله عن ابن شوكت الخفيف قال عليها مشيها بطال

وادعى إنه عمل معاها علاقة، هو قالي أنا كده ميعرفش إنها مرسياني عالقصة كلها، ومرضيش يوصَّلها لابن الوزير خوفًا على حياته هو، شخص فيه كمية كذب وقذارة ماتتوصفش، هو عارف نادية من فترة طويلة وكان بينام معاها، سلمى حكيتلي على كل حاجة، وهيا أصرت توصلهم عشان توصل لأبوها، وصلها لعيال تانية مؤذيين، اغتصبوها لحد ما ماتت، وهو يكون بعيد، نادية لما بنتها ماتت اتجننت وكانت هتتكلم.. أول ما فكرت بس قتلوها، ومتسألينيش مين عشان ماعرفش بس سمير الكلب هو اللي نفذ.

تعابير وجهي كلها مشمئزة:

- يااااه إيه ده؟ إيه القرف ده؟ إيه البلد دي؟!

أرهقني ما سمعت، أصابني إجهاد غير عادي، لا بد أن أعبر من تلك النافذة، كل هذا السوء يجري ولكن بالخفاء، إن تلك المجتمعات التي توصف بالمتدينة هي أكثر المجتمعات تعقيدًا وارتكابًا لما يعد محظورًا لديهم، ولكن كل شيء في الخفاء. حقًّا من يرى مياه البحار يظن أنها لا تأوي القروش، ولكن من قرر الغوص قد لا ينجو مما رأى.

قلت لفادي:

- وإنت هتعمل إيه دلوقتي؟

- زي ما الدنيا تودّيني، شكلها هانت، وكل واحد هياخد حقه.

سكتُ لحظة فلم أُرِد سماع شيء آخر، أود العودة إلى الشقة، بالفعل أوصلني فادي إلى الباب وخرجت، وفيما أخرج لمحت سمير يترجل على السلم بسرعة.

أخبرت أمي حينها بأني سأذهب إلى ميدان التحرير وإلا قتلت نفسي، الغريب في الأمر أن أمي لم تعد تعارضني، سكتت ولم ترد عليَّ، أخبرت والدي ثم قررت اللحاق بثابت. اليوم هو السابع والعشرون من يناير والجو دافئ بعض الشيء، أخذت أمي تساعدني في تحضير أغراضي بل صنعت لي بعض الطعام، موقف أمي تغير بشكل جذري، لا أعرف علّة التغيير! أحضرت هاتفي ثم طلبت رقم ثابت، رد عليَّ في الحال وهو يضحك وقال:

- طبعًا نسيتي تكلمي والدي.

اعتذرت بشدة له وأخبرته بأنه لو علم ما حلَّ بي لعذرني، ولكني أخبرته بأني في الطريق إليهم، لن أذهب بالسيارة، استقلَلْتُ تاكسي كي يوصلني إلى هناك، وصلت إلى ميدان التحرير وأمام المتحف المصري استوقف التاكسي أحد الضباط قائلًا «على فين يا اسطى؟»، بسرعة شديدة سبقتُ سائق التاكسي في الرد «على كنيسة قصر الدوبارة يا فندم، وادي البطاقة»، بمجرد نطقي لكلمة كنيسة، فتح الضابط الطريق، هم يخافون أن يقال إنهم يضطهدون الأقباط، أعطاني بطاقتي وانصرفت، تعجب السائق ولم يتكلم. أخيرًا وصلت إلى الصينية قلب ميدان التحرير، حملت حقيبة كتفي وأعطيت السائق أجرته، ونزلت إلى أرض الميدان، وكأن الهواء تبدّل فصرت في أرضٍ أخرى، السماء دافئة، والكون يحتضن كل هؤلاء الداعين إلى الأمل، الطامحين إلى الحرية، وطن آخر غير الذي نسكنه أو يسكننا، أرض يملؤها الأمل وحب الحياة وصفاء النفوس، كل هؤلاء قرروا التضحية بأنفسهم من أجل وطنهم وبلا مقابل.

تجمعات في كل مكان، نظرت أمامي إلى مسجد عمر مكرم أحد المعالم الشهيرة بالقاهرة وبجواره مجمع التحرير، الميدان ليس ممتلئًا ولكنها تبدو مجموعات، لا توجد

ورقة ملقاة على الأرض في الميدان، شباب يرتدون قفازاتٍ ويتولون نظافة الأرض، وآخرون يعزفون الأغاني الوطنية، وآخرون يرسمون على الحوائط، قررت في تلك اللحظة أن أهاتف ثابت ولكن الهاتف لم يرد، أذان المغرب.. والليل قد قارب على الدخول، اجتمع أغلب من في الميدان للصلاة، واصطفوا لأدائها كما يصليها المسلمون، قوات الأمن تحيط بالميدان من كل جانب، جنود الأمن المركزي استعدوا وأشهروا دروعهم الواقية وعصيَّهم المطاطية، ولكن مشهدًا آخر عظيمًا لا تصفه الأقلام، كل المسيحيين في الميدان قاموا بعمل سلاسل بشرية حول المصلين لحمايتهم من غارات الشرطة، دمعت عيني ورقَّ قلبي للغاية، هؤلاء الشباب هم أمل هذا البلد.. هؤلاء الذين يتم تهميش أدوارهم، ونهب حقوقهم، ما هذا الجمال! منظر بديع! كل وكالات الإعلام تصور بعدساتها، وينقلون الحدث لحظة بلحظة، أشعر أننا بحقٍّ على موعد مع التاريخ والمجد، الناس خارج الميدان لا تدري بما يحدث بداخله، صرت الآن أمام مجمع التحرير.. ذلك المبنى العتيق الذي يعج بالمواطنين كل يوم من جميع أنحاء الجمهورية، الآن شاغرٌ ليس به أحد، اتصلت مرة أخرى بثابت.. على ما يبدو كان يصلي، وبالفعل رد على الهاتف وأخبرته بمكاني ليلحق بي، الآن شرد ذهني للحظة، ما كل هذا يا ماري؟ وكأنني أعرف ثابت منذ ألفِ عامٍ، كيف تولَّدت تلك الثقة في تلك الفترة القصيرة؟ لأولِ مرةٍ أترك لقلبي العنان، فلقد جربت كل شيء، فليذهب المنطق إلى الجحيم!

وفيما أنا أواجه أفكاري، إذا بيدٍ تطرق كتفي الأيسر وصوته خلفي، تلك اللحظة شعرت كأنَّ زلزالًا يعصف بأركان جسدي كله، ولكني تمالكت نفسي، ناظرةً نحوه، ونسيت كل شيء، ذاكرتي توقفت كالساعة المعطوبة، نظرت خلفي.. الآن عيني في عينيه، أحدق النظر فيه وشفتاي ترتعدان، وأنا في حاجةٍ شديدةٍ إلى عناقه، قاطع صمتي باسمًا:

- «إزيك يا ماري؟ ده النهاردة عيد إنك شرفتينا.

هدأت بعض الشيء ثم قلت:

- عامل إيه يا ثابت؟ والناس هنا عاملة إيه؟

تراجع ثابت خطوة للوراء وقال رافعًا حاجبه الأيمن:

- الناس بخير هنا.. كلهم بخير.

ضحكتُ حينها، وفهمت ما يريد قوله.. ثم قلت:

- وإنت بقى عامل إيه؟

نظر ثابت إليَّ نظرة دافئة ثم قال:

- أنا بقى مش هقولك.

تعالت ضحكاتنا في وقت واحد، ثم اصطحبني إلى المجموعة التي أتى بصحبتها، أخذ يعرّفني عليهم فردًا فردًا وهو فرحٌ للغاية، عيناه تضحكان، وكأنه كان في شوقٍ لتلك اللحظة منذ فترة، قاطعني أحدهم وعرض عليَّ كوبًا من الشاي الدافئ، وافقت وكنت حينها أشعر بالجوع، وشهيتي للطعام باتت في زيادة، أبرز الحاضرين وأكثرهم تصورًا للأحداث هو نائل رحيب.. وهو شابٌّ ثلاثيني قصير القامة يعمل مديرًا إقليميًّا لشركة برمجة عملاقة، يبدو طموحًا للغاية، لديه ثقة وحب شديدان للبلد رغم أني فهمت أنه لم يقضِ سوى جزءٍ بسيطٍ من حياته في مصر، الجميع يتسامر والساعة الآن السادسة والنصف بتوقيت القاهرة، نشرات الأخبار نستمع إليها من الراديو، وعن طريق الفيسبوك، ليس لنا أي نوافذ أخرى، أثناء تصفحي للفيسبوك إذا بهاتفي يرن، إنها أمي.. نسيت أن أطمئنها

عليَّ، طمأنتها ولكن دون إكمال المكالمة إذ انقطع الخط، للوهلة الأولى ظننت المشكلة في الهاتف.. عاودت الاتصال مرة ومرة ومرة ولم تنجح أي محاولة، انتفض نائل ليحضر هاتفه ثم وجد شبكة التليفون المحمول قد انقطعت إشارتها من هاتفه أيضًا رغم أنها لشركة أخرى غير التي في هاتفي، نائل هبَّ قائمًا ثم قال «قطعوا الشبكات ولاد الكلب. ده معناه إن فيه حاجة كبيرة هتحصل». قاطعه ثابت قائلًا بغضب «لو عملوا كده هتبقى بداية النهاية».

لم أفهم ما يلمح إليه ثابت، لا وقت للتفسير، وفيما نذهب لنحذر الجميع كي يرتدوا الأقنعة الواقية، ويقوموا بدهن عصير الخمير الممزوج بالصودا على الوجه، انقلب الميدان جحيمًا، داهمت قوات الأمن كل الميدان، قنابل مسيلة في كل مكان.. لا أبالغ فأنا لا أرى موضع قدمي، افترق الجميع، يد تشدني.. إنه ثابت، لم يتركني، حملني -كأنني أمتطيه- على ظهره، رفضت في البداية ولكن شعرت باختناقٍ شديد فأنا مريضة أيضًا بالجيوب الأنفية، أشاهد جحيمًا أمامي، تقريبًا الجميع يتساقط من تأثير القنابل والدخان كثيف للغاية، ظللت على ظهر ثابت حتى وصلنا إلى مكان اتضحت فيه الرؤية بعض الشيء بشارع قصر العيني.. وضعني ثابت ليلتقط أنفاسه، لم أستطع التنفس، روحي كأنها تفارقني، حملني بسرعة مرة أخرى ولمحت شبابًا يرتدون المعاطف البيضاء.. هم أطباء متطوعون، وكثير من الشباب ملقاة أجسادهم أمامهم.. مَن يتشنج ومَن يختنق، ومن فارق الحياة بالفعل، دخل ثابت بي إلى كنيسة قصر الدوبارة ثم أحضر الإسعافات الأولية وجلسات الموسع الشعبي، الكنيسة أيضًا بها مستشفى ميداني لا بأس به، التقطت أنفاسي، وصرت أتنفس أفضل ولكن أعاني صداعًا شديدًا، ثابت قام بعمل جلسات لنفسه أيضًا وكأنه اعتاد الأمر، خرجنا هو يصيح بصوتٍ عالٍ جدًّا وبيديه ميكروفون متواضع «كله يرجع للميدان، محدش يجري»، ثم رفع لافتة مكتوب

عليها (ارحل ارحل يا جبان.. ارحل ارحل يا خسيس). التفَّ كل من في الميدان، وكلهم في صوت واحد (ارحل.. ارحل.. ارحل) ترج الميدان. الأعداد في زيادة هائلة، هنا تذكرت ما قاله ثابت.. «بداية النهاية»، قطعوا الاتصالات.. فكل من فقد الاتصال بقريب أو صاحب أو ابن سينضم بنفسه للاطمئنان عليه والوقوف بجانبه، لم أترك ظهره، وأنا أردد كما يقول ويقول الجميع (كلنا إيد واحدة).. تراجع جنود الأمن المركزي للوراء إلى ما بعد الساحة، بل وهاجمنا مبنى وزارة الداخلية وتراجع أغلب من يتولون حمايته حتى ترك البعض أماكن الحماية، أخذت الأمور في الهدوء فجأة دون مقدمات، يبدو أن أمرًا سياديًّا قد صدر بوقف الضرب، نزل ثابت عن كتف من كان يحمله، ثم ذهبنا إلى الخيمة جميعًا، ثابت يبدو قلقًا بعض الشيء يحاول طمأنتنا، جلسنا ولكن بقي واحد لم يعد، صاح ثابت غاضبًا «كنت عارف إن ده كله عشان يعتقلوا نائل، مفكرينه العقل المدبر، ميعرفوش إن الشعب كله ضدهم، الناس دي عندها كمية غباء!». هدّأت ثابت، لم أره غاضبًا مثل هذا اليوم.

جلسنا جميعًا، وأحضر سامي أبو الفضل أحد أصدقاء نائل ورقة تركها له نائل يخبر فيها بأنه على علم بأن هناك أمرًا صدر باعتقاله، ومجموعةٍ أخرى منضمة لجماعة «حماية» الدينية، وهو يدعو الجميع لعدم الرضوخ مهما حدث ثم أخبر أيضًا بأنه لن يستطيع أحد المساس به قدر شعرة، وقال لهم اسألوا ثابت، ضحك ثابت وانفرجت أساريره وعلم أن الأمل ما زال قائمًا وأصبحت على عاتقه مسؤولية كبرى، أثقل من الجبل كما وصفها.

تركني ثابت قرابة خمس دقائق وذهب إلى ركنٍ قريبٍ بمسجد عمر مكرم وأخذ يصلي، وبكى ثابت بكاءً حارًّا، لم أعرف ما يقول، ولم أدعه يلحظ وجودي

من الأساس، أصابتني بعض الريبة، والجو شديد البرودة الآن، عدنا إلى الخيمة وأشعلنا بعض قطع الخشب للتدفئة، نظرت إليه نظرة شرود وحيرة، الساعة تقترب من العاشرة مساءً، أحضر ثابت البطاطا المشوية وبعض الفيشار الذي تناولناه معًا، ثم أخبر قائلًا «بيقولوا على البطاطا وقرص العجوة ده كنتاكي، بذمتك مش أحلى من كنتاكي؟»، نظرت إليه كالطفلة التي تريد أن تسأل أباها عن شيء ولا تلحَّ في الطلب، سكت ثابت ولم أرد عليه، مد يده ثم رفع رأسي، ثم ابتسم وقال:

- متضايقة من إيه؟

- عاوزة أسألك سؤال وتجاوبني بصراحة.

- اسألي يا فندم وكلي سمع وطاعة.

- هو انت ليك علاقة بالجماعة إياها؟

ضحك ثابت ضحكات هستيرية حتّى لاحظ الجميع صوت ضحكته العالية، اشتعل قلبي من الغيظ وشعرت بغضبٍ شديدٍ وأفلت من لساني بعض الكلمات النابية بتمتمة ثم قاطعت ثابت وهو يأكل البطاطا:

- إنت بتضحك على إيه؟ أنا هاقوم أمشي من هنا!

سكت ثابت وأخذ الموضوع على محمل الجد، ثم نظر إليَّ مبتسمًا وقال:

- مش قصدي أزعلك يا ماري بس اتفاجئت من الكلام ده، أصل الموضوع ده غريب شوية يا ماري، تعرفي إن أغلب صحابي سألوني كتير عن ديانتي، رغم إن أبويا وأمي مسلمين، أمي لما قَرِت مفكرتي، سألتني هيا كمان نفس السؤال، عارفة كنت بجاوب أقول إيه؟

- كنت بتقول إيه؟

رد ثابت في التو وكأن تلك القضية جرح غائر قمت بنبشه:

- كنت بقول الخلاصة.. ببساطة إني بحبكوا وبحب كل الخلق، كانوا بيضحكوا محدش عارف إجابة السؤال دي الواحد تعب فيها قد إيه، يا ماري أغلب شعبنا عوام حتى الطبقة العليا من البلد دي، معندهمش حب المعرفة ولا الثقافة، المسلم فاكر نفسه على حق والمسيحي فاكر هو الأحق، واليهودي عارف إنه أعظم البشر، ما بالك بره البلد البوذي والسيخي والهندوسي؟ كل بلد فقير له نفس السَمْت ونفس الصفات من اليقين الأجوف بالمصداقية المطلقة والانفراد بالإله، كلهم مفكرين إن ربنا ملكهم وبتاعهم لوحدهم، فالنتيجة إيه؟ حروب وطائفية، وعصبية للدين والمذهب والطائفة حتى بين أفراد الدين الواحد والملة الواحدة عارفة ليه هما كده؟

نظرت لثابت نظرة إعجاب، عيني شاخصة نحوه، وشعرت بإثارة شديدة، لأول مرة أشعر أني أمام رجلٍ متكاملٍ يتكلم دون خوف رغم علمي بصعوبة أن يطلق مسلم مثل هذه الآراء، ثم تابعت الإنصات إليه وهو يقول:

- هما كده عشان كلهم فعلًا معرفوش ربنا، لو عرفوا ربنا كانوا حبوه، ولو حبوه كانوا اتعلموا لغته.

قاطعت ثابت والليل رائع والشباب حولنا.. منهم من يتغنى بالأناشيد الوطنية الهادئة ومنهم من غلبه النوم في كل مكانٍ على الأرض أو داخل الخيم:

- ثابت إنت مؤمن بالله؟

التقط ثابت أنفاسه ثم نظر إلى الأرض وهو يتنهد تنهيدة طويلة ثم سألني:

- إنتي مؤمنة بروحك يا ماري؟

في بداية الأمر لم أعرف الجواب، وبالفعل لم أجب عن السؤال. تابع ثابت حديثه:

- يا ماري كل النّاس يؤمنون بأن لديهم روحًا، ولكن ليس الكثير من يصل إلى روحه، يحاولون فعل كل شيء، يلهون ويسعون للمال، ويرقصون، ويمارسون الجنس ويرتدون أفضل الثياب، كلهم يبحثون عن شيءٍ خفيٍ لا يعرفون هويته، ولكنها طرق وأبواب يطرقونها لعلهم يصلون بها إلى أرواحهم.

- نظرت إلى ثابت وهو يتحدث بطلاقة حتى دون أن يشعر ثم قلت له:

- مش فاهمة.. عاوز تقول إيه؟

- أنا يا ماري الأديان والفلسفة بالنسبة ليا سواء.. طرق حاولت من خلالها أوصل لربنا، ومش طريق واحد اللي بيوصل، فيه طرق كتير بس لي عاوز يوصل مش اللي استصعب المشوار، يعني انتي شوفتيني بصلي اتخضيتي وعملتي زي أي حد بيحكم على أي حد حكم ظاهري بدون ما يعرف، رغم إنك لو انتظرتي شوية ممكن تلاقيني بصلي بشمعة، أو مغطي راسي ناظرًا إلى أرض الله التي تسع الحجر والبشر والشجر، فلسفة الله يا ماري هي المحبة، كلمة السر الأبدية، والطريق الأوفر حظًا والأكثر رحابة ويسرًا للوصول، جربي انتي تعملي

كل شيء ولكـن بـدون المحبـة لـن تَصِـلي، فهـي لغـة الـرب ودون لغـة لا نقـدر عـلى التواصـل.

- يعني إنت مش مؤمن بالأديان؟

- القضيـة ليسـت قضيـة إيمـاني بالأديـان مـن عدمـه، الأديـان طريـق مـن طـرق كثـيرة يمكنـك الوصـول بهـا إلى اللـه، وليـس إلى مـن يدعـون أنفسـهم رجـال اللـه أو رجـال الديـن. فلـو عرفـتِ روحَـكِ لعرفـتِ اللـه. قـد يكـون الديـن الطريـق الأكـثر يـسرًا للوصـول، ولكنـه قـد يبـدو للبعـض طريقًـا بـلا منطـق أو عقـل خاصـة في عصرنـا هـذا، كالطريـق الـذي تـم تشـييده لنسـير عليـه وعليـه علامـات إرشـادية بـلا تدخـل منـا في تشـييده أو إنشـائه، أمّـا الطـرق التـي نوجدهـا نحن فهـي صعبـة، ولكـن عقولنـا مـن ترسـمها وتضـع لهـا الخطـوط العريضـة والعلامـات التـي يسـتقبلنا اللـه مـن خلالهـا. الرسـل كانـوا مثلنـا يبحثـون، وهكـذا صنعـوا طرقًـا لمـن لا يسـتهويه البحـث عـن طريـق.

أعجبني ما قال ثابت ولكن بتحفظ على بعض ما يقول، لم أكن أعرف أنه يمتلك هذه الجرأة، كلماته مثقلة بحكمة وعقل ورشد. أردفت بسؤالٍ آخر:

يعنـي القضيـة بالنسـبة لـك مـش أديـان؟ طيـب لـو صدقـت بكلامـك ده، معنـى كـده إنـك بتفـترض طريـق تـاني للوصـول غـير الديـن لربنـا؟

بالظبـط كـده.. والطريـق ده مختلـف بـين كل شـخص والتـاني، ولكـن هـو لازم يوصـل لكلمـة الـسر الـلي قولتلـك عليهـا.. وبرضـه لا يمنـع إن فيـه شـوية مفاتيـح وعلامـات، توريـك إن الطريـق صـح، أولهـا.. مفيـش مـع المحبـة ذرة حقـد أو طائفيـة أو شر لفـرد أو ديـن أو طائفـة، أو لأي بـشري

مهـما كان اعتقـاده، لـذا القلـب النقـي هـو أكـثر مـن يـرى اللـه، مـاري في النهايـة أنـا بحـاول أختـصر كميـة العنـاء والتعـب، والبلبلـة الـلي أنـا عشـتها بـدون تفسـير، ولكـن الـلي باسـتنتجه إن الأديـان طريـق لـلي مـش عـاوز يتعـب ويشـعر بلذة الوصـول. عشـان كـده (أنـا مؤمـن باللـه محـب للجميـع).

مـا قـاله ثابـت أرهـق عقـلي وتفكيري، ولكنـه بهـرني لدرجة أنني لا أصـدق أنَّ شـابًّا بحجـم هـذا الشـاب البسـيط في هـذا العمـر لديـه هـذا الطـرح الرائـع. أشـعر بأنني في حاجـة إلى المرحـاض، وهـو قريـب جـدًّا مـن مسـجد عمـر مكـرم، أشـعر بالـبرد رغم أنـني أرتـدي معطفًـا مـن الصـوف الخالـص للتدفئـة، بالفعـل قـررت الذهـاب وفي طريقي للمرحـاض حدثـت مفاجـأة، الدكتـورة فاطـما طبيبـتي النفسـية بصحبـة طفليهـا، عانقتهـا عناقًـا حارًّا وقبـلات كثـيرة، كم أحببـت ذلك الوجـه البشـوش، لكـن الدكتـورة فاطـما مـا لبثـت أن تبدّلـت ملامحها برؤيـتي، وطلبـت محادثـتي في أمـرٍ مـا مهم بعـد أن أفـرغ مـن المرحـاض، وانتظرتـني بجانـب المسـجد حـتى عـدت، ثم قالـت:

- إزيك يا ماري؟ عاملة إيه؟ بقالي فترة مش باشوفك.

- متأسفة يا دكتورة حصلت ظروف هابقى أحكي لحضرتك عليها.

نظرَت إليَّ الدكتورة فاطما دون أن تتكلم لثوانٍ ثم عقَّبَت:

كلمتـك أكـتر مـن مـرة، كنـت عـاوزاكي في حاجـة مهمـة جـدًّا، بـس الحمـد للـه إنـك بخـير دلوقتـي.

بدأت أتوتر فسألتها:

- فيه إيه يا دكتورة؟ قلقتيني!

قالت الدكتورة فاطيما بصوت قلق:

- جالنا شاب يا ماري بعد محاولة انتحار فاشلة، مراته قالت إنه مدمن وزود شوية في الجرعة، كان في حالة مزرية، أخد العلاج المناسب وفعلًا بدأ يهدى شوية، اتكلمت معاه بعد ما هديت حالته كان في حالة هياج عصبي شديدة، عرفت منه إن مراته سلطت عليه شاب اغتصبه. شيء مقزز وسلوك في قمة الشذوذ والقرف، وحطّمه قدامها وهي واقفة وصورته فيديو ونزل على كل المواقع والشبكات، أنا مصدقتش غير لما دورت على الفيديو ولقيته بالفعل، وهي كمان اللي خلته مدمن عشان تنتقم منه.

قاطعت الدكتورة فاطيما قائلة:

- وأنا مالي ومال القصة دي يا دكتورة؟

- يا ماري اصبري. الشاب ده اسمه نادر وطلع طبيب كمان، وانتحر تاني يوم.. شنق نفسه بملاية السرير اللي كان نايم عليه، وسابلي ورقة كان قالي إنها ليكي، أنا في الأول اتخضيت، قولت إيه علاقة ماري بالشاب ده! وعرف منين إني طبيبتها؟ هو سمح لي أقرا الورقة، وهي عبارة عن اعتراف منه بخط إيده بيقول إنك الوحيدة اللي هتفهمي الكلام المكتوب واللي قدرت أفهمه أنه أذاكي في حاجة، وهو مش طالب تسامحيه هو طالب الورقة دي تكون مستند براءتك انتي من أي حاجة تضرك أو تتسبب لك في مشكلة، طبعًا الورقة مكتوب فيها حاجة لها علاقة بسي دي. وكلام تاني مش عارفة أفسره، وماضي وباصم وكاتب كمان بياناته، الشرطة قبضت على مراته، وهي في السجن. ده اللي

عرفته من صاحبه اللي كان معاه وقت ما جه المشفى، عشان كده كلمتك تيجي تستلمي حاجتك لأني كنت هسلمها لوالدك، وانتي عارفة إنه زميل عزيز بس خوفت تكون حاجة مش حابة حد يعرفها.

تنفست الصعداء، وكأن جبلًا كان يقف علي صدري وروحي تمت إزاحته بعيدًا، ثم صحت بصوتٍ عالٍ للغاية «أشكرك يا رب.. أشكرك يا رب». وفيما أنا في حالة الفرح هذه رأيت ثابت يجري ممرولًا ناحية المسجد، ثم نظر إليَّ غاضبًا:

- كنتي فين يا ماري؟ رعبتينا كلنا، اتأخرتي ليه كده؟

لم يلحظ ثابت حضور الدكتورة فاطيما، ولكن بعدما هدأ بعض الشيء قدّمته لها وتصافح الاثنان، ثم استأذنت أنا وثابت من الدكتورة فاطيما ورجعنا إلى الخيمة، الجميع رغم معرفتي القليلة بهم كانوا قلقين جدًّا عليَّ، ولكنهم اطمأنوا فمنهم من خلد للنوم ومنهم من ذهب يبحث عن طعام من شدة الجوع.. فكل محلات الطعام مغلقة، حتى صاحب عربة البطاطا غير موجود الآن، ذهبت مع ثابت وبقينا خارج الخيمة لفترة، «لا أريد أن أنام» هكذا أخبرت ثابت.

نظر ثابت إليَّ وقال:

- وأنا كمان مش عاوز أنام، بس تسمحيلي أسألك سؤال يا ماري؟

- اتفضل.

- ملامحك كلها متغيرة! حتى وشِّك بيضحك من ساعة ما قابلتي الدكتورة دي!

- أنا في حالة سعادة لا يقدر على وصفها أحد، كحالات الفرح المفرط

التـي قـد تثـير في الإنسـان رغبـة شـديدة في البـكاء وتظهـر الوجـه الآخـر للقلـب المتعـب والـروح المثقلـة، وجـه الحيـاة وانجـلاء الهـم والحـزن، أنـا سـعيدة للغايـة.

نظرت لثابت وأطلت النظر، وكأنّي أقول له، كم أنت بسـيط للغاية ورقيق أيضًا للغاية، ثم قررت أن أخبر ثابت بكل ما حلَّ بي في حياتي، فجأة جلست وقدماي ممدوتان، ثم قلت:

- عندك استعداد تسهر للصبح؟

- هـو احنـا ورانـا حاجـة؟ يـلا هيحصـل إيـه؟ أسـهر أسـهر، بـس عاوزيـن كوبايـة شـاي تقيلـة.

- معايـا الميـه السـخنة والشـاي، ماما متوصيـة بيـا حطـالي كل حاجـة في الشـنطة.. يـلا نصيبـك، ومعايـا كـمان سندوتشـات كنـت ناسـية إنها موجـودة نوزعهـا عـلى بقيـة الجـروب.

- رشـوة يعنـي! كل ده عشـان أسـمع؟ ده أنـا أشـتغل سـميع ليـل نهـار طالمـا فيـه شـاي!

فرغنا من الشاي وتناول الطعام وتقريبًا حالة سكون تام، يبدو أنه نام الجميع عدا الشباب الذين ينظمون دخول الناس وخروجهم، هم يقسمون أنفسهم دوريات كأنهم في العمل، وثابت يبدو بمزاجٍ جيد، أحضر لي معطفًا آخرَ طويلًا وذا حجم كبير كاللحاف لكنه دفّأني جدًّا، حاولت الدخول إلى صلب الموضوع مرة واحدة، ثم طرحت على ثابت سؤالًا:

- إيه أكتر حاجة غلط تعملها الست ومينفعش تتغفر؟

بدا على ثابت ملامح الجدية، ثم سكت برهة وقال:

- مفيش حاجة ماتتخفرش، لكن الحاجة اللي ممكن متتصلحش هي نظرة الشخص لنفسه في لحظة قرر إنه يبيع ضميره ويتنازل عن حقه.

- مش فاهمة حاجة!

ابتسم ثابت وقال:

- اللحظة اللي بيقرر يتخلّى فيها أي حد عن ضميره هي دي اللحظة اللي ممكن يعمل فيها أي حاجة، وكمان هيبرر ده، اللي بيتخلى عن ضميره واحدة واحدة، هتلاقيه بيكذب وبيخون وممكن يقتل ويزور وينافق ويغتصب، المهم نفسه وفقط، الضمير هو الحاجز.. فلما تحسي إن فيه حد بدأ يتغير من الناحية دي فورًا تجنبيه، وده مينفعش يفوق دلوقتي لأنه مبيفوقش إلا على صدمة وفي وقت قرّر فيه إنه يستعيد إحساسه، أو شعوره بنغزات ضميره قبل ما يموت.

- ثابت انت شاب عظيم.

عيناي انهمرتا بالبكاء، ولم أصدق أنه سيأتي يومٌ عليَّ سأكون فيه أمام رجلٍ أشعر بصدقه حتى أبكي، ولديَّ الرغبة في أن أخبره حتى بحديثي أمام نفسي بلا تكلُّفٍ أو تجمُّلٍ، لم تمر عليَّ لحظة كهذه من قبل، وضع ثابت يده على كتفي، وجذبني إلى جانبه، الوقت الذي توقفت فيه عقارب الساعة ورحل عنها الزمن، لا أقدر على وصف حالتي الآن، الرجفة تنتاب كل جسدي من رأسي حتى أنامل أطرافي، كتفي بكتفه، روحنا الآن واحدة، لم تعد تراودني أي هواجس تجاهه.

الآن أستسلم وروحي كلها لأجله، بالفعل أخبرت ثابت كلَّ شيء يخص ما جرى مع نادر وسالي وساندي وجارنا هذا الذي يُدعى فادي، أخبرته وودت لو كنت قابلته منذ زمنٍ كي أخبره بكل ما حلّ بي، دمعت عينا ثابت ثم جذبني ولم يلفظ ببنتِ شفة، وعانقني بشدة، حتى ذبت فما عدت أدرك أي قطعةٍ من جسده وجسدي، طال العناق، والجو هادئ للغاية، وضع ثابت يده على رأسي ثم قبّل جبهتي، وبقي صامتًا إلى أن قال:

- يلا بقى عشان تنامي، ورانا هم كبير بكره، لازم نصحى بدري.

- حاضر.

أوصلني ثابت إلى الخيمة حيث تبيت الفتيات، والرجال في منطقة خارج الخيمة، ويتناوب على حراسة الخيمة أيضًا شباب من كل مجموعة، لم أشعر بشيء بعدها حتّى أيقظتني صرخات التظاهرات والهتافات، اليوم هو الجمعة الموافق الثامن والعشرين يناير ٢٠١١، وهي الجمعة التي أطلق عليها الثوار «جمعة الغضب»، الأعداد في زيادة هائلة، نظرًا لأن الجمعة هو يوم إجازة وتجمع للمسلمين للصلاة وقت الظهر، يبدو أنّ الجميع قد قرروا الصلاة في ميدان التحرير، لم يعد هناك قيد أنملة للوقوف. انتهت الخطبة وشرع المسلمون في الصلاة بأعداد غفيرة، محاطة بسياج بشري من كل المسيحيين إذ قرروا حماية إخوتهم في لقطةٍ ذاب فيها كل ثلج الطائفية المقيتة أمام شيءٍ واحدٍ ومن أجل غايةٍ واحدةٍ، وهي مصر المستقبل والأمل.

وما إن انتهى المصلون من الصلاة حتى أطلقت قوات الأمن في الميدان القنابل المسيلة للدموع واعترض رجال الأمن المتظاهرين لمنعهم من الوصول إلى ميدان التحرير، ولاحق رجال أمن آخرون بملابس مدنية المتظاهرين واعتدوا عليهم..

بـل وقامـوا باعتقـال العشرات، لكـن المتظاهريـن واصلـوا تظاهـرهم وشرعـوا في التوجـه إلى القـصر الرئـاسي، وهم يَهتفـون (ارحـل.. ارحـل.. ارحـل..)، الآن الرؤيـة حُجبـت، والسـماء كلها دخان ولا شيء آخـر، أخيرًا نطـق المصريـون، أشـاهد المنظـر وكأني في حـالة ذهـول، لم يكـن لينجـح أي رهـان عـلى هـذا الشـعب الذي سـكت طويـلًا، نهبـت أمـواله وطمسـت معـالم مسـتقبله مـن قبـل عصابـة حاكمـة تختبئ خلـف الدروع والنسـور المزيفـة.

مـع عـصر اليـوم كان المتظاهـرون قـد نجحـوا في حـرق المقـر الرئيـسي للحـزب الوطني الحـاكم الواقـع في مدينـة القاهـرة، وفي حـدود الخامسـة بعـد العـصر بـدأت قـوات الجيش في الظهـور في ميادين القاهـرة، وتم إخبـارنا مـن قبـل قـوات الجيش بـأن الحـاكم العسـكري يُعلـن حظـر التجـوال في القاهـرة والإسـكندرية والسـويس وعـلى الـرغم مـن ذلك فقـد تحـدى الجميـع حظـر التجـوال. دقـت السـاعة السادسـة مسـاءً وانتشرت مدرعـات الجيش المصري في شـوارع المـدن لمسـاندة قـوات الشرطـة التـي لم تعـد قـادرةً عـلى التحمـل والمواجهـة.

ظننـا في البدايـة أننـا سـنواجه الجيش وسـيطر الخـوف والترقـب عـلى أغلبنـا، ولكـن نطـق أحـد المتظاهريـن -وهـو رجـل تخطـى السـتين يلقـب بالشـيخ شـهاب لـه لحيـة خفيفـة وكان مـن أبطـال حـرب أكتوبـر- وقـال «إن الجيش لـن يقحـم نفسـه في صـدام أبـدًا مـع الشـعب. هـذه عقليـة قـادة الجيـش المـصري». ثابـت يفكـر ولا يتكلـم، ثم صـاح «فـين سـامي؟ فـين سـامي مـش معـانا ليـه؟!».. وهنـا أتـت هاجـر سـمير مسرعـة وهي إحـدى الناشـطات الحقوقيـات تبـكي بحرقـة.. «قتلـوا سـامي»! انتفـض ثابـت، ثم صرخ بشـدة «مـين دول؟ مـين يا هاجـر؟». سـقطت هاجـر مغشـيًا عليها، لمـدة دقائـق ثم اسـتفاقت، وهي مـا زالـت تبـكي، نظـر ثابـت إليهـا ثم قـال «فهمينـا

إيه اللي حصل؟!». هدأت هاجر بعض الشيء ثم قالت «بعد ما صلينا الجمعة رُحت أنا وسامي ناحية الجامعة الأمريكية، وفجأة خرجت سيارة عليها علامة خضراء بسرعة جنونية ودهست حوالي عشرين شخص، فرمتهم كأنها بتفرم لحم، ولاد الكلب داسوا عليهم ييجي خمس مرات.. فرموهم، سامي دماغه فرقعت من الدهس قدامي».

لم تستطع هاجر إكمال ما حدث حاولتُ تهدئتها، ولكنها على ما يبدو لن تستطيع أن تنسى مثل هذا الأمر البشع بسهولة، تركني ثابت ولم يبكِ والدمع على أعتاب جفنيه، لكنه تماسك حتى يستطيع الصمود، ثم ناداني وقال «لازم نعرف إيه اللي بيجرى حوالينا، إحنا عاملين زي اللي في الصحرا. لازم يكون فيه حل»، ثم استأذن وأخبرني بأنه سيعود خلال ساعة وأوصاني بهاجر وألا أترك الخيمة، مر ما يقرب من ساعتين وعاد ثابت إلى الخيمة على وجهه بعض التفاؤل، هدّأنا ثم أخبرنا قائلًا «سامي شهيد. عارف إنه جاي هنا وممكن ما يرجعش»، ثم نظر إلى هاجر مواسيًا.. «لازم نتقبّل أي حاجة تحصل لنا، وكلنا عارفين إن ممكن نموت في أي وقت وبموت عشان البلد دي وعشان اللي جاي بعدنا يعرف إننا ضحينا بدون مقابل عشان نخلصه من الظلم والقهر والفساد، أنا عارف إن الكلام ده صعب، ومن دلوقتي كل واحد مطلوب منه يسجل بالقلم على جسمه بياناته ورقم تليفون أسرته، عشان احنا بنتعامل مع أقذر آلة أمنية، لو حد جراله حاجه نقدر نستدل ونوصله لأهله، والموضوع زي ما هو بالنسبة لهم حياة أو موت هو بالنسبة لنا حياة أو موت برده، يعني مش هيعدي بالساهل».

قاطعتُ ثابت متسائلة:

- بس إحنا معزولين عن الدنيا، هنموت ولا حد يدرى بينا وكأننا فراخ

لا فيه نت ولا إعلام ولا اتصالات وساعات بيقطعوا الكهربا كمان.

- أنا سِبتكم الساعة اللي فاتت عشان كده، رحت لبيت أحد أصدقائي المقربين اسمه محمد الشريف وأخته العبقرية الدكتورة منى معاها دكتوراه في إدارة الشبكات، هم من عائلة غنية جدًّا، وزي إخواتي.. محمد ومنى عندهم هواتف «ثريَّا» ودي بتتصل بالقمر زي ما انتوا عارفين، وهم ساكنين بجانب فندق سميراميس والغريب إنهم قالولي إن فيه شبكة نت في الفندق، وحتى لو اضطروا ياخدوا غرفة في الفندق عشان النت. المشكلة دلوقتي إن إزاي هي هتتواصل مع الناس اللي في الميدان، كان اقتراحها إن أي حد معاه فيديو أو ملف صوتي يحتفظ بيه، وإن كل اللي معاه موبايل يصور زي ما كلنا بنصور حتى لو جودة الصور وحشة، سامي كان معاه كاميرا كويسة، هنستعين بيها، وهننسق مع كل الخيم والمجموعات إنهم يعملوا كده، ومنى دي بنت وطنية جدًّا، هي وصحباتها قرروا إنهم هييجوا ياخدوا الصور والفيديوهات ويوصلوها للعالم بره، لأن القناة الإخبارية مش هتستمر كتير لازم هيقفلوها، منى هتيجي بكره وهنقابلها قدام هارديز هنديها كل الميموري كارد بتاع كل الناس اللي صورت، وهي هتتولى موضوع الإعلام، يعني هتبقى وزيرة الإعلام بتاعتنا، واللي عاوز يشتغل معاها وخاصة من البنات يقدر يروح معاها، أحمد قرر يوصل لنا شاشتين نتابع فيهم حتى أي أخبار.

اقتربت الساعة من العاشرة مساءً ولم يلتزم أي أحد بقرار حظر التجوال، وذهبت أنا وثابت وهاجر وباقي المجموعة نحو خيمتنا، لم تعد لي شهية للطعام، الأحداث سريعة، واليوم قُتِل عدد كبير من المتظاهرين ولا ندري ماذا سيحدث،

قاطعتنا هاجر وأخبرتنا بأنها ستذهب إلى المنزل لطمأنة والديها ثم ستعود، حينها تذكرت أمي ووالدي وحالة القلق التي تنتابهم الآن وهم لا يعرفون أي أخبار عني منذ تركت المنزل، لا يوجد أي آلية للتواصل معهم، وفي قرارة نفسي أعددت نفسي كي أزور أمي غدًا للاطمئنان والاستحمام وتبديل أغراضي، غادرت هاجر وقام بتوصيلها أحد الشباب حتى خرجت من الميدان بسلام رغم تأخر الوقت والحظر المفروض. وصلنا إلى الخيمة ونظر كلانا للآخر دون أن ينطق، ثم قطعت أنا الصمت:

- إنت متفائل؟

ابتسم ثابت رغم كل ما به وقال:

- أيوا متفائل.. واللي بيحصل ده دليل إن اللي قدامنا بقى مرعوب وبيهتز كمان، ودي نهايته، تاريخ كل الثورات بيقول كده يا ماري، جمدي قلبك أمال.

- هو مين اللي هيقابل منى دي؟

- انتي طبعًا هتقابليها بكره بدري جدًّا، أنا قُلت ده تمويه؛ الحذر واجب، وهي هتجمع كل الفيديوهات والمقاطع من التليفون، طبعًا هنضيف لها كل رقم أرضي لصاحب المقطع وهي هتتصرف.

في تلك الأثناء شعرت براحة حينما أخبرني ثابت بأنني من سيقابل تلك الفتاة غدًا، ولا أدري فربما تكون الغيرة، أبعدت تلك الأفكار عن رأسي قائلة «هو إحنا في إيه ولا إيه؟».

هدأ الجميع ومر ثابت ليحضر من كل مجموعة من الثوار فردًا يمثلهم كي يستعدوا لما سيجري ويكون الفكر موحدًا والهتافات موحدة، وخاصة أنه لا يوجد قائد حقيقي يقود الدفة، تثاءبت عدة مرات، وتركني ثابت أخلد إلى النوم حتى أستطيع الاستيقاظ مبكرًا لأقابل منى، لم يمر الكثير حتى استيقظت ولكني صرخت بشدة، لقد كان كابوسًا بشعًا، جاء الجميع للاطمئنان عليَّ وأحضر ثابت كوبًا من الماء وجلس معي ليهدئني، ما هذا الكابوس المزعج؟ الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، نظر ثابت إلى عينيَّ الخائفتين ثم قال:

- إيه اللي حصل يا ماري؟ كنتي كويسة، احكيلي كابوس إيه؟

- حلمت إني كنت في جنينة خضرا، الورد اللي فيها كله اتقطف وجِه تعبان لسعني في رقبتي، وبعدين قاومته لف على رقبتي لغاية ما صحيت مخنوقة من النوم.

لم يقل ثابت أي شيء، مسح على شعري فقط، وأخذ يتمتم بكلام غير مفهوم، ثم أهداني مدونته الخاصة، وقال:

- لما تروحي البيت هتسليكي جدًّا.. فيها مواقف غريبة لواحد اسمه ثابت مدكور.

عدت للنوم مرة أخرة حتى أيقظني ثابت في تمام الثامنة من التاسع والعشرين من يناير كي أوصل المقاطع التي أحضرها من كل مجموعة لمنى، تبدو في قمة الذوق والأناقة والأدب، لكنها كثيرة الكلام، أخبرتني بأنها استطاعت الدخول على موقع تويتر وتسجيل المقاطع الصوتية عليه بأرقام تليفون صاحب كل مقطع وبالفعل تويتر وافق على ذلك، وهم في انتظار المادة الصوتية عن طريق إنترنت أرضي بالأساس.. بالإضافة إلى شبكة المحمول وأخبرتني بأن الدكتور البرعي في الطريق

إلى مصر، ثم أردفت مني بأن هناك نية مبيتة لإطلاق سراح كل المجرمين من السجون لتهديد وترويع المواطنين، حقًّا إنها شخصية في أوج النشاط واليقظة، ومحبة للعمل والبلد رغم أنها من أسرة ثرية كما أخبرني ثابت، ليست في حاجة إلى كل هذا العناء، عدت إلى ثابت وأبلغته بما دار بيننا.. تهللت أساريره ثم قال :

- تسلم إيديكي على الأخبار الحلوة دي.

- أنا حاسة إني تعبانة شوية وبكُحّ وهاضطر أروح البيت يوم أو اتنين وأرجعلكم.

اضطرب ثابت ثم نظر إليَّ:

- مالك فيه إيه؟ تعبانة ليه كفى الله الشر!

- معلش محتاجة ضروري أروَّح.

لم أعرف كيف أخبره بالسبب وهي دورتي الشهرية، والتي تسبقها أعراضٌ مزاجية سيئة كل شهر، لم أستطع تحمل كل هذا داخل الميدان وبالفعل قررت العودة إلى منزلنا في شبرا، ولم يستطع هذه المرة أن يوصلني إلى المنزل خشية رجال الأمن وهم يحيطون بالميدان من كل النواحي، ولكني أخبرتهم بأني مسيحية عائدة من الكنيسة؛ لم يوقفني أحد. وأخيرًا وصلت إلى المنزل. أشعر أني غادرته منذ مائة عام، ولكني شعرت بالغربة حين تركت الميدان، قابلتني أمي بعناقٍ وبكاءٍ دام أكثر من عشر دقائق تقبل كل مكان من جسدي، ثم قالت «كده يا ماري؟ هُنَّا عليكي؟ كنا هنموت من القلق! حرام عليكي».

لم تكن بي طاقة، بَيْدَ أني أريد الاستحمام والنوم، فلدي سعال وحرارتي تبدو مرتفعة بالإضافة إلى دورتي الشهرية، لا أريدها أن تطول حتى أتمكن من العودة

إلى الميدان مرة أخرى، بالفعل بعد خروجي من المرحاض تناولت أقراص مضاد حيوي وخافض للحرارة يبدو أنه التهاب بالشعب أو شيء من هذا القبيل، حضر والدي، أتى إلى غرفتي وهو بالكاد يصدق أنه رآني مرة أخرى، امتطيت فراشي، وقررت أن أخلد للنوم فحسب، وبالفعل لم أشعر بشيءٍ حتى أيقظتني أمي كي أتناول بعض الطعام، عظامي تؤلمني.. ربما من نومي على الأرض، خرجت من الغرفة، وتناولت العشاء مع كريستين وأمي ووالدي، أشعر بأني في حال أفضل فقد كنت على وشك أن تنفجر رأسي، لكن روحي ليست معي، إنها بعيدة، لم أعد أنا كما كنت قبل ذلك، ليس لدي أي وسيلة للاطمئنان على ثابت، أشعلت التلفاز على القناة الإخبارية، كل القناة مكرسة لنقل الثورة المصرية، ولكن الصورة أكثر وضوحًا، فالمظاهرات تعم البلاد.. القاهرة والإسكندرية والمحافظة الأكثر سخونة في الأحداث السويس، اشتباكات وبطولات من أهل السويس أمام حماة النظام المصري المتهالك، لكن ثمة خبر عاجل مفاده مهاجمة سجن وادى النطرون على الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية على بُعد مئة كيلومتر شمال العاصمة المصرية.

وقُدِّر عدد السجناء الهاربين بآلاف تمكنوا جميعًا من الفرار بعد أن استولوا على أسلحة رجال الأمن، ويضم هذا السجن عددًا كبيرًا من الإسلاميين المحتجزين فيه منذ سنوات، إضافة إلى بعض السجناء الجنائيين، بالإضافة إلى عدد من المعتقلين من قيادات جماعة «حماية» الدينية. الخبر العاجل أكده اتصال من أحد الفارين من داخل السجن ينتمي لجماعة حماية، أخذت أقلب كفي يمينًا ويسارًا ثم قلت «ولاد الكلب هيسلطوا علينا المجرمين والبلطجية».

بالفعل مرت ساعة وإذا بدوي طلق ناري بجوار بنايتنا وأغلب البنايات السكنية

بالمكان، أتوقع حالة انفلاتٍ أمني غير مسبوقة لعدم تواجد أي شرطي، باب الشقة يطرق، ارتعدنا جميعًا ثم طلب والدي الابتعاد وهو سيتولى الأمر، أحضر أبي سلاحه الناري فلم يستخدمه منذ عشرين عامًا ثم نادى قائلًا «مين بيخبّط؟». سمعنا صوت الأستاذ ناجي عازر جارنا، التقطنا جميعًا أنفاسنا، فتح أبي الباب، وجدنا الأستاذ ناجي، وأخبرنا بأنه قد فرَّ أيضًا من الاعتقال بعد مقتل مدير السجن حينما حاول منع فتح أبواب السجن بطلقٍ ناريٍ مجهولٍ، تحدّث الأستاذ ناجي مع والدي بأن كل سكان العمارة وأبناء الحي سيشكلون ما يسمى باللجان الشعبية لحماية الأحياء، أنصت لما يقول وكأننا عدنا إلى القرن العاشر، ولكن هذا يمثل تكاتفًا وتعاونًا لعبور الأزمة، ثم أخبر أيضًا بأن الشيخ عبد الرحمن عفت هو من سينسق الأدوار ويقسم الورديات بأسماء ذكور كل من بالمنطقة، حقًّا كما قال ثابت إن المصريين أمام لحظات فارقة، ويسطرون مجدًا بأيديهم. تركت الحديث وعدت لأشاهد التلفاز فلم أستطع أن أخلد لفراشي، لدي فضولٌ شديد كي أتابع ما يحدث وخاصة خارج الميدان، المنظر مهيب ويدعو للفخر، كل وكالات الأنباء ومحطات التلفزة الإخبارية وغيرها تنقل ما يحدث، خبر عاجل نقلًا عن التليفزيون المصري.. (الرئيس كلَّف أحمد رفيق رئيس الوزراء الجديد باتخاذ الخطوات الضرورية لتعزيز الحريات والديمقراطية وفتح باب النقاش والتباحث مع قوى المعارضة). أود أن أضحك حقًّا، كيف يفكر هؤلاء؟ ليس لديهم أدنى مقومات العقل ولا الواقعية.. ولكنها السلطة، شهوة الحكم والرغبة في البقاء، الجماهير تقول «ارحل» وهم في وادٍ آخر، غيرت محطة التلفاز هذه التابعة للتليفزيون المصري، إلى المحطة الإخبارية القطرية، أيضًا خبر عاجل.. (المعارض المصري دكتور أحمد البرعي ينضم إلى حشود المحتجين في ميدان التحرير وسط القاهرة قائلًا «نحن بدأنا عهدًا جديدًا ولا يمكن للثورة أن تتراجع»، وأضاف «لنا مطلب أساسي

وهو رحيل النظام". أخيرًا صار للثورة على الأقل رأسٌ يفكر، شخصية لها ثقل عالمي وحماية أيضًا، ولكن ما يقلقني تضاؤل العدد الآن في ميدان التحرير بعد إطلاق سراح المجرمين، على ما يبدو غادر كثيرون الميدان خوفًا على أسرهم، الشباب بالميدان والمعارضة يدعون لأن يكون يوم الاثنين إضرابًا عامًّا، ويوم الثلاثاء احتجاجات مليونية.

خبر عاجل آخر فالأخبار متلاحقة بشكل سريع جدًّا.. (قامت السلطات المصرية بسحب تراخيص القناة الإخبارية وغلق مكاتبها)، تذكرت ما قاله ثابت بأنها لن تلبث كثيرًا، فتلك المحطة تقلق النظام وأتباعه إذ إنها النافذة الوحيدة التي تنقل الأحداث بحرفية وأمانة. قررت غلق التلفاز، وأن أحصل على قسطٍ بسيطٍ من الراحة فظهري ما زال يؤلمني، وما زالت نوبات السعال تلك تؤرقني خاصة بعد انتهاء مفعول الدواء، بالفعل جلست على الفراش، ولكن انتفضت فجأة، وتذكرت الظرف المريب وقررت أن أحرقه حتى أتخلص منه ومن تبعات ما تسببت به تلك التجربة الأليمة، وللحظة تذكرت ساندي، ولم يدُرْ ببالي أنها هي من قدمت ذلك المعروف لي، بل وحمتني من شرور هؤلاء المجرمين، لحظة ينتبه فيها ضمير أحدهم قد تقيك شرًّا عظيمًا، ولكن ما الذي دفع ساندي لفعل هذا؟! هذا ما يدعو للتساؤل، على ما يبدو أن الذين لوثهم ونالت منهم أنفسهم قد تاهوا على أعتاب العودة، فربما كانت صحوتهم آخر نفس، وآخر ما ترغب فيه أرواحهم المثقلة رغبة بالعودة حتى وإن باغتهم القدر.

أحضرت الظرف.. كما هو لم يلمسه أحد كما وضعته، فتحته ولكن هذه المرّة لاحظت وجود هاتف محمول صغير لم أكن أعلم بوجوده، حاولت فتحه يبدو أن بطاريته نفدت، وضعته على الشاحن الكهربائي، وبالفعل قمت بفتحه، وهو لا

يخص ساندي على الأرجح، قمت بمراجعة خاصية معرفة الرقم وبالفعل حصلت عليه، ثم حاولت إدخاله على هاتفي وجدت أن الرقم مسجل باسم هاشم، تفحصت الهاتف جيدًا.. صور في غاية الخلاعة لي ولغيري، وكأنه استوديو متنقل خاص بالفضائح، وفجأة صورة لسلمى وهي في أحضان أحد الشباب عارية، ذهبت إلى مقاطع الفيديو لم يتعدَ عدد المقاطع ثلاثين مقطعًا، ولكن صدمة أخرى.. كلهم من صناع القرار، ومشاهير المثقفين، والمعارضين البارزين، لا يهمني سوى صورة سلمى، فلربما كان كل هؤلاء ضحايا لعملٍ حقيرٍ كالذي تم معي وربما لا.

بحثت عن سلمى في كل ملفات الجهاز، لم أجد سوى هذه الصورة، فتشت كل شيء في الهاتف، وأخيرًا وجدت ملفًّا مكتوبًا عليه «سري»، لم أعرف كيف أفتحه فهو يطلب كلمة مرور، عدت إلى الظرف، ولم أجد أي كلمة سر مكتوبة، ما هذه الحيرة؟ دار ببالي أن أشاهد الفيلم مرةً أخرى لعلي أتوصل إلى شيءٍ إذ لم أكمله حتى نهايته قبل ذلك، وبالفعل شاهدت الفيلم ولكن بسرعة، قرب نهاية الفيلم عند الدقيقة الأربعين، نادر ينادي الشاب الذي كان معه باسمه، إذن يوجد شخص ثالث وعلى ما يبدو أنه المصور، لأن الكاميرا التي تصور متحركة ليست ثابتة، الزوايا تتغير من حينٍ لآخر، الأمر يحتاج إلى توضيح، إذن شخص آخر على علم بهذا الأمر.

من هو؟ كلما شاهدت هذا السي دي انقبض قلبي وكأنني عدت للوراء، ولكن ما يطمئنني أن معي دليل نجاتي، وأني أخبرت ثابت بكل ما جرى معي، انتهى السي دي وفي نهاية الفيلم كلمة غريبة مضافة ومسمّى بها الفيلم kingdom. جربت أن أضعها كلمة السر فلم تفلح، ولكن أعدت كتابتها، بالفعل نجحت

فتحت الملف، ووجدت أكثر من مائة ملف بصيغة وورد، استوقفني اسم الممثلة الشهيرة رغد سمير التي قتلت في لندن والقاتل مجهول، ملف كامل بسيرتها، وما قامت به من خدمات، ووجدت اسم شوكت الخفيف مدونًا في الملف، هرب النوم من رأسي ولم أعد أشعر بأي آلام، قرأت الملف بحرصٍ شديدٍ ورأيت دلائل تورط تلك الفنانة بشكل مباشر بعد تكليفها من شوكت في سهرات ساخنة مع ملوك وبعض الرؤساء والمسؤولين العرب، أسماء لم تخطر على بال أحد، وإحدى وثائق ذلك الاتفاق مصورة بخط اليد، في نهاية الملف تكليف آخر بتصفيتها المباشرة، انتهيت من القراءة وشعرت بخوفٍ شديدٍ، ولم يعد ببالي أن أهاتف ساندي فلم أعرف ما مصيرها الآن، ظللت أبحث عن سلمى، لم أجد أي شيئًا، بحثت عن ملكة إبراهيم.. وبالفعل وجدت ملفًّا كاملًا لها، لم أصدق ما قرأت.. ملكة لم تكن مجرد خادمة وحسب، ملكة كان يستخدمها جهاز أمني آخر لمراقبة شوكت ولكن بعد أن حملت منه هربت، وبالفعل لا يوجد أي خبر عنها سوى ذلك. الهاتف يرن؛ قلبي كاد أن يقف، لم تعد الاتصالات بعدُ، الهاتف أيضًا متصل بالإنترنت، أغلقت الهاتف بسرعة خوفًا أن يتعقبه أحد، ولكن ما دار برأسي أنه ماذا يمكن أن يجري ونحن الآن في ثورة والكل منشغل بما فيها؟ راجعت أوراق الظرف، لم تذكر ساندي أي شيء عن هذا الهاتف، ولكن مزقت الظرف قطعًا متفرقة، لاحظت جيبًا للظرف ملصق به وريقة صغيرة تبدو غريبة للغاية.. أخرجتها فهي في حجم عقلة الإصبع، داخلها كارت ذاكرة صغير جدًّا، ما كل هذا الحذر؟ وضعت كارت الذاكرة في هاتفي لعلي أعرف ما الحكاية، وبالفعل ما زال يعمل، فحصته أيضًا بعناية، وإذا بفيديو مسجل لساندي، تقول فيه «ماري.. معنى إنك شايفة الفيديو دلوقتي، إني مت وفارقت الدنيا، ولأول مرة أكون مرتاحة كده وحاسة إني باعمل حاجة كمان لبلدي عشان تنضف من

كل المجرمين والفاسدين، طبعًا فتحتي الموبايل، ده موبايل عمر شوكت الخفيف، هاشم سرقه ليلة تسجيل الفيديو، وأكيد بتسألي إن عمر شوكت علاقته إيه بيكي.. هو صاحب نادر، صاحبه يعني انتي فاهمة! هما الاتنين شواذ في كل شيء، وهاشم الليلة إياها هو اللي صورها كلها، عمر شوكت ده عيل تافه سادي معاه فلوس، هو لا يعرفك ولا حاجة، أنا جبتلك الموبايل لإني عارفة بتحبي البلد دي، وحاولي تكشفي حقيقة الكلب ده اللي اسمه شوكت هو وولاده للناس لأنهم ظلمة، شوكت أساس كل البلاوي، لازم تفضحيه، وهو نهايته قربت بس خلي بالك على نفسك لأن دول تعابين أسهل حاجة عندهم القتل، مش هاطول عليكي.. خلي بالك على نفسك وسامحيني».

دموعي تتساقط، حزنت على ساندي للغاية، ما الذي يدفع المرء لأن يقرر اللا عودة سوى جحيمٍ أشدَّ سوءًا من مصيرٍ مجهولٍ لا يعلمه أحد؟ أحيا وكأنني في حرب مافيا للعصابات، ولكنها هذه المرة مافيا إدارة دولة بالكامل، وهذا الهاتف قنبلة موقوتة ربما ستنفجر يومًا فيَّ أنا أولًا، سأحرق أي ملفٍ خاصٍ بي، ثم سأذهب إلى مكانٍ آخرَ أكثرَ أمنًا كي أخفيه بعيدًا عن الأعين، ولكن لن أستطيع الذهاب في تلك الأيام الصعبة.

مضى يوم الاثنين دون أحداث ذات شأن غير بيان الجيش الذي يدعو كثيرًا للتساؤل.. وأبرز ما أوضحه أن الجيش يحمي المتظاهرين ويتفهم مطالبهم ولن يكون ضدهم، بل وأدى من يتلو البيان التحية العسكرية لكل من سقطوا، وتعهد بإحكام السيطرة على الانفلات الأمني، لكن ما زال العدد قليلًا في ميدان التحرير، وما زالت دورتي الشهرية لم تنتهِ. لا أفارق التلفاز ليل نهار، الكل ينتظر مليونية الثلاثاء، وأنا حيرى للغاية، أذهب إلى هناك وليحدث ما

يحدث! مقدّر للمرأة أن تتألم أغلب الوقت حتى في أكثر لحظاتها حميمية.. لا بد أن تتألّم بعض الشيء حتى تحصل على المتعة، وكذا حين تريد أن تكون أمًّا تتألم في الولادة، والتربية ومهام المنزل، خرجت كي أجلس مع والدتي وكريستين وأبي، فلم أعتد الغياب عنهم لهذه الدرجة، نظر أبي إليَّ وعيناه تعانقاني، قائلًا «هترجعي الميدان امتى؟». كان في يدي حفنة من الفشار، لم تصل إلى فمي ثم نظرت إليه وقلت «إيه ده؟ اللي باسمعه ده جد؟ بتسألني هانزل امتي؟ غريبة دي!»، ضحك أبي ثم قال:

- بفكر آجي معاكي.

- لا يا نبيل إنت تعبان، وبعدين أنا مكانك.

لم يقل أبي شيئًا، جلسنا نتسامر، بدأتُ أتعافى من أعراض السعال تلك، ثم قررت أن أنام فقط، لم أذهب إلى غرفتي هذه المرة، ولكن قررت أن أشارك كريستين الفراش، فالجو بارد، نمت حتى أني لم أشعر إلا والساعة الحادية عشرة صباحًا، قمت مسرعة نحو التلفاز، القناة الإخبارية كالعادة، أعداد كثيفة تجتاح مصر كلها، في القاهرة والإسكندرية والسويس وطنطا والدقهلية، ولكن لفت نظري لأول مرة أنه توجد تظاهرات أيضًا لتأييد الرئيس الحالي، في منطقة المهندسين وحول ميدان التحرير، تضم بعض الفنانين المنتفعين وشراذم الحزب الحاكم. على ما يبدو محاولة لالتقاط الأنفاس.

قررت أن أشاهد ما يقوله التلفزيون في مصر، وجدت خبرًا عاجلًا مفاده خطاب للرئيس بعد قليل.. قلبي ينتفض، هل حقًّا سيتنحى؟ أم إنَّ هناك أمرًا آخر، دقائق والكل سيعرف، نادتني أمي كي أتناول فطوري معهم، تناولنا الفطور، البلد كله معطل لا يوجد أي مصلحة تعمل، والكل ينتظر في ترقب، تأخر الخطاب

كثيرًا فالساعة قاربت الثالثة عصرًا، أشعر بأني لست بحالة جيدة، مضت خمس وثلاثون دقيقة ثم أذاع التليفزيون بيان الرئيس الذي تعهد فيه الرئيس بلهجة فيها استعطاف واضحة وموجهة للشعب بتنفيذ سلسلة من الإصلاحات بما في ذلك دعوة القضاء لمحاربة الفساد، وأنه لم يكن يومًا طالب سلطة، بل هو فرد من أبناء القوات المسلحة. ومؤكدًا أن مسؤولياته هي استعادة أمن واستقرار الوطن لتحقيق الانتقال السلمي للسلطة، وأضاف أنه لم يكن ينتوي الترشح لولايةٍ جديدةٍ، مضيفًا «هذا عهدي إلى الشعب خلال ما تبقى من الأشهر القليلة في ولايتي كي أختتمها بما يرضي الله والوطن وأبناءه». واختتم خطابه قائلًا إنه فخور بإنجازاته على مر السنين في خدمة مصر وشعبها، وإن مصر بلاده هي المكان الذي عاش فيه وقاتل فيه، ودافع عن أراضيه وسيادته ومصالحه، وسيموت على أرضه.

دمعت عينا أبي وأمي ثم تلا ذلك سبابٌ واضح لي ومن هم في ميدان التحرير وصرخت أمي في وجهي قائلة:

- حرام عليكم! راجل كبير بيطلب الرحمة وخروج آمن له ولأسرته.

- وانتي هتصدقي حد بيكذب عليكي بقاله تلاتين سنة؟ طيب معملش كده ليه من غير ثورة؟

سكتت أمي، وهي ما تزال تدمع، وأنا لم أصدق ولكن الخوف من بقية الناس أن ينقلبوا على الثوار في الميدان، هذا رأي أمي وأبي وهم أعلى درجات التعليم والوعي، فما بالك بالبقية؟ انتقلت إلى القناة الإخبارية كي أرى تأثير الخطاب عليهم. أعداد كثيرة تفاعلت حقًّا مع الخطاب، وغادرت الميدان بالفعل، ما هذه

العاطفية الجوفاء؟ لا يمكن يومًا التنبؤ بردود فعل المصريين إذا كانت بالأخص عاطفية، وبعد لحظة لاحظت صيحات مدوية في ميدان التحرير.. «ارحل ارحل»، «الشعب يريد إسقاط النظام». في تلك اللحظة قررت العودة إلى الميدان فأحضرت حقيبتي وأعددت طعامًا وبعض الأدوات المهمة وبعض الملابس ثم ودعت أمي وأبي طال العناق بيننا، وأمي تودعني بحرقة وكأنها لا تريد أن تتركني، نزل معي أبي، ولكن ينبغي أن أصل قبل حظر التجوال، استقللت سيارتي فلا توجد أي وسيلة للمواصلات، ولكن أبي أصر على إيصالي بنفسه، أوصلني أبي إلى قرب المتحف المصري ثم عانقني وأعطاني صليبه الذهبي الخاص، استعطفني لأن أحمله، وبالفعل أخذته معي، انصرف أبي واتجهت نحو الميدان، تغيرت ملامح الذين على بوابة التفتيش، فهم غالبًا من جماعة حماية، يديرون الأمر بشكل فيه بعض الحرفية دون مضايقات، تأكدوا من بطاقة هويتي، وفتشتني إحدى الفتيات الموكلات بالأمر، وبالفعل دخلت الميدان، وكأنَّ روحي عادت إليَّ مرةً أخرى، ميدان الأمل، ذهبت إلى خيمة ثابت وجدت لحيته صارت أكثر كثافة ويبدو مجهدًا للغاية، ولكنه يكتب لوحة، والمفاجأة. الدكتور أحمد البرعي يجلس بجوار ثابت، ومعه حوالي عشرة من الوجوه التي لم أرها من قبل، أحدهم من حركة تحرير والآخر وجه مألوف من جماعة حماية والبقية لا أعرفهم، رحب ثابت بي على وجه السرعة ثم عاود الحديث عن خطورة ما دار بعد خطاب مبارك، من تعاطف حتى عدد كبير من الشباب داخل الميدان، فما بالك بعامة الشعب؟!

موقف الرئيس بات ضعيفًا وعلى ما يبدو يوجد توترٌ بينه وبين الجيش، اتضح ذلك من خطاب الجيش أمس عن حماية الشعب، دون الإشارة إلى الرئيس بأي شيء، لا أحد يعرف ما يجري خلف الكواليس، والعالم كله يستجيب لأصوات المصريين، العالم كله معنا الآن.

جلس الدكتور البرعي على الأرض مع رؤوس المعارضة كما عرَّفَني بهم ثابت وقد أعلنوا تمسكهم برحيل الرئيس قولًا واحدًا، وأضاف الدكتور البرعي أن «تعديل الدستور خدعة قالها الرئيس كي يحتفظ بالسلطة مدة أطول، وأنه لا حلَّ ولا تفاوض إلا بعد الرحيل».

القناة الإخبارية ما زالت مستمرة في التغطية رغم القبض على مراسليها، وتكسير مكاتبها وقد أجرت حوارًا مع القوى السياسية اليوم، شكر الدكتور البرعي منى الشريف على المجهود الرائع المبذول من خلال بؤرة تويتر، وثمّن الفكرة التي كانت سببًا رئيسيًّا في تفاعل العالم مع المصريين، لم أكن أعلم إلى ذلك الوقت أن الاتصالات قد عادت في نهاية يوم التاسع والعشرين من يناير ولكن ليس بصورةٍ كلية، وذلك طمأنني بعض الشيء وجربت هاتفي ولكنه لم يعمل، عرضت منى عليَّ المساعدة فهي عبقرية حقًّا في ذلك الأمر، في لحظة جربت هاتفي وهو الآن يعمل حتى خدمة الإنترنت ولكن الرسائل النصية لم تعد إلى الآن، والإشارة أيضًا ليست بالقوة الكافية.

الوقت يمر، انصرف الدكتور البرعي وكل من كان معه، وثابت يبدو متعبًا للغاية، أحضرت بعض الطعام من حقيبتي، ثابت أسند رأسه إلى الخيمة وقال:

- متشكر يا ماري. مليش نفس للأكل.

- كل أي حاجة شكلك تعبان ومرهق جدًّا

تنهد ثابت بشكلٍ فيه بعض المرارة ثم قال:

- الهم كبير يا ماري.

- ما هو كبير من يومه!

- يا ماري اتأخرتي عليا جدًّا، ممكن أقولك حاجة؟

اضطربت واحمر وجهي ثم أشرت له :

- نعم.

- كنت مفتقدك جدًّا، حسيت إن ضهري مكشوف، وانتي هنا طاقتي كانت الضِّعف.

شعرت حينها بأن لسعة برد أو تيارًا كهربائيًّا يسري في جسدي، وحاولت أن أخفف عنه بعض هذا الهم الثقيل، قمت بإحضار كوب من الشاي الساخن له، قال:

- ياه أهو أنا مش عاوز أحس بحاجة أحسن من إحساس دلوقتي.

شخص ما يأتي متجها نحونا، مفاجأة.. إنه نائل رحيب، نظرت إلى ثابت متسائلة فقال:

- أفرجوا عنه النهاردة.

صافحت نائل وهنأته، وجلس هو وثابت يناقشان تداعيات الأمر غدًا، وماذا سيفعلون، اشتركت معهم في الحديث وقلت:

- لازم يكون فيه تأمين مشدد بكرة على مداخل ومخارج الميدان، عشان أنا شوفت تظاهرات كبيرة مؤيدة للرئيس، ومحدش من أنصاره ورجال الحزب هيقفوا ساكتين في كلتا الحالتين خسرانين، يا إما يحاسبهم زي ما قال، يا إما عاوزين يقفوا جنبه عشان مصالحهم، يبقى اتوقعوا غدر.

نظر نائل إليَّ نظرة توقير، ثم نظر إلى ثابت وعيناه تلمعان، وقال:

- لازم يكون فيه ساتر بشري كبير عند مداخل ومخارج الميدان زي ما ماري قالت.

- بس ده هيعرض للناس للمواجهة، واحنا مش حابين كده.

ابتسم نائل، وقال:

- أو ممكن اللي بره يشوفوا العدد كبير يخافوا ويرجعوا، عالعموم أنا متفائل وربنا هيقدم الخير.

انصرف نائل، وجلسنا معًا وثابت يحضر مجموعة من الأوراق واللافتات، يكتب عليها، وهو ما يزال متعبًا للغاية، اقترحت عليه أن يذهب لينال قسطًا من الراحة لكنه رفض، وأصر أن يواصل إلى أن يكمل ما بدأه، الميدان مشتعل، كل الشباب لديهم شعلة حماس، في هذه الأثناء نائل له دور قوي في حثِّ الشباب على الاستمرار، وانضم إليه بعض الفنانين المناوئين لسياسة النظام وأيضًا بعض رموز الكتابة، والنقد والصحافة، قرروا جميعًا أن يشعلوا حماس الجميع، أغنية أم كلثوم «أنا الشعب» ترج الميدان، لكن ثابت في مزاجٍ سيئ.. إنه حتى لا يتحدّث كثيرًا، يكتب اللافتات فحسب، استأذنت ثابت كي أغادر، لكنه أصر أن يبقيني بجانبه، وضعت يدي على رأسه، ثم سألته:

- مالك يا ثابت شارد وشايل الهم؟!

دمعت عيناه وهو يقول:

- علي فخري مات.

لم أعرف من علي فخري.. غير أن الاسم لا يبدو غريبًا، ثم استطرد:

- علي أعز أصدقائي، مهندس مدني، من الصعيد، من أرقى وأكثر الناس أدبًا.

أنصتُّ له، لكني سألته:

- مات إزاي؟ هو كان هنا؟

أجابني وعلى وجهه كل ألوان الندم:

- علي عمره ما كان له في السياسة، وهو وحيد أمه بعد خمستاشر سنة، جه الميدان عشان يطمن عليا، عشان والدي كلمه، جه من المنيا يا ماري عشان يطمن عليا.

- برده ماقلتليش مات إزاي؟

- كان شايل الموبايل بيصور بيه فيديو، رصاصة صابته، مات. كنت بفكره بيهزر طلع مات يا ماري، تخيلي أمه حالها عامل إزاي، وهي رايحة تستلمه جثة كده، وأنا السبب، يا ريته ما جه!

انتابت ثابت نوبة بكاء، حتى إنه لم يتمالك نفسه وسقطت دموعه على مداد تلك اللافتة التي يكتبها، لم أتمالك نفسي غير أني عانقته، وهو في نوبة بكاء كالطفل، هدأت أنفاسه بعض الشيء ثم أعطيته منديلًا كي يجفف دمعه ثم عرضت وجهي أمامه وقلت:

- مش إنت اللي بتقول كلنا ممكن يحصل لنا كده؟ واحنا بنكتب التاريخ، والمجد لكل اللي جاي بعدنا، مش عاوزة أشوفك كده يا ثابت.

التقط ثابت أنفاسه، ثم نظر إليَّ ولم يتكلم، لم أدعه لحظة، لكنه قرر القيام فجأة وذهب صوب الصينية، ومررتُ معه على جميع الخيم والتجمعات، ولم أعرف ما يدور بباله في تلك الأوقات الصعبة، ثم دعا جمعًا من الشباب الذي ينتمي للتيارات الدينية وطلب إليهم عمل منصة كبيرة أمام الصينية لتكون منبرًا لصوت الثورة المصرية، ولم أدرِ لِمَ اختصهم بذلك، وبالفعل في غضون ساعات تم الانتهاء من منصة ضخمة في قلب ميدان التحرير ومكبرات صوت، وشاشات، في وقت سريع جدًّا، ثم صعد ثابت والوقت متأخر جدًّا، وقال بصوتٍ عالٍ (الشعب يريد إسقاط النظام.. الشعب يريد إسقاط النظام). ورفع ثابت يده والميدان كله يهتز، هذه ليلة لن ينام فيها أحد، انتهى ثابت والساعة تقارب الثالثة إلا الربع صباحًا، اصطحبته فأنا لست متعبة، ثم قلت:

- أيوه كده يا بطل.

- نفسي البلد دي تنضف من كل المجرمين والكلاب دول.

- إنت عارف الساعة كام؟

- مال الساعة ومال اللي بقوله؟

- الساعة الآن الثالثة، أكتر وقت بينغص عليا حياتي، وأكتر وقت باكرهه.

لم يجادلني ثابت فيما أقول، ثم قال لي:

- تعالي نشرب شاي وبعدين ننام ورانا يوم طويل بكرة.

نجحت في أن أغير بوصلته، فيا لقوة المرأة إن أحبت بصدق، صار حبيبها كونها وعالمها الأوحد. كنت ألوم كثيرًا من النسوة مِمَّن كن يقلن ذلك، ولكن أيقنت أن المرأة هي (عامل التحويلة الذي يحرك السكك الحديدية، ليبدو الرجل

بصورة القائد)، إلا أنها في الحقيقة من تقود بحكمة بالغة، المرأة هي وسادة الكون العظيم، ومنحة السماء لآدم، لا يمكن فهم ما تقوم به المرأة إلا إذا أحبت.
أوصلني ثابت إلى الخيمة، لم يَعُدْ بها سوى مكانٍ صغيرٍ، لم أستطع أن أبقى فيها، عاودت الخروج، ثم ذهبت ومعي معطف آخر له كان قد أعطاه لي، قمت بغسله أثناء تواجدي بالمنزل، وقررت أن أجلس بجانبه، حتى لو غلبني النوم فأنا بين أكثر الأيادي أمانة وشرفًا، نمت ولم أشعر بشيء حتى الصباح، استيقظت الساعة التاسعة صباحًا، إنه يوم الأربعاء الموافق الثاني من فبراير لعام ألفين وأحد عشر، وجدت ثابت يركن ظهره إلى الحائط ورأسي على قدمه، أيقظته، وذهبت لأغسل وجهي من أحد الصنابير بجوار المسجد، غسلت وجهي وعدت، وقبل أن ألقي عليه تحية الصباح.. صراخ في كل مكان، والجميع ينظرون بدهشة وذعر، جمع كبير من الجمال والسيوف والحمير والبلطجية يخترقون الميدان ضربًا وقذفًا بالحجارة ويحملون السياط يضربون كل من يقف أمامهم، نظرت لثابت وهو في ذهول:

- إيه ده يا ثابت إحنا بنحلم ولا إيه؟!

ما زال ثابت في ذهول لكنه قال:

- أنا قُلت مش هتعدي على خير!

عدد كبير ممن في الميدان يسقطون ما بين قتيلٍ وجريحٍ، أسرع ثابت نحو المنصة قال:

- فين الشرطة العسكرية؟ فين الناس؟ لو مش هتقدروا تحموا نفسكم، يبقى جايين تدافعوا عن غيركم إزاي؟

ثم اعتلى رجل أعرف ملامحه جيدًا المنصة، الشيخ شهاب فهمي وقد ألهبت

الجميع الحماسة والشجاعة حتى هتف الجميع، بالروح بالدم نفديك يا وطن .. بالروح بالدم نفديك يا وطن. وتقدم الجميع واشتبكوا مع أصحاب الجمال، وكان هنا دور مجموعة من الشباب يبدو أنهم ينتمون لجماعة حماية الدينية بدفاعٍ مستميتٍ، وطردوا كل من دخل الميدان إلى أن أتت الشرطة العسكرية وأجبرت أنصار الرئيس على الابتعاد عن الميدان، ولكن قُتل أكثر من أربعين شابًا، وأصيب ما يقرب من ألفين، في تلك اللحظة قررت مرافقة الجرحى لمستشفى الوادي والحكمة بالقرب من الميدان، العدد هائل يفوق طاقة المستشفى، ما بين إصابات بالغة وإصابات كبيرة قابلت الكثير من أصدقائي الأطباء، وهم يقومون بعملٍ لا يقل عمَّن هم بالميدان، فمنهم من لم يزر بيته وأهله منذ اليوم الأول للثورة، عمل متواصل. وبعدما اطمأننت على عددٍ كبيرٍ من المصابين عدت إلى الميدان. الساعة الآن الرابعة عصرًا، اتصلت بثابت واستطعت أخيرًا العثور عليه فقد كان بالقرب من المتحف المصري، والميدان الآن يعج بالمتظاهرين، امتلأ عن آخره حتى الشوارع المؤدية للميدان ممتلئة بكاملها، لم أعد ألمح ركنًا شاغرًا، انتفض المصريون حتى كبار السن والعجائز، كل النقابات، وفنانون كثر، نساء بسيطات، وحتى الأطفال يملؤون الميدان، عيناي تذرفان الدموع من الفرحة، ذهبت نحو ثابت فلم أره فرحًا كمثل هذا اليوم، قال ثابت والازدحام شديد بالكاد أسمعه:

- انقلب السحر على الساحر يا ماري، جت على دماغهم!، نسميها بقى موقعة الجمل.

- هي فعلا موقعة الجمل، أرواح الناس اللي ماتت لعنة على كل خسيس ومجرم.

- حق الشهدا مبيروحش. كده احنا في نقطة اللا عودة.. النظام هدم نفسه بنفسه.

استفز كل المصرين بعدما أوشكنا على فقدان الأمل ظللنا كذلك ساعات، ثم هدأت الأحوال ونام الجميع والتفاؤل يفيض من ميدان التحرير، رائحة الكرامة في كل مكان، نمت في خيمتي، ولكن ساعات قلائل واستيقظت على جحيمٍ من صوت الرصاص الحي المتواصل، طلق ناري مكثف من سياراتٍ مجهولةٍ، ومنها سيارات إسعاف وأخرى دبلوماسية، انتفض الجميع، وظنوا أنه الهلاك، أو أنه الموت لا محالة، حالة ذعر لا يمكن تفسيرها وخاصة أن بالميدان أُسَرًا بكاملها وأطفالًا، كل الناس يجرون، يسقط عدد كبير من الضحايا والدماء صارت في كل مكان، الأمر مريع وصوت صراخ الأطفال والنساء في كل مكان، ولكن ما لبث أن هدأ الأمر بعض الشيء، وبقدوم الساعة الخامسة فجرًا.. وكما كان متوقعًا بدأ هجومٌ آخر من البلطجية من جهة ميدان عبد المنعم رياض ومن فوق كوبري السادس من أكتوبر، وكان الهجوم الأكثر همجية وإجرامًا إذ تم إطلاق نيرانٍ عشوائي من المدافع الرشاشة، وبكثافة غير معهودة مما أدى إلى سقوط نحو ستين قتيلًا والكثير من الجرحى، ولكن مع بداية ظهور الخيوط الأولى من ضوء النهار انتهى هذا الهجوم الوحشي وقد قيل إن الجيش أطلق الرصاصات في الهواء لإرهاب البلطجية، وعرفنا من شاشات التلفاز أن النائب العام المصري قد أصدر قرارًا بمنع سفر أحمد عادل أمين التنظيم السابق في الحزب الحاكم، ووزير الداخلية السابق، ووزير السياحة السابق، ووزير الإسكان، وجاء في القرار تجميد حسابات المصارف لهؤلاء، كما شمل القرار عددًا آخر من المسؤولين.

محاولة من حكومة رفيق لاحتواء غضبة النّاس ولإخماد ردة فعلهم تجاه هذه الهمجية والوحشية، يوم أسود من أوله.

الخميس الثالث من فبراير، كل من في الميدان يبكون، وأكثر الأحداث أسفًا قتل ما يقرب من عشرة من متحدي الإعاقة الذين لحقوا بالمتظاهرين، أي بشرٍ هؤلاء؟ وأي سياسةٍ إجراميةٍ يتبنون؟! هؤلاء جمع من القتلة، يقودهم شوكت الخفيف، ونجل الرئيس الذي يطمع في وراثة تركة أبيه، وتكية أمه صاحبة الوجه المظلم، سبب رئيس في ما آلت إليه أحوال هذا البلد، هو عاصم ابن الرئيس، أفسد السياسة، وباع الوطن لشرذمة من رجال الأعمال الفاسدين، وزوَّرَ الانتخابات النيابية الأخيرة، فهو يعد العدة والعتاد لأن يصبح رئيسًا ولو على رقاب الجميع، لكن الجيش قد لا يتقبل مثل هذه الأمور، والأمر صار صراعًا مباحًا فيه كل شيء حتى الدماء.

الساعة الآن الحادية عشرة صباحًا، كلنا أمام الشاشات في ميدان التحرير، هم يعلنون مفاوضات مع رموز المعارضة لا أدري أي معارضة هذه، ويعلنون أنهم توصلوا لحل أن يفوض الرئيس صلاحياته لنائبه عمر عتمان، هؤلاء لا يدركون الواقع، بل قرروا أن تعود الحياة لسابقها ابتداء من الأسبوع القادم، ومعاودة البنوك والبورصة للعمل، ثم أعقب ذلك عودة خدمة الرسائل النصية، وبذلك تكون خدمة الاتصال عادت بشكل كامل. استقبل كل من في الميدان هذه الأخبار بسخريةٍ شديدة، بل رفضها الدكتور البرعي وجماعة حماية التي وجدت في الميدان فرصة حياةٍ لن تأتي مرة أخرى بحسب قولهم، ارتفع سقف المطالب حتى طالب الجميع هنا بمحاكمة الرئيس وكل رموز هذا النظام الفاسد، واتفقوا على أن تكون الجمعة غدًا هي جمعة الصمود، والصلاة على كل من اغتالته يد

الغدر الآثمة، ثابت اختفى عن الأنظار لدقائق لكني عثرت عليه، هو يقف مع منى الشريف، تتبدل حالتي حين أراه معها ولو على سبيل العمل، أعرف أن الوقت لا يناسب ما أفكر فيه، لكن لا أستطيع إخفاء ما بداخلي، عيني لا تفارقه، حاولت أن أغير وجهتي، ذهبت إلى الشيخ شهاب، لا يمكن وصف الراحة التي تفيض من وجه هذا الرجل، توجهت نحوه ثم قلت له دون مقدمات:

- إزيك يا شيخ شهاب؟

نظر إليَّ ثم عاد يعزف على عوده وقال:

- إزيك يا بنتي ؟

- إنت مش عاوز تتكلم معايا عشان مسيحية ولا إيه!

ضحك الشيخ بشكل فيه أدب ثم قال:

- ما هنا مفيش حاجة اسمها كده، هنا زي الحرم.. كله هنا آمن وربنا يحرسكم يا بنتي، البلد دي عمرها ما عرفت مسيحي ومسلم إلا بعد الوجوه السودا ما حكمتنا.

- بالراحة بس أنا بهزر معاك، مش إنت بتقول إني بنتك؟

سكت الشيخ شهاب ثم دمعت عيناه فلم أدرِ لم !سألته:

- مالك يا شيخ؟ أنا متأسفة!

أجاب وهو بالكاد يتكلم:

- أصل انتي بتفكريني ببنتي، هي في سنك.

- طيب وراحت فين؟ أنا متطفلة بس لازم هخليك تضحك عشان أصلح غلطتي.

وضع الشيخ شهاب العود من يده، وقال:

- تخيلي يا بنتي زوجها محرّج عليها متكلمنيش، عشان في نظره زنديق، إكمني باعزف على العود، بنتي اللي معنديش غيرها بقالي تلات سنين مشوفتهاش.

لم أعرف كيف أهون على الرجل ما هو فيه، فالعيب كل العيب على النساء اللائي يقبلن بهذا الذل، تترك أباها من أجل ماذا؟ زوج متطرف؟ يا إلهي كيف يفكر هؤلاء؟ ولم تلك النظرة السوداء؟ ما زالت المرأة عند المجتمعات الشرقية مجرد دمية يتم التلاعب بها، وسلعة تمتلك وتستهلك عند الحاجة، حاولت التخفيف عنه، ولكنه يبدو مهمومًا للغاية، كان في يده كوبٌ من الحليب أخذته كشيء من الدعابة ثم قلت «بكره تروق وتحلى، كل حاجة هتتغير بس أنا هاشرب عشان عطشانة»، وبالفعل ابتسم الشيخ ثم استأذنته، وحاولت المرور.. ازدحام شديد، لا يوجد موطئ قدمٍ شاغرٌ، لا أرى ثابت، ارتبكت بعض الشيء ثم تابعت اختراق الصفوف حتى وصلت إلى أمام المنصة، أعلن شاب يدعى محمد باهر وهو مؤسس حركة تحرير الثورية، أن الجمعة القادمة والأسبوع المقبل هو أسبوع الصمود، استطعت أن أرى ثابت، يبدو بحالٍ أفضل من أمس، حقًّا الأجواء احتفالية، والجو في غاية البرودة، أتساءل كيف وأين سيبيت هؤلاء؟ لكن الجميع قد قرروا البقاء حتى إشعارٍ آخر، ذهبت أنا وثابت لإحضار بعض الطعام من خارج الميدان، فما زال عم إسماعيل صاحب محل الفول يقدم الطعام بأسعار مقبولة، وقد صار من أكثر الناس استفادة من تلك التظاهرات، أحضرنا

ساندويتشات الفول والفلافل وعدنا للميدان، وفي طريقنا نحو الميدان، أمسك ثابت بيدي، ثم قال «تصدقي يا ماري انتي أحلى حاجة في الدنيا»، تلعثمتُ فلم أعرف كيف أرد، لم أوقن حينها غير شيء واحد أني الآن أملك الدنيا، لا أريد شيئًا آخر، ثم تابع ثابت حديثه قائلًا «هنفضل نفتكر الأيام دي لغاية ما نموت وهنحكيها لأجيال جاية كتير، إن الجيل ده أنضف جيل جه في تاريخ البلد دي، ساعتها يا ماري لا هيبقى فيه تميز ولا فقر ولا طائفية، هتكون أمراض من الجاهلية مكتوبة بس في كتب التاريخ»، وفيما ثابت يتكلم أنصت له بعناية شديدة، أحبه، وأحب كل شيء فيه، آه لو كان الوقت يسمح لكنت قبَّلته، نظرت إليه ثم حاولت السيطرة على نفسي، وقلت «أعتبر ده إيه بقى؟ معاكسة وطنية؟»، ابتسم ثابت بعد وقتٍ طويلٍ من العبوس، فلم يعد يبتسم منذ فترة بعيدة فقلت له «ياه أخيرًا شفت سنانك تاني! كنت فكرتهم وقعوا، مبقيتش شايفة غير الدقن السودا دي بس». فهم ثابت ما أردت قوله ثم نظر إليَّ وقال:

- ماري، مصدقة أي شيء من اللي احنا فيه دلوقت؟!

- لحد دلوقتي مش مصدقة أي حاجة بتحصل، حاساه مجرد حلم، لكن مش عاوزاه يخلص حتى ولو كان كدب، هتصدق يا ثابت لو قلتلك إني أول مرة أحس إني مش خايفة؟ كنت باترعب لما بافتكر إني ممكن أموت رغم إنها حقيقة، وأنا مش عارفة رايحة فين، الإلحاد تجربة قاسية، طريق ضلمة ملوش آخر غير الجسد، وبرضه الأديان طريق ضلمة ملوش غير القيود والتحكم، أكيد ربنا مش كده، انت عرفتني ده، إن ربنا مش عاوز الناس تقتل ولا تحارب ولا تظلم، ربنا بنحسه جوانا في لحظة زي اللحظة دي».

دمعت عينا ثابت وهو ينصت إلي بذهول، فلم يكن يعلم أني ليل نهار أفكر في الطرح البسيط الذي توصل إليه، فالله حقًّا كائن في نفوسنا قبل أن نبحث عنه، بمجرّد الإنصات إلى همس تلك النفوس نراه، تلك اللحظة فارقة في حياة كل منا، تلك التي يجد فيها المرء نفسه قبل أن يجد الله، مما تظاهر الملحدون بأنهم عرفوا، فهم يسيرون عكس أنفسهم، والمحور الرئيس للمعرفة، يبتعدون مثلهم مثل رجال الدين، الذين لا يرون غير أصنامهم، ومع ذلك تولد لديهم يقين الأفضلية في كل شيء، فهم أكثر من يفهم، وأكثر من يعقل ويستخدم عقله، رأسي كله أفكار جنونية، ولكن من الآن فليذهب المنطق للجحيم، ناديت ثابت دون سابق إنذار وصوتي عال جدًّا ثم قلت:

- ما تيجي نتجوز دلوقتي!

اتسعت حدقتا ثابت، وظل يحدق إليَّ، ثم امتنع عن السير وتوقف، تابعت حديثي:

- أيوه يلا دلوقتي حالًا، ولا خايف تتدبس؟ أنا عارفة إن مفيش محامي، بس الشيخ شهاب أهه موجود واتنين شهود وورقة توثق الجواز وكله يبقى تمام.

ثابت لا يقدر على الرد، في حالة ذهول، وأنا أيضًا لم أصدق ما قلت، غير أني لم أدع لنفسي لحظة كي أفكر في ما أقول، الحياة قد لا تدع لك فرصة أن تفعل ما تريد، فحاول أن تستمتع وحسب، قلت لثابت «ماتفكرش، يلا بينا»، بالفعل ذهبنا إلى الشيخ شهاب، وقصصنا عليه الحكاية، وأخبرناه بأن الزواج المدني في هذا البلد غير معترف به، لذا سيعقد هو العقد شفهيًّا. ذهب ثابت لإحضار الشهود.. نائل وأسعد نزيه، وبالفعل تم العقد، كل أخذ ورقته ونحن في حالةٍ من

عدم التصديق والنشوة التي لا يمكن أن يستوعبها أي قلبٍ؛ في أقلَّ من ساعة تزوجنا، نحن الآن زوجان، أمام العالم كله، ما هذا الجمال والجنون يا ماري؟!

حينما تتحرر النفس من تبعات الخوف وقيود المنطق، تذوب كل خيوط المستحيل، ويطفو سحاب الأمل فوق كل شيء حتى يعلو على كآبات الماضي ليرسم المستقبل. قبَّلني ثابت من جبهتي، فاقشعر جلدي كله، وكأنها حالة من حالات السُكر الشديد ثم قال وهو يقبض على كفيه خجلًا:

- كنت حابب أعمل لك حاجة أحسن من كده، حاجة تليق بيكي.

وضعت يدي على فمه ثم قلت:

- أنا اللي نفسي أليق بيك يا ثابت، مش هخليك محتاج حاجة».

أمسك ثابت بيدي وقبَّلها ووضعها على خده ثم قال:

- أنا مش محتاج حاجة تاني من الدنيا يا ماري، أنا كده ارتحت، ونفسي راضية.

أشرت لثابت أن نذهب بعيدًا بعض الشيء، فلم نخبر الكثيرين بالزواج حتى لا تحدث أي بلبلة أو فتنة، وكان ذلك بناءً على رغبتي، لم يعرف أحد ملابسات القصة، اكتفينا بأصدقائنا المقربين وحسب، ثابت يبدو شاردًا.. ناديته:

- إحم إحم! رُحت فين يا عريس؟ أنا جعانة جدًّا والفول والفلافل بردوا.

- كنت نسيتهم.. يلا ناكل أنا هاموت من الجوع أنا كمان.

تناولنا الطعام وجلست بجانبه، والليلة هادئة للغاية، وكأن الكون يحتفل بوجوده معي، الكون ينصت لما فعلنا وما نقول، وكأننا فهمنا لغته وعرفنا أنه لا يتسع سوى للمحبين، وأن الله أدار الكون بتلك اللغة، لغة التناغم بين الأفئدة والنفوس، فكل الذين يمرّون إلى الله عليهم معرفة لغته وطريقته، لا أصدق نفسي وكأني صرت أحد الناسكين أو المتصوفين، غرباء الأطوار.. لا يهم، المهم أني سعيدة الآن، باغتني ثابت قائلًا:

- يا ماري ممكن أسالك سؤال؟

- أكيد.

- بتحبيني؟

- إنت شايف إيه؟

نظر ثابت في عيني، وقال:

- إنتي عارفة يا ماري إنك غيرتي حياتي كلها؟

- إزاي بقى؟

- تخيلي من واحد في قمة الانهزامية، عنده اكتئاب شديد، وفقد الأمل، ومحدش بيهتم ولا بيسأل فيه لا قريب ولا صاحب، تحولت لرجل مهزوم يائس، ملوش وزن وخسرت كل شيء، تفوقي ودراستي وحتى علاقتي بالناس، كنت دائم الكآبة والحزن، مكانش عندي أي أمل في بكرة، تجارب متكررة مع الاكتئاب الشديد وعدم جدوى العقاقير والأطباء، ومرارة البحث. جربت كل شيء، كل دين وطائفة وفلسفة.. والإلحاد، كل حاجة ممكن تكسر وتهزم مريت بيها، حتى أقرب الناس

تخلـوا عنـي، ومحـدش وقـف جنبـي في أزمتـي حتـى إننـي كنـت أتمنـى المـوت بـأي شـكل رغـم كـوني صغـير السـن حينهـا، لكنـي كنـت متأكـد إن الحيـاة بتـدي فرصـة تانيـة، يـوم طلـع في دماغـي بعـد انقطـاع طويـل عـن الجامعـة أن أذهـب إلى هنـاك، بـلا أي داعـي أو سـبب! قابلتـك هنـاك، انتـي جيتـي سـألتيني سـؤال «هـي المحارضـة فـين؟». بالخطـأ بـدل مـا تقـولي محـاضرة، فقلـت زيـك بالخطـأ «المحارضـة في المـكان ده»، رغـم إني كنـت لا عـارف هـي فـين ولا أي حاجـة، وبعدهـا ضحكتـي أحـلى ضحكـة في الدنيـا، ضحكـة عمـري مـا نسـيتها، ولا يمكـن أنسـاها، الضحكـة دي غـيرت حيـاتي كلهـا، مـن رجـل مهـزوم ملـوش أي وجهـة إلى حـد قـوي، قـدر يتعـافى، ويقـف عـلى رجليـه، ممكـن مـن وجهـة نظـرك أو أي حـد دي ولا حاجـة، لكـن الضحكـة دي كانـت بـذرة المحبـة الـلي اتغرسـت جوايـا، كل أفـكاري اتبدلـت، كل حيـاتي اتغـيرت، شـخصية تانيـة غـير الـلي كنـت أعرفهـا قبـل كـده، أنـا مبقتـش مصـدق، كل شيء تغـير جذريًّـا، كل يـوم ألاحـظ أني أفضـل مـن الـلي قبلـه، بـدأت أركـز، كل أفـكار الطائفيـة طـارت مـن دماغـي، علاقتـي بـكل النـاس بتتحسـن، بقيـت أتلـذذ بخدمـة النـاس حتـى إن بعضهـم كان بيشـك فيـا، طاقـة محبـة تفيـض عـلى الكـون بضحكـة واحـدة، عشـان كـده كان نفـسي أرد لـك الجميـل بـأي شـكل، ماكنتـش أعـرف حتـى غـير اسـمك.. مـاري، لمـا كنـت أحتـاج طاقـة إيجابيـة كنـت بـدوَّر عليـكي وانتـي حتـى مـش واخـدة بالـك، عملـت حسـاب فيسـبوك وهمـي حاولـت أتواصـل معـاكي، وفعـلًا بعـت لـك رسـالة ولكـن طبعًا عنفتينـي جـدًّا، وحاولـت أعتـذر لـك بـكل الأشـكال لكـن برضـه محبتـش ألخبطلـك حياتـك، خليتـك جوايـا يـا مـاري، بعـد مـدة مـش عـارف أشـوفك فضلـت أدور لمـا عرفـت بيتـك وانتـي سـاكنة فـين، كنـت باقـف بالسـاعات تحـت

البيت عشان أكون جنبك، كل يوم كنت بانجز حاجة كنت بحس إنك ليكي فيها نصيب كبير، اشتغلت على نفسي واتعلمت حاجات كتيرة في وقت قصير، وبقيت طبيب شاطر عيادتي فيها طوابير رغم إني أصغر من ناس كتير، كل حاجة كسبتها كتبت لك نصها، مستغربيش ده معاكي في المفكرة اللي أنا اديتهالك، وماتستهونيش بالضحكة، دي البذرة اللي انتشلتني من الضلمة.. كبرت وفي النهاية انتي اللي زرعتيها، وده حقك في الفترة اللي فاتت. جاتلي فكرة إن أقابلك وأقولك واللي يحصل يحصل، ولكن اترددت خفت أكون سبب في خلاف مع أسرتك فأكيد ده مش رد الجميل برضه، فضَّلت الصمت والسكوت، وأنا باتابعك من بعيد واليوم اللي كنت باشوفك فيه عمر تاني يا ماري.

صرت ذائبة كالثلج في الماء الدافئ مِن وقع ما أسمعه.. أكل هذا الحب قد يكنه أحدهم وأنت لا تدري؟ لماذا لم يُدِ الناس المحبة على هذا النحو؟ أيوجد من بهذا النبل في عالمنا المادي؟ أريد أن أخبّئ ثابت حتى لا يعلم بأمره أحد غيري، يبدو أنه من طينة أخرى غير الجميع، نحن ننظر أمام أقدامنا ولا نعلم أيًّا من أفعال الخير قد يجلب لنا المعجزات، فلم أكن أقصد أن أخص ثابت بتلك الضحكات، ولم تكن من أجل أي شيء، لكنها على ما يبدو إرادة عظيمة تحيا بداخلنا تدير اللحظات الفارقة بعناية فائقة. قاطعت ثابت وقلت:

- ماله بقى حرف (ر) بتاعي؟!

ضحك ثابت ضحكة عالية جدًّا وقال:

- يعني كنتي عارفة؟ وساكتة طول الفترة دي؟ طيب فاكرة نَص الرسالة ولا؟

- فاكرة نَص الرسالة؟ الرسالة دي بقى يا ثابت هي برضه اللي غيرت لي حياتي وقلبتها كلها وغيرتها مية وتمانين درجة.

نظر ثابت وعيناه تضحكان ثم أزال بعض الدموع التي سقطت عن عيني بإصبعه وقال:

- ما تهربيش. فاكرة نص الرسالة؟

you have the best (R) I had ever seen in my life

- الجملة اللي عقلي بيرددها أكتر ما باتنفس يا ثابت، كنت باعيش للجملة دي رغم بساطتها، حبيت لدغتي بحرف الراء رغم إنه كان يضايقني كتير، وفضلت رافضة إني أعتبرها شكوك أو وساوس، حاجة جوايا كانت بتاخدني ليك مكنتش عارفة هي إيه، أي مشكلة بتحصل كنت بافتكرك، أنا كنت شاكة بس في حاجة أكبر من الشك كانت بتخليني أجري عليك حتى بيني وبين نفسي، أنا كنت باتخيلك معايا طول الوقت بدون حتى ما أعرفك ولا أعرف انت مين ولا جاي منين، اللي حصل بينا أكبر دليل إن الحب هو الدين اللي المفروض يجمع الناس، هو البوصلة اللي المفروض تحركهم بدون قيود، بدون منطق، مفيش أعلى وأسمى من اللي احنا بنعيشه دلوقتي.

لم يدعني ثابت أنهي حديثي وضمني تحت كتفه، فالساعة الثانية صباحًا، ارتكزنا إلى الحائط ونمنا، لم أشعر براحة مثل هذا اليوم، ولم يوقظنا سوى صوت مكبرات الصوت، فالميدان ممتلئ لآخره، التفَّ الجميع وروح المحبة تحلق في سماء الميدان، تعابير الوجوه يعلوها الأمل، الساعة الآن الرابعة عصرًا، الأمور هادئة تمامًا وما زالت الأجواء احتفالية، الشاشات تنبئ بعودة الحياة إلى القاهرة ابتداءً

من الأحد، وعودة عمل البنوك، تلك الأخبار تثير استفزازًا في قلب ميدان التحرير، ولكن في النهاية مضى يوم الجمعة بلا أحداث تذكر، لم أفارق ثابت لحظة، حتى في اجتماعاته أريد أن أتشربه، انتهينا من اجتماع مع الدكتور البرعي وأعضاء ممثلي كل المعارضة المصرية وكان الاتفاق على توحيد المطالب، وأولها تنحي الرئيس ومحاكمته هو وكل أفراد النظام، وإقرار لجنة لصياغة دستور جديد للبلاد وبعدها انتخابات رئاسية، عدنا إلى الخيمة واسترحنا جميعًا بعد أن تناولنا دجاجًا أحضرته إحدى السيدات كانت أعدته داخل الميدان.

نظر ثابت إليَّ وقال «هي عرفت إني اتجوزت ولا إيه؟ ده أنا قربت أنسى طعم اللحمة». أكل ثابت وأغلب الحضور، ثم تناولنا الشاي، وذهبنا إلى أحد رسامي الجرافيتي، وهو مبدع بمعنى الكلمة يدعى أحمد منير، فنان استطاع تجسيد كل ما يجري في لوحات إبداعية على الجدران والحوائط، ثابت لا يبدو أنه يعرفه جيدًا لكن منير يعرف ثابت، صافحناه ولكنه لا يتكلم كثيرًا، يرسم فحسب ويدخن بشراهة، سأله ثابت «مين اللي بترسمه ده يا بطل؟»، لم يجب.. على وجهه الحزن كنا على وشك الانصراف لكنه عقّب قائلًا «دي مراتي. قتلوها هنا وكانت حامل في ابني، وماتوا الاتنين، مكنتش معرفها إني في الميدان لكنها شكت لما الاتصالات اتقطعت، جت هنا عشان تبقى معايا، مكانش ليها غيري في الدنيا، حتة من روحي، ماتت ومعرفتش أدفنها حتى لإنهم اعتقلوني يومها مع المجموعة اللي اعتقلوها». أمسك ثابت برأسه وقبلها ثم سأله «تسمحلي أسألك كان اسمها إيه؟». أجاب منير «كان اسمها رولا». قال ثابت «أوعدك وأنا عريس جديد لو خلفت بنت هاسميها رولا». ضحك منير وبارك لنا الزواج، وعدنا تجاه المستشفى الميداني، نصافح أصدقاءنا، فقد بذلوا الغالي والنفيس في إسعاف المرضى قدر المستطاع، وبالفعل عدنا بجوار مجمع التحرير وافترشنا الأرض، ونحن

نتمنى أن تزول تلك الغمة، حتى ترى بلادنا النور، رافقنا جمع من الزملاء يتغنون وينشدون باسم مصر، حتى خيّم النوم على الجميع وبالفعل نمنا، ولكن انتابتني نوبة قلق شديدة عند الثانية صباحًا دون أسباب، لم تعاودني تلك النوبات منذ فترة، ذهبت إلى المرحاض، وعندما أوصدت باب المرحاض سمعت أحدهم يتحدث عن محاولات تصفية بعض الشخصيات الهامة في تلك الأيام، في البداية لم أعرف هوية هذا الشخص، ولكن يبدو من طريقة كلامه وردود أفعاله أن له علاقة بالأمن، كل شخص يرد عليه قائلًا :تمام يا فندم»!.. فلو كان ضابطًا فماذا يفعل هنا بين الثوار؟! تأخرت في المرحاض حتى لا يلحظ أحد وجودي، فهو يتحدث خلف نافذة المرحاض، والصوت يصير أكثر وضوحًا بالليل، الأجواء هادئة وأغلب الناس نيام، تأكدت أن الطريق آمن الآن ثم عدت لمكان جلستنا، وجدت ثابت قد استيقظ، سألته:

- صاحي ليه دلوقتي؟

- عندي ألم شديد في بطني، أنا عندي قرحة، شكلي من اللخبطة معدتي التهبت.

أبدو في قمة الاضطراب عاجزةً عن التفكير في أي شيء.. ذهبت مسرعةً نحو المستشفى الميداني، لإحضار أي دواء له، لكن أدوية المعدة غير متوفرة لديهم، هرعت إلى الكنيسة، قابلت أحد الشمامسة، سألته عن الأدوية المطلوبة فأعطاني ما أريد ثم ذهبت إلى ثابت، أعطيته بعض الدواء، هدأ الأمر قليلًا، وبالفعل عاد ثابت إلى نومه، ورحت أنا أيضًا في سباتٍ عميق لم أشعر بشيء حتى استيقظنا على صوت أحد قادة قوات الشرطة العسكرية يحاول اقتحام الميدان تمهيدًا لعودة الحياة فيه كما أخبرنا، وفي كل أنحاء الوطن. شعر الجميع بالمسؤولية وأن أيدي

النظام لا تنام، هم فقط يتحينون الفرص للانقضاض على الثورة، هاج الميدان وماج، ووقف كل من بالميدان أمام قوة الشرطة العسكرية، وبالفعل استجاب الضابط بعد أن صدرت له الأوامر بضرورة ترك الميدان كما هو، احتفل الجميع وتولد لديهم اليقين بأنهم أصحاب الكلمة العليا، لا أحد سيفرض تلك الوصاية علينا مرة أخرى، الشعب الآن يحكم ويتكلم، هذا وقد حلت وفود كثيرة من الكنائس والمساجد من رجال دين ورموز دينية مرموقة ضيوفًا على ميدان التحرير للصلاة على الشهداء، وبالفعل نقلت كل وسائل الإعلام ذلك المنظر الذي ينم عن وحدة الشعب قلبًا وقالبًا خلف شيء واحد وهو الوطن.. الغريب في الأمر أني لم أضق ذرعًا برؤيتهم كما كنت قبل ذلك، مجرد الحديث عنهم كان يثير الغثيان.

الساعة قاربت الثامنة مساءً، وقد نسيت أن أخبر ثابت بما سمعت عند ذهابي للمرحاض، لكني أخبرته الآن، تعجّبت من ردة فعله، ذهب مسرعًا نحو نائل وأحضره كي ينصت لما قلت، أجرى نائل إحدى المكالمات لشخصية هامة في الحال، عرفت بعد ذلك أنه عمر عتمان، نائب الرئيس، تساءلت في نفسي ما الذي يجمع بين عمر عتمان ونائل وثابت؟ باغتني نائل وكأنه يعرف فيمَ أفكر، قائلًا.. «أقولك إزاي، عمر عتمان شخص قوي، وله خلاف مع النسوس وأمه، وهم مكانوش هيسمحوا للرئيس أبدًا إنه يخليه النائب، وعمر عتمان هو اللي خرجني من الحبس بالأمر المباشر بعد ما حقق معايا بنفسه، عقلية قوية جدًّا، وداهية بكل معاني الكلمة، بالإضافة إلى كونه شخصية في غاية الغموض والدقة، وما اكتفاش بالإفراج عني فقط، أفرج عن كل المجموعة عشان يثبت حسن النية وأداني رقمه الخاص، وقالي إنه لن يمس أحد من الثوار بسوء طالما هو عايش، وأضاف أنه لن يقبل بنقل صلاحيات الرئيس إليه، فهو في غنى عن هذا العبء الثقيل على حد زعمه، أنا بقى باكلمه عشان عارف إنهم عاوزين يخلصوا منه، طراطيش كلام سمعته وأنا في السجن، وأنا عارف إن نسوس عين أمه له عيون في الميدان واحنا متابعينهم، وسايبينهم وتحت عنينا عشان نعرف بيفكروا في إيه، فحبيت أبلغ الراجل عشان يفهم إننا مش ضد شخصه، ونعرفه إن الناس اللي بيحميهم بيلعبوا من وراه».

أنصتُّ لما قاله نائل باستفاضة، ومن هنا عرفت أنه ليس بالشخص الساذج، وأن الثورة ليست عملًا فوضويًّا، لكنه منظم ومدروس بعناية شديدة، نائل هذا هو الرجل الذهبي للثورة، يعرف ما يفعل، وهادئ للغاية، ولكن ثابت لم يتكلم، والعرق يتصبب من كل جسده، كاد قلبي ينخلع، ثم سقط ثابت مغشيًّا عليه، أقبلت عليه أتحسس قلبه ونبضه، ثم صرخت «ثابت! رد عليا! مالك؟» ثابت

يحرك عينيه والعرق يزداد، ونبضات قلبه سريعة للغاية، لم يعد أمامنا سوى مستشفى الوادي، نقلنا ثابت إلى هناك، وأنا في حالة انهيارٍ وبكاءٍ شديدين، قابلت أحد الأطباء، بعد مناظرة حالته، حوله إلى أحد أطباء جراحة المسالك الذي طمأنني أنه مغص كلوي لا علاقة له بالمعدة، يحتاج إلى بعض العلاجات والسوائل والراحة، لمدة ثلاثة أيام على الأقل، أجرينا بعض الفحوصات وتناول ثابت بعض العقاقير التي حسنت من حالته بشكلٍ ملحوظ، ولكنه يرفض أن يستريح بالمنزل، وبكى بكاءً شديدًا لأنه سيترك الميدان كالجندي الذي سيترك ميدان المعركة، لكن نائل أقنعه أن الأمور بخير الآن، وأنه لا بد أن يذهب إلى البيت كي يستريح وأن يغير أغراضه، فهو لم يدع الميدان منذ اليوم الأول، وبعد تحسنه فليعد، ثم ذكَّره بأنه أيضًا ابتعد عن الميدان فترة ثم داعبه قائلًا «اعتبرهم اعتقلوك يا أخي، لما تحس إنك بقيت كويس تعالى، ماري هتكون معاك لو فيه حاجة هتكلمنا». اضطرب قلبي عندما قال نائل تلك الكلمات، لا أدري لم لكن حاولت تهدئة نفسي فأنا الآن زوجته أمام الجميع، الأمر إذن مختلف، سأرافقه إلى المنزل، انصاع ثابت لنصيحة نائل والأطباء، وقررنا الذهاب إلى المنزل، حملت حقيبتي، وعدنا معًا، المنزل ليس ببعيد.. بشارع الحكمة القريب جدًّا من ميدان التحرير، شقة بالدور الرابع، بالمصادفة أمام قسم الشرطة الواقع هناك، حينها نظرت إلى ثابت مداعبة إياه وقلت:

- إيه يا سيدي هتبلغ عني الحكومة ولا إيه؟ شكلك هتطلع عصفورة!

أطال ثابت النظر إليَّ ثم قال:

- أنا بحبك.

احمرَّ وجهي وتسارعت دقات قلبي ثم قلت:

- طيب ما أنا كمان بحبك.. يلا نطلع عشان ترتاح وعشان ميتقبضش علينا .

ضحك ثابت حتى دمعت عيناه ثم صعدنا السلالم فالمصعد معطل هنا أيضًا، هو حقًّا يصعد السلالم بصعوبة، يتألم لكنه يعاند حتى الألم، ولكنه ما زال قيد الملاحظة وله عقاقير كثيرة كان أخبرني الطبيب بأنها ضرورية سأعطيها له بمجرد الوصول، أخيرًا وصلنا إلى باب الشقة، وقام بفتح الباب، المفاجأة.. رائحة عطري المفضل تفوح من داخل الشقة، نظرت إلى ثابت ثم صحت قائلةً:

إنت عرفتها إزاي؟ مش ممكن تكون صدفة!

- ده البيرفيوم اللي كنتي بتحطيه واحنا في الجامعة، لفيت مصر كلها عشان أعرف اسمه وعرفته في النهاية من واحدة من زمايلنا كانت بتحط نفس العطر، بعتّ جبته من بره مصر، عشان يفكرني بيكي.

دخلنا الشقة، ولم أصدق ما أرى، تبدو كالمتحف القديم أو كمرسم لأحد الفنانين، ولكن ثابت ما زال يتألم، ويتظاهر بالجَلَد، أمسكت يده وقبلتها، ثم أبلغني أنه بخير، الجدران والحوائط كلها لوحات في غاية الجمال، صور لي في كل مكان، صورتي وأنا أضحك في كل غرف المنزل، حتى أبواب الغرف عليها صورة قد رسمها لي، جريت إلى ثابت وعانقته بشدة، وبكيت حتى كاد يسمع صوتي الجيران، ثم قلت له:

فيه واحدة تستاهل الحب ده كله يا ثابت؟ حاسة إني باحلم!»

قال ثابت وهو يضع يده على شعري:

- انتي لو طلبتي روحي هاديهالك يا ماري، وهاكون مبسوط وراضي، أنا مش باعرف أعبر عن اللي جوايا بسهولة، بس اللي أقدر أقوله إنك أغلى عندي من روحي، مش مجرد كلام دي حقيقة والأيام هتثبتلك. عارفة إن الشقة دي مفيش مخلوق يعرف إني أخدتها؟ أنا أخدتها إيجار قديم من فترة من أحد أصدقائي هاجر أستراليا عشان تكون العالم بتاعي لما باتضايق، كل حتة فيها ملكك، باجي هنا باقعد أتكلم مع صورك، أنا باعرف أرسم على قدي، وباقعد أرسمك وبابقى مبسوط لما الصورة تكون قريبة من صورتك.

أخذت أتجول بين الغرف وكأني في واحة من واحات الفردوس، لم أشعر بغربة هنا بل على النقيض بدا المكان مألوفًا لي كأني أعيش فيه، وأحيا بين حوائطه منذ وقت بعيد، لم أعد أسمع صوت ثابت، جريت على الصالة وجدت ثابت يتألم بشدة، ربما عادت نوبة الألم المقيتة تلك، أحضرت المحاليل ووضعت العقاقير التي وصفها طبيب المسالك له، ثم وضع رأسه على سرير غرفته، عيناه يبدو عليها الإرهاق ويغلبها النوم، أطفأت الأنوار حتى أدعه ينام ثم ذهبت خارج غرفته أتفقد كل شبر في هذا المكان، لفت نظري إحدى الغرف المغلقة، قررت دخولها، بمجرد أن وطأت قدمي داخلها، رائحة عطري تفوح منها، بل صار معتقًا وأكثر جمالًا، لم أكن أعلم أن عطري بهذه الروعة، الغرفة تبدو كغرف العرائس، وتبدو أيضًا حديثة العهد، على الطراز الكلاسيكي القديم، سرير ذو حجم كبير وله ظهر مبطن بالشمواه الناعم ذي اللون الوردي، بجانبه دولاب ضخم لونه أبيض مزركش أيضًا باللون الوردي أمامه مرآة وتسريحة عليها عطور مختلفة، وكل مساحيق التجميل، وحتى أدوات تصفيف الشعر، اضطربت بعض الشيء، لم كل هذه الأدوات في شقته؟ ثم ما لبثت أن طردت تلك الوساوس

من رأسي فلا يوجد من هو أنبل من ثابت في هذا العالم، تلك الغرفة حقًّا تأخذك إلى الجنة، ورود مجففة في كل مكان، تفحصت الدولاب، وكأني أمام واحةٍ من الملابس المتعددة المنتقاة ذوقها كلاسيكي أيضًا لكنها منتقاة بعناية، ما عدت أصدق عينيَّ، ما كل هذا الحب؟ أتعجب كل العجب لِمَ لَمْ يأتِ ثابت إليَّ ليبوح لي بحبِّه؟ فأنا في النهاية من ذهبت إليه! أيعقل أن يؤْثِرَ أحدهم الصمت رغم ما يلقاه من شتى ألوان العذاب؟! فقد صمم واقعًا افتراضيًّا قد آمن به، وآثر الصمت على أن يجلب لي المتاعب هل يوجد من هو في نبل فارسٍ كهذا؟! خرجت من الغرفة وأنا أشعر بدفئها ورونقها، لم أشعر أني جميلة كهذا اليوم، اتجهت نحو المطبخ، يبدو قديمًا بعض الشيء ومهملًا، قمت بفتح الثلاجة آملة في أن أجد بعض ما يمكن تحضيره للطعام، لكن لم أجد سوى عبوات تونة وفول وبيض وبعض الجبن، قمت بإحضار البيض تمهيدًا لسلقه ليتناوله ثابت.. وضعته ينضج على النار، لكني ذهبت مسرعة نحو المرحاض، وحينما انتهيت هممت بالاستحمام، لا بد أن أنتهز فرصة نومه وأغرق جسدي بالماء الساخن، أوصدت باب المرحاض ثم خلعت ملابسي، ووضعت جسدي كله ليغمره الماء، بخار الماء يملأ المرحاض الآن، لم أود مغادرة الماء فهو يذهب الطاقات السلبية داخل المرء، لكن الماء الساخن يثيرني أيضًا، فلا بد أن أنتهي وأخرج قبل أن يستيقظ ثابت، فجأة سمعت دوي انفجارٍ شديدٍ، انخلع قلبي في البداية ظننته انفجارًا كما في الميدان، ولكن سرعان ما تذكرت أني تركت البيض ولم أطفئ النار، ذهبت مسرعة نحو المطبخ وبالفعل وجدت أن البيض انفجر وهو ما أحدث ذلك الصوت، أغلقت الغاز واستيقظ ثابت مسرعًا نحو المطبخ أيضًا، وكان ما كان.. فلم ألحظ أني عارية تمامًا، ومبللة، وجسدي يرتعد للغاية، لم أعرف ما أفعل، غير أني انهمرت في البكاء، ذهب ثابت مسرعًا وأحضر لي ثوبًا لَفَّنِي

بـه ثم اعتـذر لي، وأخـبرني بـأن الصـوت كان شـديدًا، فـأسرع ليطمـئن عـليَّ، في تـلك اللحظـة شـعرت بـشيءٍ مـن الطمأنينـة والأمـان، ووددت لـو أنـه عانقـني حـتى كسَّر أضْلُعـي، تركـني ثابـت بالغرفـة وذهـب إلى غرفتـه، ولكـني شـعرت أني قـد سـببت له بعـض الضيـق، أنا زوجتـه.. إذن لم هـذا الخـوف؟ دقـات قلـبي تتزايـد للغايـة، ولكـني اتجهـت نحـو الدولاب وفتحتـه باحثـة عـن قميـصٍ يليـق بعـروسٍ ليـلة عرسـها، كنـتُ قـررت أن أهبـه كل شيء، هـذه الليـلة سـتكون ليـلة عـرس اسـتثنائية، تزينـت ووضعـت أحمـر الشـفاه، تعطـرت ثم ارتديـت القميـص ذا اللـون السـكري الذي أخرجتـه مـن الدولاب، هـو حقًّـا مثـير للغايـة يظهـر ثـديَّ ويـبرز مؤخـرتي، ثم قـررت أن أذهـب إليـه، طرقـت الباب، أجـاب في الحـال «ادخـلي يا مـاري» وهـو يديـر ظهـره ناحيـة البـاب، لم يلحـظ وجـودي إلا حـين ذهبـت مـن الخلـف وأغمضـت عينيـه، ناداني قائـلًا «أنا متأسـف يا مـاري مـا قصدتـش أفزعـك»، لم أرد عليـه لكـني قلـت «إيـه يا سـيدي الذوق العـالي في لبـس السـتات؟ مكنتـش أعـرف إنـك خلبـوص كـده، لـو مـش عارفـة إنـك محـترم كنـت شـكيت فيـك»، تغيرت نـبرة صوتـه فمـا زلـت أغمـض عينيـه ولكـني أسـندت صـدري عـلى ظهـره محـاولة إثارتـه ثم مـا لبـث أن ضحـك وقـال «أنا كنـت عامـل حسـابي إن عمـري ماهكـون لحـد غـيرك، بعيّـش نفسي كل يـوم في الحـالة دي، عـلى أمـل إن يـوم تكـوني ليـا، عشـان كـده مفيـش مخلـوق دخـل الشـقة دي غيرك، هاقـولك عـلى قصـة طريفـة.. في يـوم عملـت زفـة عريـس وعروسـة مـع صـورة ليـكي أنا رسمتهـالك». ضحكـت مظهـرة بعـض الدلال في الحديـث، فـلأول مـرة أشـعر بـأني امـرأة مكتملـة الأنوثـة وفاتنـة أيضًـا.. محـاولة أن أكسـر ذلك الحاجـز عنـده فأعـرف مـا يـدور في رأسـه، فهـو لا يريـدني أن أشـعر أني فريسـة له ثم قلـت «أي صـورة بقى يا سـيدي؟ الصـورة اللـي رسمتهـالي بالبكينـي ومغطيهـا بالـورق؟»، احمـرّ وجـهُ ثابـت كأنّـه انعقـد بالدم، حينهـا أزلـت يـدي

عن عينيه ووقفت أمامه عروسًا ليلة عرسها، ظل ثابت ما قرابة دقيقتين لا يتحدث، ثم أتى نحوي وعانقني بشدة، عناق دام أكثر من عشر دقائق، وثابت يضع رأسه على صدري وأنا بين يديه كطفلة صغيرة بلا إرادة ، ثم نظر كلانا نظرة ظمأ للآخر.. شفتاي ترتعشان.. أستطيع سماع دقات قلبي.. أنا الآن مثارة للغاية، اقترب ثابت مني ولم أشعر حينها بشيء إلا وشفتاه مطبقتان على شفتيَّ، أرشف لعابه ويلعق لساني، ذُبْتُ حتى إني لم أعد قادرة على الوقوف، يدا ثابت على مؤخرتي تداعبانها.. بل وامتدت يده حتى بين مؤخرتي إلى مهبلي، صرخت حينها بدون إدراكٍ صرخة عالية، وارتعشت بشدة، حملني ثابت بين يديه ولم أدرِ أين أنا الآن! غير أن رأسي يحلّق في السماء والورود تحيط بي من كل ناحية، في مرحلة ما بين الوعي وغياب الوعي استمر ثابت في تقبيلي ثم وضعني فوق السرير ونام فوقي، صدره فوق ثديَّ وهما منتصبان للغاية، ظل يداعبني حتى خلعت كل ملابسي دون شعور.. وهو كذلك، تلامس جسدانا وكأنهما روحان ممزوجان بالسحر، أخذ ثابت يلعق عنقي وأذني ثم كل قطعة في جسدي، ويده على مهبلي تداعبه برقةٍ بالغة والأخرى تداعب حلمات ثديي المحترقين، لم أشعر به حتى انتهى بين ساقيَّ وهو يضع لسانه يلعق فخذيَّ ومؤخرتي، ثم قتلني حين دب لسانه داخل مهبلي، عندئذٍ لم أتوقف عن الصراخ، لم أستطع مقاومة الصراخ.. ساقاي ترتعشان بشدة، وخصري أيضًا ومهبلي ينقبض بشدة ويفيض كنهرٍ بكل ما فيه، لم يدعني ثابت تلك اللحظة ثم باعد بين ساقيَّ ودبّ قضيبه في مهبلي وضاجعني برقة متناهية حتى انفضت بكارتي، صار يضاجعني ما يقرب من نصف ساعة، ما زلت لم أصرخ فأنا لا أدري لم تفقد المرأة إدراكها حين تنتشي وترتعش من الشهوة، لم أرده أن يتوقف، فهو حبيبي وزوجي وكل ما لي في هذا العالم، ما أروع الجنس حينما يقوده الحب قبل الرغبة، ما زلت أتلوّى

يمينًا ويسارًا، الآن وهو عالق بين ساقيَّ.. أحكم ساقيَّ حول ظهره لا أريده أن يتركني، صار ثابت أكثر شدة مما فات، ثم تلا ذلك دفعات سريعة قوية حتى إني صرت في نوبة من الصراخ الدائم والبكاء الهيستيري المصحوب بالضحك، ما هذه النشوة؟ سأموت بين يديه، فقد أذاب كل هذا الثلج، أتألم من المتعة ولا أمل، أشعر أني في الجنة الآن، صاح ثابت هو أيضًا ومعالم وجهه تغيرت ثم بعدها شعرت بشيءٍ، دافئ يتدفق داخلي «ماهذا يا ماري؟!».. قبل أن يقوم من فوقي قبّل جبهتي وضع ذراعه اليمنى تحت رأسي فأسندت رأسي إلى صدره وكأنني عدت طفلة، فلا أود الحديث عن أي شيء الآن أنا في حالة استرخاء وسكينة لم تعترِني من قبل، وشعرت أنني في سن الحادية عشرة، كدت أغفو لكن ثابت قاطعني قائلًا «عاوزين نملا البيت عيال يا ماري، نفسي يكون عندي عيلة»، أخدت كف يده وقبلتها ثم قلت «بحبك». لم يقم ثابت بأي شيء سوى أنه نثر علينا الغطاء ونمنا حتى الصباح، استيقظت فلم أجده بجانبي، قمت مسرعة من تحت الغطاء، لم أنعم بنومةٍ كالتي نمتها تلك الليلة، وجدت ثابت يتوجع بشدة في الصالة، لم يرد أن يوقظني، إنه ينام على الأرض، ويتألم، أحضرت العقاقير التي وصفها الطبيب وأعطيتها له، مرت نصف ساعة، سكن الألم، لكنه نائم الآن، وأنا أنظر إليه.. يبدو كملاكٍ عيناه مطبقتان، ويده تحت رأسه، وحاجباه خفيفان جدًّا، لكنه سرعان ما استيقظ، فوجدني أحدّق النظر إليه، فدعاني أن أجلس بجانبه، ذهبت إليه، ثم جلست ووضع رأسه على حجري، أخذت أداعب شعره وأذنه، حتى رنّ هاتفه، على ما يبدو والده، أخذ ثابت يتحدث فترة طويلة، لكني شاردة الذهن لم أستطع متابعة ما يقول، سرحت بخيالي إلى بعيد، وتخيلت حياة أبدية مطمئنة وأسرة سويَّةً معه، حلم الأمومة يراودني الآن، هل يمكن أن أصير أمًّا حقيقية؟ لم تكن تراودني تلك الأفكار رغم أنها غريزة

داخل كل امرأة، ولكن نما إلى عقلي أني سأكون أمام حربٍ شرسة، لن تسري الأمور بهذه السهولة، ما زال مكتوبًا في بطاقتي أني مسيحية، والداي لن يتقبلا هذا الأمر، لكني سأواجه العالم كله لو لزم الأمر، تسللت نحو غرفة النوم، حتي أقوم بترتيبها وتنظيفها من آثار أجمل ليالي العمر، رتبت الغرفة وأنا ما زلت عارية لا أريد ارتداء أي شيء، أريد أن أبقى كذلك رغم برودة الجو، انتهى ثابت من الهاتف ثم جاء وعلى وجهه بعض الامتعاض قلت له:

- إيه اللي حصل؟ كنت بتكلم عمو، فيه حاجة؟

- مفيش حاجة. عادة مكالماتي مع والدي كلها كده، رغم إنه رجل طيب إلا إنه عمره ماحسسني إنه خايف على مصلحتي، ومن جواه نضيف إلا إنه حاد الطباع شوية، قال إيه! جايبلي فرصة سفر للخليج!

- يا سيدي كبر مخك.

- أنا مكبر مخي، أنا زعلت إنه حتى ماسألنيش إنتَ فين!

فهمت ما يقصده ثابت ثم حاولت تهدئته، عرضت عليه أن نأخذ حمامًا ساخنًا كي أغير مزاجه، وبالفعل ضحك وتغيرت ملامحه ثم أخبرته «طول ما احنا مع بعض مش هخليك تكشّر أبدًا». ضحك ثابت ثم نظر إليَّ بجنون وهو يدغدني، ثم جريت نحو المرحاض، وبالفعل غمرنا أنفسنا بالماء الساخن في حوض الاستحمام ما يقرب من ساعتين، وأنا أرقد بين ساقيه ساندة ظهري إلى صدره، ثم قلت «إيه رأيك في الميّه؟ دي تنفع علاج نفسي بتخرج كل الطاقة السلبية اللي جوانا»، تنهد ثابت ثم قال «إنتي أحلى حاجة حصلت لي في حياتي، أحلى من الميه، وأحسن من أي علاج نفسي». انتهينا من الاستحمام، الساعة قاربت الخامسة مساء، ارتدينا ملابسنا وخرجت أنا نحو الغرفة لتجفيف شعري، وذهب

ثابت ناحية التلفاز، انتهيت من تجفيف شعري وارتديت ملابسي ثم ذهبت نحو المطبخ فنحن لم نتناول أي طعامٍ منذ البارحة، ناداني ثابت وأخبرني بأنه يعرف مطعمًا لم يغلق بجوار المنزل، طلب دجاجًا وحمامًا مشويًّا، وسيخرج لتسلم الطلب وبالفعل أحضر الطعام وأكلنا فقد كنت جوعى للغاية، ثم قام ثابت لإعداد الشاي فهو من صمم أن يعده بنفسه، وأنا أشاهد ميدان التحرير في التلفاز، لا شيء جديد، غير الاحتجاجات الفئوية من كل المؤسسات العاملة، الصحفيون يحتجون على نقيبهم، وعمال النسيج، وأطباء الهلال، والعاملون في روز اليوسف.. فلا توجد فئة لم تحتج في الميدان، والأغرب أن محافظات مصر كلها في الشوارع تطالب الرئيس بالتنحي، بل وامتد الأمر لعواصم عربية تتضامن مع الثورة المصرية ولأوروبا وشرق آسيا أيضًا. العالم كله اجتمع حول الفكرة والرغبة الجدية في التغيير.

جاء ثابت ووضع الشاي على الطاولة وجلس يستمع هو الآخر للأخبار، وهو في غاية الرضا ثم غرّد قائلًا:

- فاكرة لما قولتلك مفيش حاجة مستحيلة طالما الإصرار موجود؟ احنا هنرجع الميدان بكره.

نظرت إليه وقلت:

- فعلًا تحس إن العالم كله بيستنى الفرد يبدأ، ويعانده شوية في الأول، ولكن بعد كده تكون النتايج مبهرة بس أهم حاجة لازم الفرد يكون مؤمن بقضيته.

أشار ثابت بيديه يهنئني ويبشرني بالنصر كما قال:

- إحنا كتبنا التاريخ بدمنا، وإيدينا نظيفة ماتلوثتش بالدم، دي أول ثورة في التاريخ مايكونش فيها برك دم يا ماري.

أعرف تاريخ الثورات جيدًا، وأعرف ما يتؤول إليه الأحوال بعد الثورات، ولكن ما زال قلبي مقبوضًا فالأمر لم يتم بعد، ربما لم يعلم ثابت أنه يواجه أكثر الناس خبثًا وخِسَّةً في تاريخ هذا البلد. لم نفارق التلفاز حتى دقت الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل، قررنا أن نخلد للنوم تمهيدًا للعودة إلى الميدان باكرًا، تحسنت حالة ثابت كثيرًا، وأحضرت له الدواء قبل أن ننام، تناول عقاقيره ثم قبّل جبهتي وخدي وقال لي:

- أول مرة حد ياخد باله مني كده، ربنا يخليكي يا ماري.

قبلت يده ثم خلدنا إلى النوم، مدّ لي ذراعه اليمنى فنمت عليها وهو خلفي تمامًا يحيطني من ظهري، نثرنا الغطاء ونمنا حتى الصباح، استيقظت قبله، أحضرت فطورًا بسيطًا من جبن وبيض وكوب من الشاي ثم قدمته في الفراش، لم أكن يومًا أظن أني سأقدم خدمة لرجلٍ مهما كان وإن كنت زوجته، كل شيء يبدّله الحبُّ في لحظة، أيقظته، ولم يكن يصدق ما رأى لدرجة أنه كاد يسكب الشاي على الفراش، ثم أردف قائلًا:

- خايف أتعود على الاهتمام ده.

- أنا هعوضك عن أي حاجة في حياتك، وهتشوف.

انتهينا من الإفطار، وقررنا العودة إلى الميدان، لكن قبل العودة ذهبنا إلى محل البقالة المجاور، وأحضرنا بعض الأطعمة السريعة، وبالفعل عدنا إلى الميدان.. تحسنت حالة ثابت بشكلٍ ملحوظ، لكن لا بد من تناول العقاقير بشكل

منتظم، وصلنا بسرعة والميدان مكتظ بالجميع، وكأنه بوابة الأحلام للمصريين، فهم مساكين قد تم نهبهم بالإجبار لمدة ستين عامًا، لا يصدقون ما يرون، أنهم استطاعوا تغيير كل شيء حين قالوا للظلم «لا»، بل قد ألهموا غيرهم بالقيام بما قاموا به، ذهبنا نحو الخيمة القديمة ولم نجدهم، عرفنا بعد كذلك أنه قد تم نقلها ناحية المتحف المصري، ذهبنا إلى هناك، سأل ثابت عن نائل فعرف أنه برفقة الدكتور البرعي في لقاءٍ هامٍ مع أحد قيادات الجيش المصري وعمر عتمان، أمامنا الشاشات، قناة إخبارية تذيع خبرًا عاجلًا (نجاة عمر عتمان من محاولة اغتيال ومقتل حارسه).

اضطرب رأسي.. كيف يكون نائل عنده وقد تعرض لمحاولة اغتيال؟ حضر ثابت ولديه نفس الإشكال ثم أخبرني بأنه سيسأل نائل حال وصوله. مر ما يقرب من خمس ساعات وكل وسائل الإعلام تتحدث عن محاولة اغتيال نائب الرئيس، أخيرًا عاد نائل وهو يحمل حقيبته أو حياته المتحركة بالمعنى الحقيقي، سألته فأخبرنا جميعًا أن الأمور ليست على ما يرام، فالرئيس يخطط لإقالة نجله من مهامه بالحزب بل وسيستقيل هو أيضًا من الحزب وسيسند رئاسة الحزب إلى أحد الوجوه المقبولة شعبيًا وهو دكتور حازم الجبلاوي، الذي كان مهمشًا داخل الحزب نظرًا لنزاهته، قبل أن يكمل نائل حديثه قاطعه ثابت قائلًا «إزاي حادثة اغتيال وإزاي كنت عنده؟!»، سكت نائل لفترة ثم أجاب «ما هو حادثة الاغتيال دي حصلت السبت، مات فيها حارس عمر عتمان لأنه مركبش عربيته ركب عربية تانية، وللأسف عربيته انفجرت باللي كانوا فيها»، ثابت لم يتفاعل مع ما قاله نائل ثم صاح في وجه نائل «واحنا مالنا ومال التعابين دول؟ إحنا اتفقنا نبلغه بس ما اتفقناش على مقابلات واتفاقات والجو اللي مش هيعجبنا كلنا ده يا نائل!». جاء رد نائل في قمة الدهاء والدبلوماسية «يا ثابت أنا ليا نظرة

في الناس، ولازم يكون لنا سند عندهم عشان مطالبنا توصل وميحدش يقفز عليها، وإنت شايف الميدان بقى فيه كل الناس، مش كلهم اللي كانوا معانا من أول يوم وانت فاهم أقصد إيه». أطرق ثابت رأسه تجاه الأرض وقال «اللي انت شايفه.. بس افتكر إني قولتلك ما تآمنش ليهم، وبرضه مش هنقدر نتخلى عن أي حد شارك معانا عشان أي حاجة، ولازم الرئيس يتنحى، مفيش حاجة اسمها نقل صلاحياته». تغيرت ملامح نائل ولم يعقب على ما بدا وكأنه اتهام ثابت له، ولكنه أضاف بكل هدوء قائلًا «يا ثابت هانت أيام وهبشَّرَك، ومصر كلها هتفرح، ومحدش بياخد كل حاجة ده أساس أي تفاوض، خد اللي تقدر تاخده»، انتهى النقاش غير أن ثابت لم يبدُ مقتنعًا، فهو يشم رائحة صفقة مع نائب الرئيس، لكنّه لم يعرف ماهيتها، ولكنّي على النقيض أرى نائل سياسيًّا محنَّكًا لا تغلبه العاطفة، خلاف ثابت الذي يتعامل مع القضية بكل نزاهة وشفافية.

انطلقنا نحو الخيمة لكن ثابت رفض الذهاب إلى هناك وغير وجهته نحو مجمع التحرير مرة أخرى، ذكرته بالدواء وبالفعل تناوله، ثم تناول كل منا ساندويتش من الجبن، مرّ يوم الاثنين والثلاثاء ولم يتغير الحال، التظاهرات مستمرة.. بل وتعم أرجاء الجمهورية، خطابات متكررة للمجلس العسكري الذي أعلن أنه منعقد بشكل دائم، واللافت للنظر أن الرئيس ليس في تلك الجلسات، على ما يبدو أن الجيش قد حسم أمره، خلاف ما يدّعي ثابت من أنها لعبة ليس أكثر، منذ أمس لم يقترب ثابت من نائل أو يحاول الحديث معه، لكن نائل جاء إلى ثابت ثم اعتذر له وقال:

- انت عندك حق، عمر عتمان كل اللي همه خروج الجماعة والتيارات الدينية من المشهد، مش همه الرئيس نفسه، فعلًا النقطة دي قالقاه

جـدًّا لدرجـة إنـه قـال لي بالحـرف «مـش هسـلمهم البلـد عـلى طبـق مـن فضـة، هتبقـى مهزلـة والجيـش لا هيسـمح لي ولا هيسـمح لكـم بكـده!».

اتجه ثابت نحو نائل ثم عانقه قائلًا:

- كنـت متأكـد إنـك مـش هتغـير مبادئـك، بـس إيـه الحـل؟ الموضـوع طـوِّل جـدًّا، وفيـه نـاس هتزهـق.

- عندك حق لازم الأمور تبقى أسرع من كده.

لم يدع ثابت لنائل فرصة أن يفكر فأخبره مقترحًا:

- يبقى نروح نحاصر القصر الرئاسي وتنسى عتمان ده خالص.

تهللت أسارير نائل وفرح بما اقترحه ثابت ثم صاح فرحًا:

- تسـلم دماغـك، ومـش القـصر الجمهـوري بـس مبنـى التليفزيـون كـمان، لازم ناخـد رأي دكتـور البرعـي لأن ده تصعيـد خطـير ولازم أبلـغ النـاس إننـا نتجـه نحـو القـصر الرئـاسي.

نظـر ثابـت نحـو نائـل ثم أشـار له بعينـه تجـاه أحـد المارة عرفـت بعدهـا أنـه أحـد رمـوز الجماعـة، فَهِمَ نائـل مـا أراده ثابـت ثم عقّـب قائـلًا:

- لازم نعرّفهـم، دول أكـتر نـاس هينجـزوا مهمـة زي دي، لأنـه لهـم قـدرة حشـد جبـارة.

- كـده ابتديـت تفهمنـي، كلنـا إيـد واحـدة. كل واحـد لـه دور محـدش يقـدر يتغافـل عنـه، ولـولا دول في موقعـة الجمـل كنـا اتاكلنـا كلنـا، وانـت عـارف!

بالفعل أسرع نائل نحو أسعد شاكر أحد رموز جماعة حماية البارزين ليخبره بتلك الخطوة ثم غاب عن نظرنا فترة وعاد متأخرًا، وأخبرنا بأن الدكتور البرعي طالب تأجيل تلك الخطوة ليوم الخميس، والأغرب أن أسعد شاكر أيضًا بعد أن استشار جماعته طالب أن تكون تلك الخطوة يوم الخميس، لم يعقب ثابت ولم يتعجب حتى.. سكت قليلًا ثم قال «مافرقتش الخميس من دلوقتي ده يوم»، في ذلك الوقت اعتلى منصة الميدان مجموعة من الشباب وهم أصحاب فرقة موسيقية شهيرة، قدموا اقتراحًا لبناء عشرة مراحيض لأن عدد المتظاهرين يقترب من المليون الآن، ولكنهم يطلبون دعمًا ماليًا، شقّ أسعد شاكر الصفوف وأعلن تكفله بكل التكاليف لكن نائل رفض، ثم قال له أمام المنصة «كلنا هانشارك يا أستاذ أسعد، وحضرتك معانا». رحّب الجميع بالفكرة وبالفعل في أقل من ربع ساعة تم توفير المبلغ المطلوب وتطوع عدد من أصحاب الحرف المختلفة للمساعدة دون أجر، وشرعوا في البدء في الصباح الباكر حين توفرت المواد اللازمة.

انتهى اليوم ولكن لم ينم أحد تلك الليلة، العدد كبير جدًّا، لا يوجد أي مكان تستطيع أن تسند ظهرك، أسندت ظهري إلى ظهر ثابت ثم نمنا، فلدينا عمل شاق بأكرًا، استيقظنا الساعة السابعة صباحًا وبالفعل وجدنا العمل يسري على أكمل وجه لإتمام بناء تلك المراحيض، حضر الدكتور البرعي إلى الميدان فاليوم الخميس الموافق العاشر من فبراير، لكنه يبدو حزين الطلعة فسأله ثابت:

- حضرتك بخير يا فندم؟

أجاب وهو في قمة الحزن:

- سعد الشاذلي مات، مصر فقدت قامة عظيمة.

أحضر ثابت زجاجة مياه ثم أعطاها له وقال:

- الله يرحمه كان قائد عظيم.

هدّأ ثابت الدكتور البرعي ثم جلسنا على الأرض، أطلت النظر إليه، كنت أظنه نسيني إلا أن لديه ذاكرة قوية للغاية حتى يذكر اسمي ثم ناداني:

- وانتي ساكتة ليه يا ماري؟ قولي رأيك!»

قلت بدون تردد:

- أنا عندي وجهة نظر مختلفة شوية.

جلس الرجل مفترشًا الأرض ثم قال:

- طيب قولي ساكتة ليه؟

- رأيي إنه يبدأ حصار القصر الجمهوري ومبنى التليفزيون من دلوقتي كأداة ضغط على الجميع بما فيهم المجلس العسكري، أمريكا ساعتها هي اللي هتحسم القصة، الصورة برضه لازم توصل للرئيس بالموقف دلوقتي، لأن اللي حواليه بيغرقوا، فأكيد مش هيوصلوا له الصورة الحقيقية، كده هنضرب عصفورين بحجر، هنضغط عالرئيس والجيش وكمان أمريكا.

يبدو أن البرعي لم ترق له الفكرة لكنه عقّب قائلًا «أنا موافق». تعجّبت في بداية الأمر.. يبدو أنه يعلم شيئًا ما ويخفيه، لم ينتظر ثابت وأسرع نحو نائل يوقظه كي يذهب لأستاذ أسعد وينسق معه بدء المهمة، وبالفعل توجه ما يقرب من ثلاثة آلاف شاب نحو القصر الرئاسي ومثلهم نحو مبنى التليفزيون، والهتافات

تتصاعد، نشاهد في التلفاز ما يحدث من كثب، الأعداد هناك في زيادةٍ هائلةٍ، الاتصالات تتتالى على هاتف الدكتور البرعي وقد قرر عدم الاستجابة لمدة ما يقرب من خمس ساعات، وبالفعل أتت الثمار.. فالتليفزيون المصري يعلن خطابًا للرئيس بعد قليل، هتف الجميع من شدة الفرح وشرعوا في الاحتفالات إلا أن ثابت ما يزال قلقًا، سألته لماذا يبدو قلقًا فأخبرني بأن الرئيس ليس قراره بيده.. فزوجته تتحكم في أشياء كثيرة، قاطعنا الدكتور البرعي، وقال قولته الشهيرة «قوتنا كلنا في وحدتنا وفي الإصرار والعزيمة والكلمة كلمة الشعب في النهاية»، جاء نائل وهو يفتح عينيه بصعوبه بالغة ثم صاخ الدكتور البرعي وجلس بجوارنا، نشاهد ما يجري في شاشة التلفاز، هاتف الدكتور البرعي يرن.. إنّه عمر عتمان، لكن هذه المرة أجابه الدكتور البرعي وظل يحادثه ما يقرب من نصف ساعة، ثم انتهى البرعي من المكالمة، وبعدها أخبرنا بأن النهاية قد حانت، نظرت لوجه ثابت وقد اضطرب بشكل ملحوظ، ثم عقّب قائلًا «يعني النهاردة خلاص؟»، أجاب البرعي «شكلها كده». سكت ثابت للحظات ثم هزّ رأسه وقال «ربنا يستر، بس أنا زي ما قُلت قبل كده حاسس إن فيه صراع، الجيش في كفة، والرئيس وأسرته...»، قاطع البرعي حديث ثابت وقال «الرئيس وأسرته هيسيبوا القصر الرئاسي وهيروحوا لإحدى المدن الساحلية». ليس من عادة ثابت الجدال المستمر لكنه أضاف «صدقني مش معنى كده إنه يتنحى، يلا يا خبر بفلوس». قال البرعي «فيه خطاب للرئيس النهاردة الساعة خمسة كل حاجة هتظهر».

نائل ينصت للمناقشة دون تدخل، ولكن بعد انتهى النقاش أضاف «الرئيس مش هيتنحى زي ما ثابت قال، هيدوروا على حل وسط بينهم لأن فيه كفتين الجيش والأسرة، لازم يكون فيه حل وسط من وجهة نظرهم وخاصة إن عمر

عتمان مش شخصية محبوبة لهم، ولكنّه مقبول شعبيًّا وعسكريًّا بعض الشيء وسيحفظ للرئيس مكانته وممكن يكون هو الحل الوسط»، ضحك الدكتور البرعي وفي عينيه لمعة إعجاب ثم قال «أنا فخور بيكم يا ولاد، انتم كنتم تحت الرمل، والثورة اللي زالت كل الرمل ده، ومصر فعلًا تستاهلكم، وطول ما انتو هنا البلد دي هتقف على رجلها، وهتستعيد قيمتها ومكانتها تاني».

لم يفارقنا الدكتور البرعي رغم الإجهاد الذي يبدو عليه، فهو شخصية عظيمة محبة لهذا الوطن، ترك كل شيء من أجل مصر، من القلائل الذين لديهم أخلاق رغم أنه بمقاييس المنطق ليس في حاجة لا إلى شهرة ولا إلى مال أو سلطة، هو رجل محب لهذا الوطن ولا شيء غير ذلك، الساعة الآن الخامسة والجميع في حالة ترقب للخطاب، انضم للميدان تظاهرات عارمة نظمها أطباء مصر بالمعاطف البيضاء في قلب ميدان التحرير، وأيضا القضاة في زيّ القضاء، وتزايد العدد بشكل كبير جدًّا بالإضافة إلى المجموعة التي ذهبت ناحية القصر الرئاسي والتليفزيون أعدادها هي أيضًا في زيادة مستمرة، تأخر الخطاب والساعة قاربت على السابعة والنصف مساءً بتوقيت القاهرة، ولم يحدث أي شيء، دقت الساعة الثامنة ودون مقدمات تم قطع نشرة الأخبار لنقل خطاب للرئيس؛ سكت الجميع وكلهم أمام الشاشات كأنّ على رؤوسهم الطير، أو مع محطات الراديو التي تنقل الخطاب، الرئيس يتحدث عن استقالته من الحزب الحاكم وإسناد مهام الحزب لحازم الجبلاوي كما أخبر نائل، وتمت إقالة قيادات كل لجان الحزب بمن فيهم نجل الرئيس، وحَلّ مجلسي الشعب والشورى، والحديث عن محاكمة كل رموز النظام وتنازل الرئيس عن صلاحياته لعمر عتمان، وقد كان ذلك آخر ما جاء في خطابه. وما إن انتهى الخطاب حتى انقلب الميدان وصار كبركانٍ منفجر، وصرخ الجميع بصوتٍ عالٍ «ارحل يعني امشي ياللي مبتفهمشي». هكذا عبّر المتظاهرون الذين تجاوزوا

ثلاثة ملايين هذا اليوم عن خيبة أملهم من خطاب الرئيس، فمنهم من رفع الأحذية أمام الشاشات ومنهم من تطاول بالسباب والشتائم، وتعالت الهتافات الموجهة للجيش المصري الذي وعد بالوقوف مع الشعب «يا جيش مصر اختار، الشعب أو النظام». ولكن ما دعاني للتعجب أن ثابت لم ينفعل، ولم يغضب كالبقية، تحدّثت معه في محاولة مني لفهم ما يدور برأسه ثم سألته:

- إيه رأيك في الكلام ده؟

ضحك ثابت ضحكات متقطعة ثم قال:

- خلاص كده، انتهت.

لم أفهم ما يريد قوله فسألته ثانية:

- قصدك إيه؟

- اللي يخلي الجبروت ده يركع في الأرض ويقدم كل التنازلات دي، كله تطليع في الروح، يعني أتوقع تنحيه بكره أو بعده، دي آخر محاولة بيعملها.

نظرت نحو نائل وهو يؤكد ما قاله ثابت معقبًا:

- احنا لو كنا بنحلم باللي عملناه ده مكناش برده هنصدق، اللي بيصمم على حقه مبيضيعش.

لم أعد أستوعب ما قالوه لكن أصررت على الاستفهام قائلة:

- إنتو كنتم من شوية ضد الكلام ده؟

نظر كلاهما إلى الآخر وأجابني نائل:

- شوفتي الرئيس مرعوب وهو بيتكلم، وابنه بيحضّره، خلاص كده يا ماري دي النهاية.

مع كل ما يقولونه إلا أنه أصابت قلبي غصّة، لا أرتاح لما يقولون، أشعر أن في حديثهم الآن بعض المبالغة أو شيئًا ما يثير القلق والخوف، روحي ضيقة للغاية، لا أدري ما أصابني اليوم وشردت للحظات حتى قاطعني ثابت:

- أنا كده حققت جزء من اللي حلمت أحققه، معايا مصر وانتي معايا، فيه حد أغنى مني دلوقتي؟!

ذهبت نحوه وعانقته، وأخبرته بأني أشعر بخوف غير عادي، استأذن ثابت من صديقه، ثم ذهب معي، نحو ركنٍ هادئٍ من الميدان ناحية مجلس الشعب، ثم جلس معي، وهو هادئ للغاية، ثم سألني:

- قريتي حاجة في المدونة اللي اديتهالك؟

نظرت إليه ثم دمعت عيني:

- مالك يا ثابت؟ إنت غريب جدًّا النهاردة!

لم يجبني ولكنه تابع ما يقول:

- فيه قصيدتين في أول صفحة واحدة عشانك والتانية عشان الثورة هاقولها بعد ما كل أهداف الثورة تتحقق.

لم أدع ثابت يكمل حديثه ففتحت حقيبتي وأخرجت تلك المدونة التي تبدو قديمة

للغاية، أول صفحات المدونة قصيدة موجهة لي أنا، فرحت للغاية كوني ملهمته..

«ولـمَّـاْ تلاقيـنا تَبَـسَّم وجُـهُــها
كَطَيْرٍ يُغنِّي في الفـنَاءِ ويَلْـعَبُ
تُــرأقِصُ أَزْهَارَ الَّربيـعِ بِرِقَّةٍ
فَتَكــسُو ثَنَايَا الزَّهْرِ مَا هـوَ أَطْيَبُ
كَعُصْفُورَةٍ فَرْحَـى تُـدَاعِبُ ظِلَّهَا
وتَبْقَى عَلَى الْأَغْصَانِ تَشْدُو وتَطْرَبُ
فَلَوْ قُلْـتُ بَـدْرًا مَاْ وَفَّيْـتُ بِحُسْنِها
وَلَكِـنَّهَـا تَعـْلُـو عَلـيْهِ وَتَغـْلِبُ
فَيَا ليْـتَ أَنِّــي قَدْ خُلِقْتُ كَـزَهْرَةٍ
لَعـَلِّي أُلاقِيْــهَا تَجِـيءُ وَتَـذْهَبُ
وَيَا ليْـتَ تَـدْرِي مَنْ يَلُوذُ بِصَمْتِهِ
وَفِـي طَيّـهِ يَبـْكِي الفُــؤَادُ وَيَرْقُبُ
عُيُونٌ كَبَرْدِ الَفجْرِ يُشْرِقُ ضاحكًا
وَوَجُـهٌ يُغنِّي للنَّـسِيـمِ وَيـكْتـبُ
وَجَفْنٌ كَطَرْفِ السَهْمِ يَنْثُرُ سِحْرَها
وصَــوتٌ يُذِيبُ الْقَلْبَ حِينًا وَيَجْذِبُ
تَرَاهاْ كـأنَّ الله يرْسُــمُ صُــورَةً
ومنْ حُسنِها قِيـسَ الجَمالُ ويُحْسَبُ
وَلَمّاْ دَنَتْ عَيْنايَ صَوْبَ عُيـُونِها

وَجـَدْتُ الْهَوَى مِنْـهَا يَفِيضُ وَيَعتِبُ
وَوَدِدْتُ لـَوْ أَبْقَـى بِبَـرِّ جـفُونِهَا
وَلَكـِنَّهَـا دومًا تَـزُوغُ وَتَهـْرُبُ
فَأَمْضِي وَقَلْبِي عَادَ يَسْأَلُنِي مَتَى ؟
وَأَبْـدُو كَمَـنْ يَلْقَى صَـدَاهُ وَيَعْجَبُ
وَعِـنْدِي جَـوَابٌ لاْ أَوَدُّ سَمَـاعَهُ
فَرَوْحِي لَهَـا دومًا تَحِـنُّ وَتَـرْغَبُ
تَمـرُّ عَلَـيَّ كَالْـفَرَاشَـةِ عُودُهـا
عَلَّى وِجْنَـتَيْهَا حَـارَ قَلْبِي الْمُعَّذَبُ
ضَـفَائِرُ وَرْدٍ عَابِقـَاتٌ بِشـَعْرِهَا
يَـــفُوحُ شَـذَاهَا فِي النَسيمِ وَيَسْكُبُ
أَذُوبُ إِذَا مـَا حَدّثَتْنِي عُيُونـها
وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْقَلْـبَ فِيْـها سَيُصـْلَبُ
تُرَاوِغُنِي حَتَّى أَتُـيه بِحِيـرَتِـي
وَتَمْسِـــي كَشَمـْسٍ فِي النِّـهَايَةِ تَغْرُبُ
وَإِنـي لأَرْضـى أَنْ أَلُـوذَ بِظِـلِّهَا
كَـذِي ظَـمَأٍ حِيــنَ السِقَايةِ يَشْرَبُ
فَأَكْتـُبُ عَنْـها كَيْ أَكُـونَ بِقُرْبِهَا
وَإِنــي إِلَــى نَيـْلِ الْمُـحَالِ لَأَقَربُ
وَأَسْطر فِي الْأَلْـواحِ أَنّـي أُحُبُّـها

وَأَقْضِـي اللّيـــالي سَـائِلاً أَتَقَـرَّبُ
وَلْا زِلـتُ أَهْذي بِالْقَصـائِدِ فُسْـحَةً
وَلَـمْ أَرَ غَيْـرَ الْعُـمْر يَمْضـي وَيُسْلَبُ
فيَا لَيْتَ رَوْحـي فِي النّهايَةِ تَهْـتَدِي
وَيَا ليـت ظَنِـــي بِالْجـــَمِيلةِ صَـائِبُ
فَصِلْ أَيُّها الشِعرُ القَـدِيْمِ رِسَـالَتِي
وَفِيـــها عتـاب لِلْصَـــغِيرةِ أَعْـذَب
سَلَامٌ عَليـــها إِنْ قَصـَدْتَ عُـيُونَهَا
سَـلَامٌ عَـلَيـْها بِالمَـحـبَةِ يَـــوهَـبُ

انتهيـت مـن القـراءة وقـد سـافرت إلى أرض الأحـلام، وكأنـني بطـلة أحـد أفـلام الرسـوم المتحركـة الرقيقـة، إنـه سحـر الكلـمات الـتي تسـافر عبر القلـوب، وتسـكن الـروح، إنـه الحـب الذي يجيـب عـن كل الأسـئلة، يعلـو المنطـق ويسـوق العقـل بارتيـاح وسـكينة، آه مـا لهـذا الجمـال! الجـو دافئ وثابـت انفصـل عـن التظاهـرات، فلديـه اليقـين أن الأمـر انتهـى، وأن الزمـن لـن يعـود إلى الـوراء.

وفيما نحـن كـذلك إذا بأحـدهم يتجـه نحـونا، وعنـد الاقـتراب تيقنت أنها منى الشريف، قـام لهـا ثابـت وصافحهـا فهـو يحترمهـا للغايـة، ثم صافحتـني وقدّمـت إلينـا التهـاني علـى الـزواج، ولكـن شـيئًا مـا في عينهـا أعرفـه، فهـي تفيـض بحـب ثابـت، لا يشـعر بامـرأة سـوى امـرأة، تمالكـت نفسـي، فقـد رافقتنـا مـا يقـرب مـن عشـر دقائـق ثم انصرفـت، كنـت أود أن أسـأل ثابـت لكـن فجـأة حـدث تجمـع حـول أحـد الأشـخاص إذ سـقط علـى الأرض، أسرعنـا نحـوه، إنـه أحـد الثـوار تم قنصـه ولا يعـرف أحـد هويتـه، مـات

في الحال، تركني ثابت واتجه نحوه، ومسح عن وجهه فإذا به أحمد منير رسام الجرافيتي، أغمض ثابت عينيه، وسقطت دموعه، ثم قال «شباب زي الورد بيموت عشان بلد كاملة تعيش، عشان الناس اللي كانت متعاطفة، تعرف إن الناس دي تعابين لآخر لحظة الغدر في طبعهم». حصلنا على بياناته من بطاقته واتصل ثابت بأهله يخبرهم باستشهاده، ثم انصرفنا بعدما تم نقل الجسد إلى المشرحة، وثابت في قمة الحزن، اقتربت الساعة من الواحدة بعد منتصف الليل، ولأول مرة غلب ثابت النوم وهو يسند رأسه إلى أحد الحوائط، رحت بجانبه، وأسندت ظهري إلى نفس الحائط، ولكنْ أرقًا شديدًا يحول بيني وبين النوم، الساعة تقترب من الرابعة صباحًا والأجواء هادئة وهو غارق في سباتٍ عميق، أود أن أوقظه، ظللت أنظر نحوه، دون أن أنطق بكلمة، حينها استيقظ، وجدني أنظر إليه كالعادة قال:

- «إيه اللي حصل؟ أنا راحت عليا نومة ولا إيه؟

- محبيتش أصحيك.

- ليه كده بس؟ معلش متأسف يا ماري، منمتيش لغاية دلوقتي ليه؟

لم أعرف ما أقول، ولم يدعني ثابت أكمل وقبّل رأسي ثم بسط ساقيه مسندًا ظهره نحو الحائط وتركني أضع رأسي على حجره، هدأت للغاية وتلحفت بمعطفي واستطعت أن أخلد للنوم، استيقظنا الساعة الحادية عشرة قبل ميعاد صلاة الجمعة، حشود عارمة والميدان فُتح من كل الجوانب، كل المصريين الآن في الميدان، اعتلى أحد الرموز الدينية المنصة، امتعض ثابت حين رآه، وانتفض بشكل غريب فسألته في الحال:

- فيه حاجة يا ثابت؟

- مين اللي طلَّع الكائن ده على المنصة؟

- مين ده أصلاً؟

- ده إمـام مسـجد عمـر مكـرم، أمنجـي كان بيبلـغ عـن زمايلنـا وتاريخـه زبالـة، مـن أكـثر الشـخصيات قـذارة.

انتابني ما انتاب ثابت لكني هدَّأته ونصحته:

- اسـكت دلوقتـي وهـدِّي نفسـك مـش وقتـه.. لـو قلـت عنـه كـده ممكـن تيجـي بنتيجـة عكسـية عـلى كل الـلي في الميـدان، ممكـن يفقـدوا الثقـة في الجميـع.. سـاعتها كلـه هيخـسر. سـيبه يقـول الـلي عـاوزه.

أخذ ثابت بنصيحتي وبالفعل استمر الشيخ عمر أمين -الذي لقب نفسه بخطيب الثورة- على المنصة حتى جاء وقت الصلاة، خطب خطبة الجمعة، لا أفهم ما يقوله جيدًا، لكن لديه موهبةً كبيرة في الخطابة، وصوتًا رنّانًا، انتهى الجميع من الصلاة، صعد الدكتور البرعي المنصة وكل وكالات الأنباء تنقل ما يقوله محذرًا من «انفجار» الوضع في مصر، داعيًا الجيش إلى التدخل «لإنقاذ البلاد كي لا تنجرف مع التيار»، بعد رفض الرئيس التخلي عن السلطة، وأضاف أن «الوطن على أعتاب انفجار، وعلى الجيش أن يتدخل لإنقاذ البلاد الآن»، وأعرب عن خوفه الكبير من أن يتحول الغضب إلى عنف، متهمًا الرئيس بتعريض مستقبل بلاده للخطر لأنه «يريد أن يبقى في السلطة»، واختتم البرعي قائلًا «إنه أمر مذل بالنسبة إلى رئيس أن يكون دون سلطة ولكنه يريد مع ذلك أن يبقى رئيسًا!».

انتهى البرعي من كلمته وتلا ذلك مقابلات عديدة مع وكالات أنباء عالمية، حينها ابتعد ثابت بعض الشيء فهو لا يحب الظهور أبدًا، لاحظت ذلك بمعرفتي به، ثم أخذني ثابت وانصرفنا ناحية مداخل الميدان، أحضرنا بعض الطعام.. تناولناه ثم جلس ثابت على ركبتيه أمامي وقال:

- شوفتي يا ماري.. هنا أي حد بيكره حد، أو بيحقد على حد، أو بيفرق في المعاملة على أي أساس عنصري أو ديني أو سياسي؟

تعجبت مما يقوله الآن لكن أجبته:

- لا.

- عرفتي ليه؟

هنا أدركت ما يريد ثابت قوله ثم ابتسمت:

- كلمة السر يعني؟

عانقني ثابت ثم تابع قوله»

- المحبة تنتصر، ليست مجرّد كلمات.. إنها لَأَهمُّ حقائق وأسرار هذا الكون، حينما ترك الجميع الكراهية، وعرفوا جميعًا أنَّ لديهم نفس الهدف، عرفوا وفهموا معنى المحبة حتى دون إدراك، فهي الشيء الأقوى الذي جمع بينهم؛ لذا اختفت كل رواسب السوء داخل النفوس، فلم يعد أحدهم يرى سوى الخير في نفس الآخر، هذا الرابط الأبدي أقوى من روابط الدم والأخوة. إنه لسحرٌ لمن فهم لغة الله وتكلّم بها قلبه.

ظل ثابت يتستطرد بالعربية حتى دمعت عيناه، ثم قال:

- طوبى للأنقياء القلب لأنّهم يعاينون الله.

تلك الفقرة أعرفها.. مقتبسة من عظة يسوع عندما كان في الجبل مع تلامذته. نظر ثابت نظرة للسماء ثم قبّل يديه، وأنا لا أعرف ما تفسير ما يفعله ثابت في تلك الأوقات، يبدو غريبًا للغاية، لكنّه هادئ للغاية، في داخله شيء لا يعرفه إلا ربّه، فهي علاقة غريبة بين رجل وبين الله. يبدو أن الله يختار من يكشف لهم عن الحقائق، لذا تجدهم في حالة توحدٍ معه، يذوبون في ملكوته، وعلى عتبات وجوده تسكن أرواحهم وتطمئن نفوسهم، لاحظت أني صرت أتحدّث كثابت، ماذا جرى؟ هل أصابني سحر ما قاله؟ أم إنه سحر المحبة حينما تتخلل القلب ليضيء، وطبيعة النور واحدة.. لذا هي دين الله الذي يأسر القلوب، ويجمع الناس للخير والمنافع.

وفيما نحن كذلك رنّ هاتفي ثلاث مرات، تفحصت الهاتف فهي أرقام لا أعرفها، لكن أجبت فربما يكون والدي أو أحد ما في حاجة إلى المساعدة:

- ألو نسيتي صوتي يا دكتورة؟!

قلت بصوتٍ عالٍ:

- مين؟

فانتبه ثابت وتلقى الهاتف مني، ولكن ما إن سمع المتصل صوت ثابت أغلق الخط في الحال، شيء ما أطبق على صدري، أنا أعرف ذلك الصوت العفن، إنه لهاشم، كيف خرج من السجن؟ ماذا يريد مني؟ أظن أنه الهاتف الملعون الذي وجدته بالظرف، سألني ثابت:

- مالك يا ماري؟ من ساعة التليفون ده وانتي مش معايا!

- إنت فاكر هاشم اللي حكيت عنه؟

- أيوه فاكره، مش قولتي في السجن؟

- شكله هرب!

ثم أخبرت ثابت بالهاتف الذي وجدته بالظرف اللعين، لم يعقب على شيء غير أنه قال:

- محدش يقدر يمسّك وأنا معاكي، متخافيش مفيش قوة تقدر تئذيكي وأنا عايش.

اطمأننت بعض الشيء ولكني تذكرت ما قالته ساندي، الأمر مخيف حقًّا، ماذا يريد مني هذا الأحمق؟!

مرّ ما يقرب من نصف الساعة، قررنا حينها اللحاق بالجماهير، الأجواء ما زالت مشتعلة، والهتافات بلا توقف، السماء تمطر بكثافة، اضطر عدد كبير إلى الجوء إلى الأماكن المغطاة لتلافي المطر، لكني لاحظت شخصًا ما يجري بهرولة ظننا في بادئ الأمر يهرب من المطر، لكنه يتجه نحوي بسرعة جنونية، لمحه ثابت، ثم وقف أمامه محاولًا إعاقته، لكنه وكز ثابت في عنقه وهو يصر على التقدم نحوي، عرفته.. إنه هاشم، لم أستطع أن أتحرك خطوة، عقلي توقف وساقاي مشلولتان وهو أمامي وفي يده سكين كأني استسلمت له وللقدر، ولكن باغته ثابت بضربة في وجهه، ووقف أمامي وطلب أن أهرب مسرعة، ولكن هذا الأحمق لم يتركه غرس السكين داخل صدره مرات متلاحقة، وهرب مسرعًا، اهتزت قدما ثابت وسقط الدم من فمه بكثافة لكنه لم يتركني، ظل مسندًا

ظهره لصدري ودماؤه تسيل، صرخت بشدة وقدماي ترتجفان «حد يساعدني، حد يكلم الإسعاف بسرعة، ثابت بيموت، حد يساعدني!». وهو ما زال ينزف والمطر شديد للغاية، نظرت لعينيه وهما تغمضان تدريجيًا وهو يحاول أن يبقيهما مفتوحتين، وتوسلت إليه:

- عشان خاطري متسيبنيش لوحدي! يا ريتني كنت أنا وانت تفضل! أنا مليش في الدنيا دي غيرك.

ثابت يلتقط أنفاسه ويتحدث بصوت خافت للغاية والدم يتناثر من فمه:

- خلي بالك من نفسك يا ماري ، وابقي افتكريني، وفكري مصر بيا، عشان أنا بحبها أوي، ماتنسيش.

- لا أستطيع تقبل ما يقول، دموعي صارت كالمطر وصرت أصرخ بالبكاء كالأطفال، وأنا أهزُّه:

إنت مش هتموت، لازم تفضل عشاني، ماتسيبنيش لوحدي أرجوك يا ثابت أرجوك أرجوك! حد ينادي الإسعاف حد ينادي الإسعاف.. بتتفرجوا على إيه؟

غرقت يداي وصدري بدماء أنبل مخلوق على وجه الأرض!! تحسست نبضه، إنه ضعيف ومتسارع أيضًا للغاية، جاءت عربة الإسعاف وحملت ثابت بسرعة ورحت معه إلى مستشفى الوادي، نائل لحق بي، هو في صدمة، حاولت التقاط أنفاسي، ثم دخلنا غرفة الطوارئ وبسرعة تم نقله للعناية المركزة، كل المتواجدين أصدقاؤه، ولكن بمجرد دخوله غرفة العناية المركزة توقف قلبه، حاول الجميع إنعاشه، لكنه لم يستجب لأي محاولة ما يقرب من ساعة ونصف، حينها قرر

أحد كبار الأطباء إنهاء عملية الإنعاش، طاش عقلي حينما أشار لهم بالإنهاء، لم أعد أعرف من أكون في تلك اللحظة واقتحمت غرفة الإنعاش، وصرت أصرخ بالبكاء «كملوا عشان خاطر ربنا، ده صاحبكم برضه، عشان خاطر ربنا». ونظرت لأحدهم وأنا في حالة هيستيريا، وهو يعرفني وصرت أتذلل له حتى كدت أقبّل يديه وجميعهم ينظرون نحوي وعلى وجهم الحسرات، جاء نائل محاولًا إبعادي بالقوة، حينها أسرعت نحو إحدى الزجاجات بالمكان وكسرتها وأخبرتهم بأنهم إن توقفوا سأقتل نفسي، وهنا حضر أحد الأطباء يدعى الدكتور حمدي الأشرف، وقد أمر باستمرار جلسات الإفاقة، لكن قلبه لم يستجب لمدة نصف ساعة أخرى، وأنا أصرخ «يا رب ده أكتر واحد بيحبك خليك واقف جنبه يا رب! ماتسيبهوش، خدني مكانه، هو اللي بيرجع الناس لحضنك وحمايتك، يا رب خليه عشان خاطري!». قرر الفريق الانتهاء من جلسات الإنعاش القلبي، والجميع ينتظر لحظة التقييم الأخير، والتي من المقرر بعدها إقرار الوفاة من الناحية الطبية والقانونية، رأسي سينفجر فهي أكثر اللحظات رعبًا في حياتي، وفي أوج تلك اللحظة المرعبة تولّد لدي يقين غريب بأن الله يبتسم كأني أراه، فالله أحبنا لأننا أحببناه بصدق، تلك اللحظة لا يمكن تصويرها غير أنها ظاهرة استثنائية للتجلي.. تجلي الله.. ذلك السر الذي يجعل الإيمان حقيقة، ويجعل الله فوق كل المسميّات. وفجأة صاحت الممرضة قائلة «النبض رجع! فيه نبض!»، هنا تهللت أسارير الدكتور حمدي وأسرع ليتحسس النبض بنفسه، وتأكد أنه قد عاد بالفعل، سقطتُ على ركبتي ويداي مطبقتان على عيني، ولم أستطع النطق بأي كلمة، غير أني حاولت النهوض وذهبت ناحية ثابت لكنه لم يكن واعيًا، هدأت بعض الشيء، وقلت «أشكرك يا رب وعيناي لا تتوقفان عن النحيب، أشعر بأنها يمطران بالعبرات، حالة ترقب مؤلمة لمن عاشها أو عايشها، وما هي سوى

لحظات حتى قرر الطبيب وضع ثابت على جهاز التنفس الاصطناعي إذ إنه سيخضع لجراحة قلب عاجلة وقد أخبرني أيضًا بأن نسبة الوفاة تتجاوز التسعين بالمئة، في مثل هذه الحالات لا شيء يمكن أن ينال مني، الآن لدي اليقين بأننا سننتصر، الساعة الآن تدق الخامسة بتوقيت القاهرة، أخرجت هاتفي أبحث عن رقم أبيه كي يحضر وأبلغه بما حدث، فقد كان ثابت أرسله لي من قبل، وبالفعل اتصلت بوالده، وكاد يفقد الوعي، بكى بكاءً شديدًا ثم أخبرته بمكان وجودنا الآن، أعرف أنه من بلدة أخرى تبعد قرابة الساعتين عن القاهرة، وبعدها تم نقل ثابت لإجراء جراحةٍ عاجلةٍ في القلب، جلست بساحة الانتظار أمام حجرة العمليات المتقدمة، وقد حضر فريق من أكبر أطباء جراحة القلب والصدر، وهاتفني الدكتور البرعي وأخبرني بقدومه، هذا وقد ظل نائل يرافقني غير أنه ذهب لينهي إجراءات الدخول الإدارية، قمت بتسجيل الدخول لصفحتي على الفيسبوك، فمنذ وقت طويل لم أشارك بأي شيء وكتبت «أغلى شخص في الدنيا بين الحياة والموت، واحد عاش وضحى بنفسه عشاني، ودمه فيه حب البلد دي، ثابت مدكور رمز للفخر والرجولة، ادعوله بالشفاء».

في ذلك الوقت كان قراري لَئِن رحل ثابت عن الدنيا فسأرحل معه، فقد مات من أجلي وسأموت معه، فما جدوى تلك الحياة الزائفة إذن إن غاب عنها الحب؟ لا يمكن أن يكون ثابت رجلًا عاديًا ويموت كالجميع!

لا بد أنه سيواجه الموت وينتصر، وسيعود إليَّ مرة أخرى، أعانقه، سأبقى تحت قدميه طيلة حياتي، ليعش فقط! شاشة التلفاز أمامي تفيد بأن القناة الإخبارية نقلت الخبر؛ (عاجل) نقل العضو الثوري ثابت مدكور في حالة حرجة إلى مستشفى الوادي وإلقاء القبض على مرتكب الحادث وتسليمه للشرطة العسكرية).

لا أصدق أن ثابت صار خبرًا على شريط الأخبار، لا أحد منا يؤمن بأن النهاية قد تكون مجرد خبرٍ في صحيفة أو نعيٍ قصيرٍ من الأهل والأصدقاء، رغم جمال الدنيا لكنها لحظة وقد ينتهي كل شيء، حضر الدكتور البرعي ومعه عدد كبير من رموز المعارضة للاطمئنان على حالة ثابت، ولكن جميع الأطباء ما زالوا بالداخل، نظر إليَّ الدكتور البرعي قائلًا «ربنا هيقومه بالسلامة، الشرطة العسكرية قبضت على المتهم، واعترف إنه من رجالة شوكت الخفيف كان مكلّف بتصفيتك انتي يا ماري، ثابت شاب شهم وأنا متفائل إن ربنا هينجيه». في تلك الأثناء جاء رجل ناحية الدكتور البرعي ذو وجه لا أعرفه ثم همس في أذنه، ظننته في البداية بخصوص حالة ثابت لكن بعدها الدكتور البرعي استأذن، وغادر المستشفى فور حديثه مع هذا الرجل، لم يعد يهمني شيء في الحياة سوى ثابت، قررت إخراج مدونته فهي كل ما يمتلكه في هذا العالم، وإذا بهاتفي يرن، إنه والدي.. أجبت على الهاتف وقلت «إزيك يا بابا؟»، وبعدها انهمرت بالبكاء، لم يقل أبي أي شيء لكنه عقب قائلًا «إيه يا ماري اللي حصل؟ وانتي فين دلوقتي؟ مين اللي كانوا عاوزين يقتلوكي؟ ومين الشاب ده اللي مات وهو بيدافع عنك؟!» صرخت في الهاتف وقلت «عايش ماتقولش مات يا بابا، وهيعيش»، وانفجرت مرة أخرى بالبكاء وقد لاحظ أبي ما حلَّ بي فحاول تهدئتي «خلاص إهدي، الشخص ده جِميله في رقبتي طول العمر، انتي فين يا ماري دلوقتي؟» أخبرته بأني في مستشفى الوادي قسم جراحة القلب. أغلقت الهاتف وقد أخبرني والدي بأنه قادم إليَّ في الحال، نشرات الأخبار تتتالى، والميدان في حالة غليانٍ حقيقي، الساعة تدق السادسة مساءً بتوقيت القاهرة الموافق الحادي عشر من فبراير لعام ألفين وأحد عشر، خبر عاجل على القناة الإخبارية نقلًا عن التليفزيون المصري، بيان يذيعه عمر عتمان وهو يبدو في حالةٍ مزريةٍ ودون مقدمات:

(في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد، قرر الرئيس تخليه عن منصب رئيس الجمهورية وكلَّف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شؤون البلاد).

أخيرًا سقط الظلم وهلك الطاغوت، انتصر المصريون بعد معاناة قاربت على القرن من الفساد والظلم والقهر، انفجر ميدان التحرير بهتافات الفرح، بل ونقلت محطات التلفزة الفرحة تعم جميع أنحاء الجمهورية، وبل العالم أجمع، من أجل ما فعلته يا ثابت أنت ورفاقك الجميع يحتفل، ولكن المرارة تقتل أي شعور بداخلي، لا يمكن أن تكتمل الفرحة دون ثابت، يرقد الآن والجميع يحصدون ثمار التضحية، مرت ساعتان ونصف، وخرج أحد الأطباء من حجرة الجراحة، وبمجرد رؤيته تسارعت دقات قلبي وأنا أنظر إليه، ولكن وجهه مستبشر، ذهبت مسرعة نحوه ثم ناديته قائلة «طمني، الله يخليك». نظر الطبيب وتعلو وجهه ملامح الفرحة ثم قال «الحمد لله، الأمور عدت على خير، الجراحة تمت ونجحت، والأمور كويسة، كان تجمع دموي حول الغشاء المحيط بالقلب، والحمد لله اتلحق في الوقت المناسب، والفضل ليكي يا دكتورة ماري، كلهم مش مصدقين اللي حصل، فاضل إنه يفوق ودي مسألة وقت».

لم أتمالك نفسي وعيناي تبكيان فرحًا، ثم ما لبثت أن قدمت الشكر للطبيب ولكل الفريق، وقد وعدني بأنه بمجرد نقله سيسمح لي بالبقاء معه داخل حجرة الرعاية المركزة، في ذلك الوقت تذكرت أن أبي قد تأخر، هاتفته فأخبرني بأنه كان عالقًا لا يستطيع المضي قدمًا بالسيارة نظرًا للازدحام الشديد، فالمصريون جميعهم في الشوارع، لكنه الآن أمام المشفى في طريقه إليَّ، رأسي سينفجر من الصداع، وكأن ما يجري حلم طويل، أو رواية من القرون القديمة، حضر أبي وعانقني بشدة، وفي يده علم من أعلام مصر، لقد تغير أبي أخيرًا كبقية المصريين حينما وجدوا

فرصة سانحة للتغيير، غيروا وجهة التاريخ كله، أخبرت أبي عن ثابت وما فعله لأجل إنقاذ حياتي، ولكني ترددت في البداية في إخباره بزواجنا، سأترك الأمر للأيام، فلن أقدم على فعل أي شيء حتى أستعيد ثابت أولًا، لم يتطرق أبي لأي شيء غير أنه اطمأن عليَّ، وفيما نحن واقفان نتحدث إذا بمجموعة من أفراد الطاقم الطبي يقتادون ثابت على أحد الأسرة متجهين نحو العناية المركزة، في تلك الأثناء استأذنت أبي وأسرعت لألحق بهم، وتم السماح لي كي أبقى معه داخل حجرة الرعاية، تبعني أبي دون دراية مني ثم قبَّلني وودعني ليعود إلى المنزل.

في ذلك الوقت هاتفني يدق للمرة العاشرة فقد كان في وضع الصامت، انتفضت وإذا به والد ثابت يخبرني بأنه قد حضر، فهو لا يعرف من أكون، بل قد يتهمني بأني من تسببت في ما حل بنجله الآن، تنتابني الآن حالة من التوتر والارتباك، أخيرًا قابلته وهو رجل طويل القامة ذو هيبة بالغة، يرتدي جلبابًا أسودَ يشبه ما يرتديه أهل الصعيد تعلو الجلباب عباءة سوداء فضفاضة، وذو بشرة خمرية وجلد مجعد للغاية، هنا قررت الخروج لمقابلته، وحينما التقينا عرفني قبل أن أصافحه، بل وباغتني بلمحة أبوية غريبة، ثم قال «إزيك يا دكتورة؟ الحمد لله إنك بخير». تعجبت مما يقوله فلم أجده يولول أو يبكي كما فعل بالهاتف، هذا الرجل يبدو قويًّا للغاية، استقبلته وعيناي شاردتان وقلت له «أنا متأسفة، مكانش قصدي، يا ريتني كنت أنا يا عمو»، وضع الرجل يده على رأسي ثم هدأني قائلًا «احنا مؤمنين بالله يا دكتورة، ولو ثابت معملش كده كنت أشك إنه ابني اللي خلفته!». التقطت أنفاسي وارتحت بعض الشيء ثم تابع قوله «أنا عرفت إنه خرج من غرفة العمليات بالسلامة، عاوز أشوفه لو أمكن» قلت له «طبعًا هاستأذن من الدكتور حمدي وأدخل مع حضرتك»، استأذنت الطبيب وبالفعل سمح لي مرحبًا، ولكنه أوصاني بعدم الإطالة، اتجهت أنا ووالد ثابت نحو غرفته، ولكنه

طلب ألا أرافقه، وأخبرني بأنه لن يمكث وقتًا طويلًا بالداخل، فهو يقدر أعراف وقوانين المشفى، قمت بفتح الباب له، ثم تركته يمضي للداخل وحده، ولكني قررت أن أشاهده من خلف نافذة الباب الزجاجية، يتجه نحو ابنه، وهنا سقطت كل الأقنعة التي ارتداها الرجل بالخارج، وانحنى أمام ولده يقبل رأسه ويديه وقدميه، ظل معه عشر دقائق وكأنه عاد طفلًا لا يتحكم ببكائه، فَقَدَ كل أقنعة الهيبة والقوة، فلا أدري لم قد نخبئ ما نشعر به من أجل ادعاءاتٍ زائفةٍ أو تقاليدَ وأعرافٍ مقيتة؟ فالحب لا بد أن يطفو ويعلو، فمن يدري أين ومتى تذهب بنا الدنيا وتموج بنا الأقدار!

خرج الأستاذ عبد العزيز من الغرفة وكأنه ترك قناعًا خارجها يرتديه، ثم أخبرني بأنه سيمكث بالخارج حتى تستقر حالته، ونظر في عيني ومقلتاه تملؤهما العبرات، وقال «لو احتجتي حاجة يا بنتي أنا موجود بره، ولو احتجتي ترتاحي ممكن تروحي ترتاحي»، أقبلت على يده ثم حاولت تقبيلها لا أعرف ما دفعني لذلك، وهو يمكن وصفه بكلمةٍ واحدةٍ «رجل بمعنى الكلمة».

هنا استطعت التعرف على شخصية ذلك الرجل القوي، والأب العظيم، وبالفعل ذهب خارج الرعاية بهدوءٍ شديدٍ، ثم عاودت الدخول حتى أكون بقرب ثابت، أحضر الطبيب لي بعض العصائر، فهم جميعًا يبذلون قصارى جهدهم، كلهم يحبون ثابت رغم أنه لم يعمل سوى عامٍ في هذا المكان قبل استقالته، غير أن كل من في المكان يحبه ويقدره، أشعر بأني أقوى امرأة في الدنيا وأنا بجواره، وإن كان يرقد على سرير، اضجعت على كرسي أحضرته لي إحدى الممرضات، وأخرجت هاتفي، فلم أدرِ ماذا حدث.. كنت قد سألت الناس الدعاء لثابت، وفوجئت بأثر ما قمت به، معدل مشاركات اقترب من خمسين ألف مشاركة لما كتبته،

بل واقترح بعضهم أن يتم إرسال ثابت لاستكمال العلاج خارج مصر، أسعدني ما قرأت، فلم ينسه أحد كما لم ينس هو أحدًا، هنا قررت نشر قصيدته التي كان من المقرر نشرها بعد نجاح الثورة، ويقول فيها:

«النيلُ يصرخُ في الدجى وينادي
والفــجرُ أذَّنَ فاتحًا لبلادي
إنّــي معَ الأشهادِ أرْفعُ جَبْهتي
اليومَ يا وطني أرى ميلادي
نفِّضْ غبارَ الخوفِ يا مصـريُّ
معتليًا عروشَ العز والأمجادِ
مزِّق رؤوسَ الجهلِ منتصرًا ولا
تحنِ الجـباه لجاهلٍ مستقادِ
واكتــبْ بعينِ العزِّ كلَّ قصيدةٍ
للمجدِ تروي قصَّة الأجدادِ
اليوم يا وطني أراكَ محرَّرًا
اليومَ سطَّر غضبة الأحفادِ
يا أيُّها النيل المعظّم قدرهُ
قُم رتِّل الألحان في إنشادِ
فلقدْ حملنا الموتَ فوقَ رؤوسنا
لا صمْتَ بعدَ اليومِ للجلَّادِ
مصرُ الَّتي باتت تزيّن وجهها
فرحى كبدرٍ هلَّ في الأعيادِ

والنور يسري طائفًا بشعابها
لبيَّك يا وطني بكلِّ فؤادي
يا مصر إنَّ اليومَ عرسٌ للعلا
فلْتقبلي بهدّية الأولادِ
إنَّا رسمنا النصرَ فوقَ جباهِنا
بالدِّم والروحِ والأجسادِ
والغدُ مشتاقُ ليوم لقائنا
نبني صروح العزِّ كالأوتادِ
الفجرُ منتظرٌ وأمسٌ قدْ مضى
والصبحُ يمحو ظلمةَ الإفسادِ
ياأيُّها الشعبُ الكريمُ بأصلهِ
يا خيرةَ الأبناءِ والأجنادِ
أبناءَ مصر فأنتمُ أملٌ لها
حصنٌ منَ الأسقامِ والأحقادِ
قوموا إلى الأمجادِ نرسمها معًا
ما كانَ مجدٌ يُبتغى برقادِ
مصرُ التي قالتْ سنحيا إخوة
لا فرقَ بينَ توضؤٍ وعمادِ
مصرُ الكنيسةُ والمساجدُ كلُّها
مهدُ الحضارةِ مأمنُ العُبَّاد
إنَّا كما قال الأنامُ لأمَّةٌ

محفورةٌ فوقَ السما بمدادِ
عهدٌ لنا حينَ السلامُ محبَّة
عند العداءِ محبَّةٌ لجهادِ
يامصرُ.. إنَّ الحبَّ يسري في دمي
وأنا لحبِّ سواكِ في إلحادِ
مصر التي شَرُفَ الزمان باسمها
أرضُ الكرامة قبر كل مُعادِ
اليومَ يا بلدي تهبُّ مـــمزِّقا
ذلَّ القيودِ وعلقمَ الأصفادِ
تحيا بلادي مصُر عاشت حرَّةً
رَغْمَ الأنوفِ وكثرةِ الأوغاد»

لاقت القصيدة رواجًا هائلًا بشكلٍ غير مسبوق، فقد بلغ عدد مشاركات القصيدة نصف مليون مشاركة، وسمّاها الجميع قصيدة الثورة، جلست معه حتى طلع الصبح ثم حضر لفيف من الأطباء من تخصصات مختلفة لتقييم حالته، أجمع الغالبية على أنه في حاجة إلى يومٍ أو يومين آخرين على جهاز التنفس الاصطناعي حتى يتم الاطمئنان بشكلٍ كبير على حالته، ثم حضر والد ثابت فهو لم يغادر حتى اطمأن من الأطباء، بل وطلب إليهم عدم السماح بالزيارة لأن الأعداد كبيرة في الخارج يودون زيارته، باقات ورد في كل مكان، وجمع غفير من الناس خارج الرعاية يودون الاطمئنان على حالته، ووكالات إعلامية ومحطات تلفزة، صار ثابت أيقونة الحب والرجولة والثورة لدى الجميع، وافق الفريق الطبي على تأجيل

الزيارة ليومين حتى تتحسن حالته، حضرت أخت ثابت، هي الأخت الوحيدة كما أخبرني ثابت، وهي من تولت تربيته بعدما رحلت أمه عن الدنيا في سنٍ مبكرة، تدعى فاطمة مضيئة الوجه، هادئة للغاية أنفها شديد الحمرة من البكاء، لم تقدر على الدخول إلى غرفة الرعاية، لم تستطع أن ترى أخاها بذلك الوضع فهو ابنها كما تقول، ليس مجرد أخ، قمت بالتخفيف عنها، ولاحظت أنها تعرفني جيدًا.

مضى يومان وما زلت لم أفارق غرفة الرعاية مع ثابت، ووالده أيضًا لم يفارقنا دقيقة واحدة، قرر الأطباء إيقاف كل العقارات المنومة محاولة لإيقاظ ثابت قبل فصله عن جهاز التنفس الاصطناعي فحالته تبدو جيدة الآن على حد قولهم، الجميع ينظر نحو ثابت، هو الآن يحرّك ذراعيه، حاول الطبيب التحدث إليه، وأنا في حالة ترقبٍ دائمٍ لما سيحدث، جفنا ثابت يتحركان بالفعل وكأنه ينصت لما يقول الطبيب، وبالفعل فتح عينيه، دمعت عيون كل من في المكان، كل الطاقم الطبي وأنا ووالد ثابت وأخته، وكأنَّ ما يحدث ضرب من ضروب الخيال، لكن ثابت يبدو مشوشًا، يقول كلماتٍ غير مفهومة، حينما سألنا الطبيب أخبرنا أن ذلك أمرٌ عاديٌ من تأثير العقاقير، تم فصل ثابت عن جهاز التنفس الاصطناعي، والجميع ينتظر حتى يستعيد ثابت كامل وعيه، وما هي إلا لحظات حتى وجدت الدكتور البرعي ينظر من خلف زجاج الغرفة، ذهبت نحوه وطمأنته ثم أخبرني بأنه لن يغادر حتى يطمئن عليه بشكلٍ كاملٍ، عدت لثابت فقد استأذن الأطباء الجميع بالخروج ما عداي.. تركوني ثم تحدّث معي الطبيب قائلًا «اللي حصل ده معجزة بكل المقاييس، واحنا كلنا بنتأسف لك عشان الفضل كله ليكي دكتورة ماري»، نظرت نحو الطبيب وهو ينظر للأرض ثم قلت «الفضل لمجهودكم انتم يا دكتور، ومش مهم أي حاجة دلوقتي المهم إن ثابت رجع».

استأذن الطبيب وانصرف، وجلست بجوار ثابت ما يقرب من ثماني ساعات. حضر والدي ووالدتي للاطمئنان عليه، قد أحبوه دون سابقِ معرفة، إنهم أهل الخير معروفون في السماء، ويحبهم أهل الأرض، نظرت نحو ثابت متأملة إياه.. كم أنت عظيم رغم بساطتك! الوقت متأخر جدًّا فالساعة الآن تدق الثالثة صباحًا الموافق الرابع عشر من فبراير عام ألفين وأحد عشر، والجميع نيام، لم يعد غيري وطاقم التمريض والطبيب مستيقظين، وفيما أتحدث مع إحدى الممرضات تدعى ثناء، وجدتها تشير إليَّ بطرف عينها نحو ثابت، استدرت ناحيته فوجدت ثابت يفتح عينيه، ثم تحركت شفتاه وأنا أكاد أطير من الفرحة، ثم قال:

- إيه اللي حصل؟ أنا فين؟

- حمدالله على سلامتك يا حبيبي.

نظر نحوي وعيناه بالكاد تفتحان:

- إيه اللي حصل؟ انتي بخير يا ماري؟

قلبي انتفض من فرحته، إنه يذكرني، صحت صارخة:

- ثابت فاق! ثابت فاق! ثابت فاق وافتكرني.

ذهبت لأبيه وبشَّرتُه، هرول الرجل مسرعًا معي، حتى كاد يسقط على الأرض، وظل ينظر إليه بإشفاقٍ ثم قال :

حمدالله على سلامتك يا ابني.

ووضع يده في يد ثابت حتى أطبق ثابت على يدِ والده، ثم انفرجت أسارير الرجل وتبدلت ملامحه، ولأول مرةٍ منذ رأيته وجدته يبتسم، حينها أيقنت أننا حقًّا انتصرنا، لأننا لم نستسلم لغير الحب، والحب وحده، فكانت المعجزة لمن

عـرف لغـة الله، الحقيقـة الخـالدة في هـذا الكـون، الـتي قـد يغفـل عنهـا الكثـير رغم سـطوعها ووضوحهـا، إنهـا المحبـة، طريـق الإنسـان إلى الله، ثالـوث الحقيقـة وسـلّم الأبديـة الأوحـد.